

الأدب العربي

في العصر العباسي الأول

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الحديث
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصْدِيرٌ

العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٤٣٣٤ هـ) حافل بكثير من الأحداث السياسية والتغيرات الثقافية والأدبية ، وهو عصر ازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب ، ونبغ فيه فحول الشعراء والعلماء والكتّاب ، وكان للنهضة الأدبية فيه دويها وأثرها في كل العصور الأدبية التي تلت هذا العصر العظيم .

وهذه الدراسة التي تتناول بالتحليل ، والشرح ، والنقد ، حياة الأدب العربي ، في ظلال الخلفاء العباسيين من ذوى النفوذ والسلطان والهيمنة على مصائر العالم الإسلامي ، خلال قرنين من الزمان ، سيجد القارىء لها أنها قد أحاطت بجوانب كثيرة من آفاق البحث الأدبي لهذا العصر ، المتشعب الأطراف ، المتعدد الجوانب ، وأنها تصور هذا العصر تصويرا واضحا ، يميز الألوان والسمات . . والله ولى التوفيق ، والهادى إلى أقوم طريق .

وما توفيقى إلا بالله ٩

المؤلف

الحياة الأدبية في العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٣٤ هـ

العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٥٣٣٤ هـ

يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح في الكوفة قيام الخلافة العباسية ، ولقد أخذ أبو العباس في توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ، وتتابع الخلفاء من بعده ، يسرون على نهجه من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ، والعمل على بناء مجدها ، وعلى رفع منارة العلم والأدب والحضارة في جميع جوانبها ، كل ذلك والخلافة في قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم وبهم ؛ لا رأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبي في شئونهم ، لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لا تزال تآمر بأمرهم ، وتخضع لمشيئتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجيههم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل في شئون الملك يبدو من أحد منهم ، خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبي مسلم الخراساني وزيره الفارسي ، والمنصور بأبي سلمة الخلال مع أن كلا منهما يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكاشع الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالافشين .

هكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تقييدهم للموالى وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود في سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة في عصر السفاح فالمنصور فالمهدى فالهادي فالرشيد فالأمين فالمأمون فالمعتصم فالواثق فالمتوكل الذي ولي الخلافة عام ٢٣٢ هـ ، والذي كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة .

وفي عصر المتوكل أخذ الحزب التركي العسكري يتآمر على الخلافة والخليفة ، ويحاول التدخل في شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ هـ . وبذلك ينتهي عهد نفوذ الخلفاء (١) ، ويبدأ عهد آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة .

ويستمر هذا العهد من عام ٢٤٧ حتى فتح البويهيين لبغداد عام ٢٣٤ هـ . وهذا العصر بعهديه هو أزهى عصور الإسلام ؛ وصفحاته المشرفة أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والأدبي للعرب .

ولا بدع فقد بلغت فيه الدولة الإسلامية المظفرة منتهى ما تطمع إليه من المجد والسلطان ، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته في العالم المعروف آنذاك ، يذكر اسمهم في بيزنطة أو روما أو الصين ، قرئند الفرائص وتخفق القلوب وتنحنى الهامات ، وتسير جيوشهم المنصورة في كل مكان ، وترتفع رايتهم في كل أفق ، حيث يستظل بظلها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاء والوفاء . . . وكان لخلفاء بني العباس ولاية في كل إقليم ، وحكام في كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين . وخليفة المسلمين - وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتستقر حينما استقرت .

(١) يختلف مؤرخو الأدب في نهاية هذا العصر ، فالبعض يجعلون نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ (ضحى الإسلام ج ١ ص ١٠٠) ، تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٧ / ٢ ، وتاريخ الأدب للزيات ص ٢١١) ، والبعض الآخرون يجعلون نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

وفي هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات في كل مكان ، تتقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس في حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبنون لامتهم مكانها الرفيع في عالم الفكر الإنساني ، ويؤثرون للحضارة مجدها الزاهي ، ويرفعون للفكر منارته السامقة .

وهكذا يمتاز العصر العباسي الأول بغلبة العناصر الفارسية نحواً من مائة عام ، ثم بغلبة العناصر التركية مائة عام أخرى ، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها في الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول في العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والآداب . كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل في تاريخ لغة العرب .



قيام الدولة العباسية

لا يذكر التاريخ الإسلامي في ثناياه وأطوائه ، وحوادثه وأحداثه ،
أمراً أغرب ، ولا حدثاً أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك
بنى أمية ، وعرشهم الذي رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل
والسخاء وقوة السلطان وطول البطش والعنف والطغيان .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة
مثيرة ، وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع
مقاييد الخلافة الإسلامية في أيدي العباسيين :

١ - وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول صلوات
الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الهون بهم في كل
مكان ، مما يصور بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسي المشهور ، في إحدى
قصائده حيث يقول :

أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي	ملامك في أهل النبي فانهم
لم في نواحي الأرض بمختلفات	لم كل حين نومة بمضاجع
وأيديهم من فيثهم صفرات	أرى فيثهم (١) في غيرهم متقسما
وآل زياد حفل القصرات (٢)	فآل رسول الله نحف جسومهم
وآل رسول الله في القلوات	بنات زياد في القصور مصونة
أكفا عن الأوتار منقبضات	إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوي ، ممن ينسبون إلى الإمام علي
ابن أبي طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسي ، مما ينسبون إلى

(١) النوء : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات .
(٢) حفل القصرات . ضخم الأعتاق ، كناية عن سمنهم .

العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .
ومصرع الحسين بن علي في كربلاء ، ومصارع أهله وأسرته ، ونفى بعضهم
من الحجاز ، شاهد على ما نقول .

ولما ازداد عنف الأمويين واستبدادهم بالعلويين ، ذهب ساداتهم يؤلفون
الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعلمون الحروب والثورات على خلفاء
بنى أمية . وكان الشيعة يرشحون لخلافة المسلمين من آل البيت سيداً بعد
سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ، ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية
ثم لابنه أبي هاشم العلوي بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقبلاً في الحميمة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث
أقام على بن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسي العريق . ويروي بعض
المؤرخين أن أبا هاشم - الذي لم يكن له أبناء يرثون دعوته - رشح
لإمامة الشيعة بعده ابن عمه علياً هذا ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى
أولاده ، وأوصى أوليائه باتباعه ، ويرى آخرون أنه تنازل لمحمد بن علي .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بني العباس ، فصارت
الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهضوا هم بالعبء كابر عن
كابر ، وماجد بعد ماجد : علي العباسي ، ثم ابنه محمد بن علي ، الذي ذاعت
على يده الدعوة لآل البيت في كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية في
الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعائه بأساليب الدعوة . والبلاد التي
يبتون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم في خراسان ، حيث المشرق
ومطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق ، وحيث ضعف سلطان بني أمية ،
وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبي وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم ، الذي حبسه مروان بن
محمد آخر خلفاء بني أمية ، حتى مات في الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه
أبو العباس .

ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحاً باهراً ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، في العراق وفارس ، وأخذوا ينزلون الأمويين في هذه البلاد . فطردوا ولائهم في خراسان ، وهزموا جيوشهم في فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق في قبضة المسودة ، أتباع بني العباس ، وشيعة آل البيت .

وفي ربيع الأول من عام ١٣٢ هـ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانتهاء دولة بني أمية ، وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيع ، وبهذا لقب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بني أمية وجنودهم في الجزيرة والشام . وفي معركة « نهر الزاب » قضى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوماً مدحوراً ، حيث تبعه صالح بن عم الخليفة العباسي ، وقبض عليه ، وقتله في آخر العام نفسه .

٢ - وثاني تلك الأسباب التي ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للدوالي عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عربية أعراية خالصة ، إذ كانوا يمتازون بالعرب اعتزازاً كبيراً ، ويحتقرون الموالى احتقاراً شديداً ، حتى كانوا لا يستمعون في دولتهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهيم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي (١) ، وكان لا يلي الخلافة أحد من أبناء المولدين الذين ولدوا من أمهات أعجميات (٢) ، وكان العربي في جيش الخلافة في فرق

(١) ٢٠٧ : ١ العقد الفريد .

(٢) ٢٩٧ : ٣ المرجع نفسه .

الفرسان، والموالي في عداد المشاة ، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعرييات بل أبطلوا ما وقع من أمثال ذلك الزواج ، يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني أن رجلا من الموالى خطب عريية من بني سليم وتزوجها فذهب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة وشكا إلى واليها إبراهيم بن هشام ، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضر به مائة موط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير في ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المائتين للدولى نكال وفي سلب الحواجب والحدود (١)

ويقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربي من السوق ، ومعه شيء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه ، وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عريية أعرابية (٢) .

من أجل ذلك كله فقد الموالى على دولة بني أمية ، وأضروا لها الكراهية والحقد والبغضاء . وكان العنصر الفارسي أكثر الموالى حقداً ، وأشدهم موجدة ، وأكظلمهم غيظاً وحنقاً على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطغيانهم الشديد لأن له تاريخاً قديماً ، وملكاً بائداً ، وحضارة موروثة ، وكان الفرس يحملون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم ، ولهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى في قيام ملك بني العباس ، فالثورة على الآويين قامت في بلادهم ، وكانوا هم جندھا والمحاربين في سبيلها وكان منهم القواد الكبار ، الذين حطموا خلافة بني أمية وعرشهم ، كآبي سلمة الخلال ، وآبي مسلم الخراساني .

(١) الأغاني ١٥٠ ج ٤ و ٢٥٦ : ٢ الكامل ، ٩٣ : ٢ العقد .

(٢) ٢٠٦ ج ٣ البيان والتبيين .

ولهذا كله كان للفارسيين في بدء الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ، مما يصوره لنا دارد بن علي عم السفاح في خطبة له : يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وقول أبي جعفر المنصور : يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ، وأوصى بهم قبل وفاته ابنه المهدي فقال : وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن سيئتهم . وتسكفهم على ما كان منهم . وتخلف من مات منهم في أهله وولده .

٣ - وثالث الأسباب في قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبيات القبلية ، التي أشعل ناراها خلفاء بني أمية ، مما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية في هذا العصر ، وهذه العصبيات ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيراً وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على اليمن ، فأنحرفت اليمن عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ، لم يجد صعوبة ، في تأجيج نيران الخصومات بين القبائل وزعمائها : وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعاً ، وأن يجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء المضربين ، وجديع بن شبيب السكرماني سيد التيمانية : وشيبان ابن سلمة الحروري رئيس زبيعة ، لم يستطع هؤلاء جميعاً الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهمر من العراق والشام .

وكان كل عربي شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . .

مما يصوره لك هذه الآيات ، يقول رجل من بني أسد بن خزيمة يمدح
يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانيين كلهم فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق في من عصبية لقلت : وألفا من معد بن عدنان
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى وطابت له نفسى بأبناء قحطان

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بني أمية ، وينبثق من الأفق نور جديد ،
يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتحية الناشئة ، التي بادرت بقتل مروان بن محمد
آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان .
وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام في نفوس العباسيين . دخل سديف
الشاعر مولى بني العباس على السفاح ، فألقى بمجلسه سليمان بن هشام هادنا
معلمتنا ، لتأمين أبي العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ماترى من رجال إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لاترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانته . . ودخل شبيل
عبد الله مولى بني هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بني أمية نحو المائة ،
فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقبلن عبد شمس عشاراً وانظعن كل رقلة وغراس (١)

(١) الرقلة : النخلة فانت اليد والجمع رقل ووقال .

ذها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد ساءني وساء قبيلي قسريهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا . . وبهذا البطش والتنكيل ، خلاص الملك لبني
العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلقتها الكوفة
ثم بغداد . . وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ؛
ويذل من يشاء ...

تولى عرش الخلافة في هذا العصر من بني العباس خلفاء ، دانت لهم
الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة .

وكان أولهم السفاح ، الذي اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل
الكوفة عاصمة للملكة ، وظل في الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من
عشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بني العباس ، وبني بغداد عام
١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم
العريقة في الثقافة والحضارة ، وكان متقدماً في علم الكلام داهية أديباً
مصيباً في رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن
الدول رونقاً ، وأوسعها رقعة ، بيد أنها صبغت في عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدي ، الذي ازدهرت في عهده الحضارة وشاع الترف
وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش في رعايته كثير من العلماء
والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادة ، ومات عام ١٦٩ هـ ،
فتولى بعده ابنه الهادي ، الذي ظل في الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه
هرون الرشيد ابن المهدي .

وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تنعج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع يباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع يباب الرشيد والمصاحب بن عباد من فخوة الشعراء (١) . وكان الرشيد يقتنى في سياسته آثار جده المنصور ، وفي سماحته آثار والده المهدي ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم في عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسي هزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) .

ويعد عهد المأمون ذروة في تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة في جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم في أيامه ، ونبغ فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد في أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخاه الأمين . وتولى الخلافة بعده أخوه المعتمد ، وكان عسكرياً بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم في الدولة على أيامه ، وبني (سامرا) واتخذها حاضرة للملكة عام ٢٢١ هـ ، وسارت في عهده نهضة العلم والأدب في طريقها الذي كانت تسير فيه . . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

وفي عهد جعفر المتوكل على الله اشتد نفوذ الترك ، واستحكم العداوة للشيعنة ، واضطهد المعتزلة والاعتزال وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأتراك عام ٢٤٧ هـ . وبذلك بدأ طور

(١) ١٧٠ ج ٣ يتيمة الدهر للثعالبي . وحمل الرشيد معه لما سافر إلى الرقة ثمانية عشر صندوقاً من الأسفار ليقطع بمطالعتها زمانه ، مع أنه لم يأخذ معه الاخبية بما في خزائنه (٥ : ٦٧ الأغانى) .

جديد في تاريخ الخلافة العباسية ؛ وهو عهد نفوذ الأتراك الذي ظل قريباً من مائة عام أخرى (٢٤٧ - ٥٣٣٤) وتولى فيه الخلافة المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد والمعتمد والمكتفي والمقتدر .

وفي فترة نفوذ الخلفاء كان للعصر الفارسي مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة في قصورهم ، وكان يده مقاليد الأعمال ، وتصريف شؤون الخلافة ، كان الخليفة عربياً هاشمياً ، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون ؛ يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالي في الدولة ؛ حتى كان أكثر من تولى الأعمال للنصور منهم إذ قدمهم على العرب وكثرت استخدامهم بعده ؛ حتى زالت رئاسة العرب وهيمنتهم . وفي عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ؛ فسيطر البرامكة - وهم من سلالات فارسية قديمة - على شؤون الدولة ، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون ينتصر للفرس ؛ إذ كانوا أخواله وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ، ويروى أن عربياً من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان ، فقال له المأمون : « أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما الذين فو الله ما أحببتهم ولا أحببتني قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتسكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عني ، .

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يثقوا بالعرب فأقصوهم عن الحكم والسلطان وأبعدوهم عن تصريف شؤون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة في قول إبراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية في وصيته لزعيم شيعته ، أبي مسلم الخراساني : « وإن

استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأبما غلام بلغ خمسة أشبار
تهمه فاقتله .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسي نقل العاصمة إلى بغداد في العراق ،
لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروي في
الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية في كل
ناحية حتى في العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان
والنيروز وسواهما ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم . . وكثرة
الفرس كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم
المناصب الكبيرة كالوزارة . . حتى أصبحت الدولة عربية اللغة إسلامية
الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة في عهد المعتصم كرههم وحذر
منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه « ماردة » منهم ، وبني لهم (سامرا) ،
وجعلهم قواد جيشه ، ومكن لهم في الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار
لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة في عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه
عام ٢٤٧ هـ في قصره « الجعفرى » وقتلوا معه وزيره « الفتح بن خاقان » . .
وكان ذلك مصراً دامياً لمجد الخلافة ونفوذ الخلفاء . وفي ذلك يقول يزيد
المهلبى الشاعر من قصيدة طويلة في رثاء المتوكل :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناي مفتقد ؟
ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حتمكم السادة المذكورة الحشد
ويقول الجعفرى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجأة فعادت سواء دوره ومقاره

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسي وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ربيع سر به
وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل وهتكت
على عجل أستاره وستاره
ووحشته حتى كأن لم يقم به
أنيس ولم نحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة
بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها
وبهجتها والعيش غصن مكاسره (١)
فأن الحجاب الصعب حين تمنعت
بهيبتة أبوابه ومقاصره ؟
وآين عميد الناس في كل نوبة
توب وناهى الدهر فيهم وآمره ؟
ويقول علي بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبراً لكل مصيبة سبيلي على وجه الزمان جديدها
وصار الأتراك منذ ذلك الوقت حتى نهاية العصر العباسي الأول أصحاب
السلطان في الدولة .

وكان الخلفاء العباسيون في هذا العصر يحرصون أشد الحرص على :

١ — نشر الثقافة والحضارة في أرجاء دولتهم الواسعة ، والعناية
بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة
العربية وتشجيع الفنون والآداب في كل مكان .

٢ — الاهتمام بأمر الموالي ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، وبسط

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جنع الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال
فلان طيب المكسر أى محمود عند الخبرة .

النفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالى حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .

٣ - العناية بالمظهر الديني الذي أقاموا عليه دعوتهم ، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاية أمورهم ؟ فلا عجب إذا أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة في الحشد الحاشد من رجال دولتهم وقواد جيوشهم وأن يخطبوا الناس ويعظوهم ، وعليهم بردة النبي وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين ، ويصور البحتري في قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة في عيد فطر ، تصويراً بارعاً رائعاً ، فيقول منها :

فانعم بيوم الفطر عيناً إنه	يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بمجفل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
حتى طلعت بضوء وجهك فاتجات	تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
واقفن فيك الناظرون فأصبح	يومي إليك بها ، وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها	من أنعم الله التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فمللوا	لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لأبساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع . تواضع	لله لا يزهي ولا يتكبر
فلو أن مشتافاً تكلف فوق ما	في وسعه لسعى إليك المنبر
ووقفت في برد النبي مذكراً	بالله تنذر تارة وتبشر
صلوا وراءك آخذين بعصمة	من ربهم وبذمة لا تخفر

الطابع السياسي في العصر العباسي الأول

يتميز العصر العباسي الأول (١٢٢ - ٨٣٣٤) (١) بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه حتى خلافة المتوكل (٢٢٢ - ٨٢٤٧)، ثم ضعفت الخلافة وضاعت هيبة الخلفاء وفسدت شئون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذي بلغ حدا كبيرا بعد ذلك (٢٤٧ - ٨٢٣٤) .

وأول من استخدم الأتراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لاشأن لها في الدولة بجانب الفرس والعرب (٢) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم ، وعاشوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها ، لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم «ماردة» تركية من السغد ، فنشأ معه كثير من طبائع الأتراك ، مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاوهم على الخلافة بعد قتل الأمين فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم

(١) يقسم بعض الباحثين هذا العصر إلى قسمين (ص ٩٥ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، وه ج ٤ التمدن الإسلامي ، ٢١١ تاريخ الأدب العربي للزيات ، ص ١٦٥ ج ١ ضحى الإسلام) . ويجعل كثير من الباحثين العصرين عصرأ واحداً (٣ آداب اللغة في العصر العباسي للألكندري ، ١٦ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي لمحمود مصطفى ، ١٦٥ ج ١ المفصل) .

(٢) ١٦٧ ج ٤ التمدن الإسلامي .

الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم ، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة (١) .

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسي مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعنه المعتصم فسكن الجند (٢) ، فكان ذلك أيضا مما زاد من تقرب المعتصم للجند الأتراك وإيثاره لهم .

وفي عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك ، اشترام وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً (٣) ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً (٤) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكرا لجيشه ، وحاضرة للملك ، منذ عام ٢٢١ هـ (٥) ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة وجيزة (٦) ، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية ، وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩ هـ (٧) . أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم في الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله بإسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ، ومنعوا الولايات (٨) .

(١) ١٦٨ : ٤ التمدن الإسلامي . (٢) ٣٠٤ : ١٠ الطبري .

(٣) ٢٣٣ : ٢ النجوم الزاهرة . (٤) ٤ العصر العباسي للسابعي بيومي .

(٥) ٩ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٦) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد .

(٧) ١٠٠ : ١ ظهر الإسلام .

(٨) ١٤٤ : ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام في دار السلام .

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك (١) ، الذين أخذوا يتكلمون بالفرس والعرب جميعاً، وسعوا في قتلهم ، وموقف الأفشين من أبي دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف (٢) .

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ واشناش م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسوام ، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبساتهم وتأيد الخلفاء لهم ، حتى إن الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ أشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً (٣) ، وفي عهده نكح بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب (٤) . ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ ، سعى الأتراك في ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه (شجاع) خوارزمية تركية ، فتم لهم ما أرادوا ، واستبدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم في الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات ، كثيرو الطمع في الأموال ، والعبث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ هـ وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم . ولكنهم كانوا يحكمون نديراً آخر لقتل

(١) ١٧٠ ج ٤ التمدن (٢) ٥٤ الأذكياء لابن الجوزي .

(٣) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .

(٤) ١٢ ج ١١ الطبري .

الخليفة (١) ، وتقدم باغر التركي حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التي دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتهر الذي كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة ، فقتلوه في قصره الجعفري ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في أواخر عام ٢٤٧ هـ (٢) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وكانت هذه الحادثة بدء مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفي ذلك يقول البحترى :

أكان ولي العهد أضمر خذرة فن عجب أن ولي العهد غادره
فلاملك الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء مناره

ويقول المهلبى :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناي مفترقد
ومنها: فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حتمكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى إسحاق بن إبراهيم المصعبى م ٢٣٥ هـ في الأتراك حين شنكا المعتصم غدر من اصطنعمهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعمهم أخوه المأمون من الرجال له (٣) . ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبورا فكل مصيبة سيئلى على وجه الزمان جديدها

(١) ٦٥ - ٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٢) راجع مقتل المتوكل ومرآة الشعراء فيه في (٢٦٠ - ٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد المهلبى فيه في (٣١١ ج ٢ وما بعدها من الكامل للبرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

(٣) راجع ٨ ج ١١ الطبرى .

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سببا في زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمتهم عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك في عهد المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، ثم في عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، ثم عادوا يخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه في الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثار منهم لايه ، ففي عهده قتل وصيف عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفي مصرعه يقول البحرى من قصيدة مدح بها المعتز بالله (١) :

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه وكانهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم بده وعسا ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فويخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه نالدا بابس ، وجروه برجله إلى باب الحجر ، وأقاموه في الشمس حافياً (٢) ، وكان بعضهم يلمطه وهويبقى بيده ، نخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ هـ ؛ ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ ومات بعد خاضه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى للموفق لالمعتمد ، وصارت كلمته هى العليا على الأتراك وقوادهم ، فكسج غير قليل من جماحهم ، وأثر ذلك فى حسن الأحوال قليلا .

(١) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ ج ٢ ديوان البحرى .

(٢) ١٦٢ ج ١١ لبرى ، ١٣٠ ج ٢ شذرات الذهب ، ٢٠ ج ٤ مروج الذهب

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) سيرة أبيه ،
فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ،
ولم يجابههم على حساب القانون والعدالة ، فاقصص من تركي ارتكب معصية (١) ،
وقتل قائداً تركيا قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومي على ذلك (٢) ، وفي
المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته في تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا	وكان نهباً في الوري مشاعا
وكل يوم ملك مقتسول	وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغضب	وأنفس مقتولة وحرب
وكم ففاعة خرجت من منزل	فغصبوها نفسها في المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً	يرونه دينساً لهم وحقاً
كذلك حتى أفقروا الخلافة	وعودوها الرعب والخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفي (٢٨١ - ٢٩٥ هـ) في خلافته بسيرة
والده من الحزم والزم والأخذ على يد الأتراك . وبعد وفاته ولي الأتراك
أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم
وظل خليفة إلى عام ٣٢٥ هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة في هذه الفترة تسير في طريق بعيد عن
المالوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ في أيدي الأتراك ، الذين لم يبالوا بشيء
في سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ،
وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فسكرهم
الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم في الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربي
صميم ، حتى هجا دعبلي المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

(١) راجع نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن الرومي ص ٣٠٣ .

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانة فانت له أم وانت له أب
ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها
فا بال عجم الترك تقسم فيتنا ونحن لديها فى البلاد شهودها
فأقسم لاذقت القراح وإن أذق فبلغة عيش أو يباد عميدها (١)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها
الجنود الشاكرية ؛ وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وقد حاول بعض زعماء
الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات
كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان ، وحاول
بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد
قدمها الجاحظ إلى الفتح ، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتصم ، ولكنها لم
تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأعاد كتابتها من جديد فى عهد
المتوكل ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك
وبطوتهم إلى حد بعيد (٢) ؛ وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت
جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

وكثر نفوذ الغلمان فى هذه الفترة وخاصة فى عهد المقتدر ، الذى كان
عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٣) ، وتولى كثير من الخدم
قيادة الجيوش وأهم الأعمال فى الدولة ؛ كبدر غلام المعتضد ، الذى تولى قيادة

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان ج ٢ ص ١٥٤ .

الجنود ونقش اسمه على الأعلام ، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً ، حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩ هـ . ونشطت النساء ، وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة ، وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتسايط الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية ؛ استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ - ٥٢٩٢) وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٢٢ - ٣٥٣ هـ) ، وهي تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) وهي فارسية ، والدولة السامانية في ماوآء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) وهي فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ - ٣٩٠ هـ) ، والدولة الدلفية بكرديستان (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) وهي عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠ - ٣١٦ هـ) .

وقد حفل هذا العصر بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجدد أخباره ونتائج في «مقاتل الطالبين» ، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فلقد كثر اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير ، عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى في تشريدهم ، وأمر في عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكر بلاء (١) .

(١) ٢٧٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ، ١٩ ج ٧ وما بعدها ابن الأثير .

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (١) ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٢) .

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والوائق لمحبتهم لعلی (٣) وكان شديد البغض لعلی وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان الأتراك في الدولة . وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة ، وبالخروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه (٤) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدته (٥) .

ولكن عهد المتعصب كان عهد خير على العلويين ، فإنه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً (٦) .

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتفي فنهام عنه (٧) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل علي (٢٧٩ - ٢٨٦ ج ٢ العقد) .

(٣) ظهر الإسلام ص ٤٦ ج ١ .

(٤) الإدارة الإسلامية لكردي علي ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

(٥) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .

(٦) الفرج بعد الشدة ص ١٢٢ ج ١ .

(٧) الأغاني ص ١٤٣ ج ٩ .

الطابع الاجتماعي لهذا العصر

- ١ -

ترتكز الحياة الاجتماعية (١) على الحالة الاقتصادية للدولة رقياً وضعفاً .
والحياة الاقتصادية في هذا العصر كانت شديدة الاضطراب والفوضى
إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للقرابين لدى الخلفاء
والوزراء (٢) ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين
حالة الناس وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء
الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم (٣) وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن
وهب الوزير أمام المهدي ، وعمت المصادرة وانتشرت بين طبقات الناس
وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لبيت المال (٤) ، وأنشئ لها ديوان
مخصوص (٥) .

وكانت ضرائب الأتليان أساس دخل الخلافة (٦) . ويدل على مدى
قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث - كما ذكر ابن
خرداذبة - نحو ثلاثمائة مليون درهم (٧) بعد أن كان في عهد المسامون

(١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .

(٢) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

(٣) ١٥٦ : ٧ مهذب الأغانى .

(٤) ١٨٠ : ٤ التمدن الإسلامي : ١٦٩ : الإدارة الإسلامية .

(٥) ٣٥ : ١ ظهر الإسلام و ١٦٩ الإدارة .

(٦) ٥٣ بارتولد و ٦٩ : ٥ التمدن .

(٧) ٦١ : ٢ التمدن .

والرشيد أكثر من ٣٩٠ مليوناً (١) ، وفي عهد المعتصم ٣٨٨ مليوناً (٢) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم (٣) وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدينارين أو خمسين مليوناً من الدراهم في العام (٤) قالباقي من مجموع الجباية هو الذي يبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة (٥) .

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة (٦) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدينارين - ٦٠٠ مليون درهم - وترك الرشيد واحداً وعشرين مليوناً (٧) - وترك المعتضد في خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما تركه من ثروة خاصة .

وكانت الدولة الإسلامية في ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

١ - العنصر العربي : أقصى عن النفوذ في الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم في ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة وطابع العربي الزهو

(١) راجع ١٧٩ - ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، و٥٣ : ٢ التمدن ، و ١٥٢ حضارة الإسلام في دار السلام .

(٢) وذلك وفق ما ذكر قدامة في كتاب الخراج ، ٥٩ : ٢ التمدن . ومتوسط الجباية في العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً في العام أينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥ مليوناً والباقي يظل في بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منه المرتبات والمسكفات ، ٦٩ و ٧٠ : ٥ التمدن .

(٣) ٣٥٣ - ٣٥٥ : ٣ الخضرى بك .

(٤) ٦٦ : ٢ التمدن .

(٥) ٦٧ : ٢ التمدن .

(٦) ١٠١ : ٥ التمدن .

(٧) ٢٣ : ٢ وما بعدها التمدن .

والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة .

٢ - العنصر الفارسي : وكانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم التي كانت لهم في العصر الأول ، فأخذوا يدرسون الدسائس والمؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال عن الخلافة ؛ وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبية ، وبعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف .

٣ - الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة (١) ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشراسة في جمع الأموال (٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك في قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلاسفة والجدل في الدين . وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة في الإصلاح .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وهما الزنج والروم :

أما الروم : فقد كثرت أسراهم في بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأون القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحرئى غلام رومى اسمه نسيم (٣) ، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٥٢٨٣ .

(١) ظهر الإسلام ج ١ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص ص ١٠ : ١ - مهنذب الأغاني ج ٧ ص ١٩٤ .

وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة وفي بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التي هددوا بها الدولة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) وكانت حرباً بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠ هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً (١)، والنفوذ والثرثرة في يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة في البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء (سامرا) أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل في بناء الجعفرى وسواه من المباني التي أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج في الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحسب الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواربه وحرمه (٢) . وفي تهنته المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ولا ببناء الجن في سالف الدهر

ويصف في أرجوزته في المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصرأ كم حكمة فيه تخال سحراً
أبنية فيها جنات الخلد لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين وحكمة مقرونة بالدين
ومظاهرات قوة الإسلام على أعاديه من الأنام

(١) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها في هذا العصر في التمدن الإسلامى

(٢٠ - ٥٩ : ٥٠١ ، ١٢٩ - ٥٠) .

(٢) التمدن الإسلامى ص ٩٣ و ٩٤ ج ٥ ، وظهر الإسلام ج ١ ص ٩٩ .

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) .

وكان من مظاهر الترف في هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور، فكثرت نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهب والمجون بين شتى الطبقات .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل، ومجالا للدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب، الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة . فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم ،

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع، ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها ، ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد والتلف . وفي بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول علي بن الجهم واصفا قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومازلت أسمع أن الملو
وأعلم أن عقول الرجا
فما رأينا بناء الإمام
بدائع لم ترها فارس
ك تبنى على قدر أقدارها
ل يقضى عليها آثارها
رأينا الخلالة في دارها
ولا الروم في طول أعمارها

وللروم ماشيد الأولون وللفرس آثار أحرارها
ولضيق الرزق وأبوابه على كثير من الناس كثر أهل السكدية ، إذ
كانت تدر عليهم أخلاف الرزق .

وحدث امتزاج شديد بين العناصر والأجناس التي تكونت منها الدولة
وأحدث ذلك آثاره في الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقام الصراع بين
الموالي والعرب ، وشبت نيران الشعوية ، وكثر لخط دعائها ، بمن يسوون
الشعوب الأجنبية بالعرب أو يرفعون من شأنهم ويفضلونهم على العرب ؛
وكانت غلبة النفوذ الفارسي ذات أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فانتشرت
الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد الفارسية ، وصعد الموالى إلى أعلى
مناصب الدولة ، وانتشر الرفيق والغناء ، وكان لها أثرهما في الحياة الاجتماعية
وفي ازدهار الشعر كذلك .

ولقد فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ،
وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ،
ومدنية باهرة وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفي أقل من قرن أصبحت
دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم
العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها
قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة
في الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب
في السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شؤون الحياة ، وتزوج العرب منهم ،
وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا
من آباء عرب وأمهات أعجميات (١) .

(١) يقصد بالعمم ماعدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من
فرس وروم وهنود وسريان وحيش وزنوج وسواهم .

وكان العرب قبلا هم السادة والحكام ، ويدهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ما هو عربي ، ويضعون الأماجم في منزلة دون منزلتهم . فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالي يرفعون رؤوسهم ويعتزون بكرامتهم ؛ ويمنون بأيادهم على الخلافة ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأغرق منهم سلطانا ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة ، وعماله وولاته . . . وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغروا في أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالي ، أثره البعيد .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ؛ بل الخلفاء والأمراء ، كانوا من أجمميات : فالهادي والرشيد ابنا « الخيزران » ، وهي أم ولد من خرشنة - بأرض الروم - ، والمأمون أمه « مراجل » ؛ والمعتمد أمه « مارد » ، والواثق أمه « قراطيس » ، وهي رومية ، والمتوكل أمه « شجاع » ، خوارزمية ، أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهي عربية هاشمية - وكان خصوم الدولة كثيرا ما كانوا يلوحون للخلفاء بنشأتهم في أحضان أمهاتهم الأجمميات . كتب محمد بن عبد الله العلوي للمنصور : « ولا أعرفت في الإمام ولا حضنتي أمهات الأولاد » ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول : « وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الإمام ، فقد نخرت على بني هاشم طرا : أولهم إبراهيم ابن رسول الله ؛ ثم علي بن الحسين الذي لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله مولود مثله » ؛ ويقول الشاعر متألما من كثرة أولاد الإمام :

إن أولاد السراى كثرت يارب فينا
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

وكان للجوارى والقيان اللواتى كثرت فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير فى زيادة الامتزاج والاختلاط ؛ يروى أن الرشيد كان فى قصره ألفا جاربية . والمتوكل ضعف ذلك ؛ وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن فى الأسواق ، ويهدين كما تهدى الطرف النادرة .

ولقد نشأ عن تقريب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا فى غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة ، والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شىء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاف البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وترتبطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

ولارىب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، فى حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جليلة فى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى العقول والأجسام ، وشتى نواحي المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلى :

١ — انتشرت للعادات الفارسية في المجتمع في هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذي صورناه ، وذلك الامتزاج الذي شرحناه ، سواء في الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والترد ، والخروج إلى البوادي والقرى للراحة أو الصيد ، واصطحاب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان ، وأخذ العرب يحاكون الفرس في العناية بموائدهم ، ووضع الزهور والرياحين عليها ، وفي تنسيق البيوت ، وإعداد الحجرات ، وفي الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً ، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان ، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والهدايا .

وذاعت الأزياء الفارسية ، من فلانس وأقبية ، وعمائم ، وسواها .

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة في غير طائل ، اللهم إلا إشباعاً للنفس ، وإرضاء لداعى اللهو واللذة ، فلا عجب أن غالوا في مادبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة ، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بريدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لا تنتهى . وكذلك فعل المأمون في بناءه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ ، فقد أعطاها في صداقتها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة ... وأرلعوا بالغناء ، وتفتنوا فيه ، وأبدعوا في ألحانه وجددوا في آلاته ، وأكثروا في مجالسه من الملح والعبث والشراب . وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها ، وبهجة منظرها ، وروعة قصورها ومنتزهاتها وميادينها وشتى مظاهر الحضارة فيها ، قال الشاعر :

أعابنت في طول من الأرض والعرض

كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها مريء، وبعض الأرض أمر آمن بنض
أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيعون بها ذرعا، للشقاء والبؤس
الشديد الذي كانوا يعيشون فيه، قال شاعرهم فيها:

تصلح للوسر لا لأمريء بيت في فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى أصبح ذا هم ووسواس
ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار في بغداد تصويراً رائعاً فيقول:

من مبلغ عنى الإمام نصائحاً متواليه
إني أرى الأسعار أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غيوم الدهر را ئحة تمر وغاديه
من للبطون الجائعات وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لا فقدت ولا عدمت العافيه
ألقت أخباراً إليك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديداً: فالنفوذ والثراء
وحياة اللذة والنعم حظ المترفين، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم.

وقد استلزم الترف: المغالاة في البنيان، والتنافس في تشييد القصور،
حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالاً طائلة، وأنفق المتوكل على
بناء «الجعفرى»، الملايين من الدنانير، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق
والدور والقصور وبيوت العبادة، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعم.

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة، حتى لقد أنشئت
المناصب الرفيعة في الخلافة، كمنصب الوزارة الذي تقلده في هذا العصر
أفذاذ من الرجال كأبي سلمة الخلال؛ وأبي أيوب المورياني وزير

المنصور ويعقوب بن داود وزير المهدي ، والبرامكة الذين وزروا للرشيدي ،
وبني سهل الدين وزروا للمامون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسي ،
والتقاليد والعادات والنظم الفارسية في دولة الخلافة .

٢ - وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد
والزندقة التي حاربها المهدي والرشيدي حربا لا هوادة فيها ، كما شاعت
الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل
بالمذكر ، وانتشرت الرشوة والخلاعة في كل مكان ، وكان للقيان والجوراي
أثرهن في هذا الميدان .

وإن كنا لا نتكر أن الامتزاج قد أكسب العربي سعة أفق ، ورحابة
صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك معه في الفضل
سواه ، وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء
الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار ابن العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثا
مهذبا ، يدين بالمحبة والإخاء .

٣ - وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد في العقول والأفكار ، فاتسعت
الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت
المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ،
يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ،
الذي دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم
القديمة من فرس ويونان ورومان وسريان وسواها ، وأخذ العرب
يتحضرون وينشئون المدارس ويشيدون خزائن الكتب ودور الحكمة ،
ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهند ، ومعارف
سواهم من الشعوب .

أما أثره في الأجسام فهو غير خفي أو منكور ، فلا شك أن العربي قد
صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ،

ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص المعجم (١) ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والحذق في الصناعة . إلى ما سوى ذلك من خصائص ومميزات .

٤ - وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة في تهذيب الأفكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر ، حتى ليلس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربي في هذا العصر والأدب في العصور السالفة :

(١) فلقد نشأ - بتأثير هذا الامتزاج - في الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفتت ألوان الخلاعة والمجون في الأدب ، كالإغراق والمبالغة في وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولاشك أن تفتت هذه الألوان وذوبت تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد، وما نحمل بين ثناياها من شهوات طاغية، ونزوات طائشة، وامتع آئمة .
ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليله ودمته من الفارسية إلى العربية ، فأرى العرب طراز القصة في النثر . وأكبوا عليها ، وأهجموا بها ، حتى لقد نظمه أبان اللاحق شعرا ، بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن أسن البهائم

(١) الابن الذي يولد من أب هربي وأم أعجمية يسمى « هجينا » ، والذي يكون من أب عجمي وأم عربية يسمى « مرقا » .

فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتمون هزله
وهو على ذلك يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

(ب) وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف في الأدب العربي،
ونما نمواً واضحاً ، واتسع مجاله ، وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة
المختلفة من قصور ورياض ، وأنهار وبرك وغدران ، تتوالى صورها أمام
أنظارهم ، فتلهب شاعرهم ، وتسمو بأفكارهم ، وتخلق بأخيلتهم .

وهذه أيضاً عادات العجم وتقاليدهم وأزيائهم ، ومواسمهم وأعيادهم ،
ومجالس لهوهم وشرايبهم وغنائهم ، ومرابع جواربهم وغلبانهم . كل ذلك
قد أطلق الألسنة ، وفتق الأخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس
فأخذوا يصفون هذه الألوان التي بهرهم بريقها ، وأسرم جمالها ، وأخذ
بالبابهم مافيا من حسن ونضارة . فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف ،
وعبروا عنها أجمل تعبير .

يصنع الأمين لنزته في دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات ،
فياخذ أبو نواس في وصفها ، فيقول :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ماركا به سرن برأ	سار في الماء راكباً ليث غاب (١)
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليها	كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)
ذات زور ومنسر وجناحي	ن تشق العباب بعد العباب (٣)

(١) أي سفينة على صورة الأسد وتسمى الحراقة بالثديد وفيها مرأى نيران
يرى بها العدو .

(٢) أي فوق سفينته الأخرى التي صنعها على شكل العقاب .

(٣) الزور : الصخر .

تسبق الطير في السحاب إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب
ويبنى المتوكل قصره د الجعفرى ، فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :
وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها
إذا أوقدت نارها بالعراق أضاء الحجاز سنا نارها
لها شرفات كأن الريح كساها الرياض بأنوارها

ويصف البحترى الريح وصفاً رائعاً فيقول :

أتاك الريح الطلق يخال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى أرائل ورد كن بالأمس يوماً
يفتقها برد الندى فكأنه يبك حديثاً كان قبل مكنما
فمن شجر رد الريح لباسه عليه كما نشرت وشياً منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت
بها هذه الحياة المزفة الالهية .

(ج) ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته ،
وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ،
وبراعة التحليل . فظهر ذلك بصورة واضحة في آدابهم ، وما أثور أشعارهم ،
ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى في القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد
والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعاني الدقيقة ،
والأخيلة البعيدة ، والفكرة العميقة .

وعمازاد في ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا

يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم .

يقول أبو إسحق إبراهيم بن موسى :

غزتي بجيش من محاسن وجهها فعبا لها طرفي ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحب
ولما نجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادي في يديها على العصب
وناديت من وقع الأسنه والقنا على كبدى : يا صاح مالي وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر قتيل عيون الغايات بلا ذنب

ويقول إسحق الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجراني لها عن ملالة ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فيما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كن خاف الندى أن يبيله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر
ويقول ابن المعتز في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أنقلته حمولة من عنبر

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً فإن زعمت بأن أتيت ذنباً فخير معتمد
قد تطرف الكف عن صاحبها فلا يرى قطعها من الرشد

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ؛ فقد روى أن لأمّاً
لام ابن الرومي فقال له : لم لاتشبهه كتشبيهاً ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟
فقال له : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله
في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أنقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدني ، فأنشده قوله في الأذريون - وهو زهر أصفر
في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه
وبفرشه في المنازل :

كان آذريونها والشمس فيه كالية (١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية (٢)

فصاح واغوثاه ؛ تالله لا يكف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف
ناعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ا ولكن انظر إذا
أنا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولي من الناس ا هل لأحد قط قول مثل
قولي في قوس النعام :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أنصر من بعض (٣)

(١) كالية : مخفف من كائنة بالهمز أي ناظرة ، من كلاً بصره في الشيء إدارده .

(٢) الغالية : نوع من الطيب .

(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهي

شعار يلبس تحمى الثوب .

وقولى فى صانع الرقاق :

مأنس لأنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر (١)
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر (٢)
إلا بمقدار ماتسداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر (٣)

وقولى فى قالى الزلاية :

رأيته سحراً يقلى زلاية فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبايكاً من الذهب

(د) وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت
المبالغة والغلو الشديد فى أدب الأدباء ، وشعر الشعراء . . يقول
أبو نواس :

وأخضت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فىك من كرم الطباع
وبقول بشار فى محبوبته :

إن فى برى جسمنا ناحلاً لو توكت عليه لانهدم

ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

(١) دحاه يدحوه : بسطه .

(٢) قوراء : واسعة .

(٣) انداح : اتسع .

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليقات ، العقلية في الأدب : شعره
وثره . . .

يقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يبسه
ويقول أبو تمام :

ينال الفتي من دهره وهو جاهل ويسكدي الفتي في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا لماتت إذا من جهلمن البهائم
وقال بشار :

هي الشريف يشين منصبه وترى الوضيع يزينه أدبه
والصدق أفضل ما حضرت به ولربما ضرر الفتي كذبه
وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ومن التعليقات الطريفة قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب
وقوله :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي (١)

(١) عطل من الأدب عطلا ، وعطلا إذا خلا منته ، والعطل : التجرد من الحلي .

وقال العباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عيني خيراً وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يسكتن شيئاً ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى فاستبدلوا عليه بالعنوان

(٥) وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت فى اللغة العربية ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم ، فزادت ثروتها فى الألفاظ . . . وإن كان للامتزاج آثار سيئة ، مثل شيوع اللحن والعجمة والسكنة فى الألسنة ، حتى أصبح شعر هؤلاء المولدين لا يحتج به ، كما كان يحتج بالشعر القديم .



الطابع الثقافي للعصر العباسي الأول

- ١ -

في العصر العباسي الأول ازدهرت الحياة الثقافية أو العقلية (١) ازدهارا كبيرا، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة وآثارها، في العلم والثقافة.. كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات.

كان النفوذ فيه للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على أيدي الوزراء وكتابهم الفارسيين، ونقل المثقفون - من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين؛ وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون، حتى قال ابن خلدون: إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (٢) . . . ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج الجنسيتين في الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية، وإذا كان خالد بن يزيد م ١٨٩ هـ أول من ترجم - أو ترجمت له - كتب النجوم والطب والكيمياء (٣)، فقد عني المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية في جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٣) ٢١٣ : ١ البيان والتبيين للجاحظ، ٩٧ الفهرست لابن النديم .

لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها (١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له السكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك (٣) .

وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهي مكملة لدار الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية في أمور الدولة ، فقد أخذت في ساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بزنطة (٥)

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً ؛ أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم في الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هي أهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات (٦)

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة في (٢٢٩ - ٢٣٣ الأدب العباسي لمحمود مصطفي ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ و ٢٦٨ - ٢٧٠ : ١ ضحى الإسلام) .

(٢) ٢٤١ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(٤) ٢٣٠ الأدب العباسي لمحمود مصطفي .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد . (٦) ٣٨٠ : ١ ضحى الإسلام .

وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معاني للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلا كبيرا . . وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكويناً سليماً وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة .

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التي تثقفت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا فضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين ، وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفصل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهرروا بالنجابة والذكاء وسعه التفكير وخصب الخيال .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحاً منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذي بدأ فيه بناء الحضارة ، وذاعت فيه ألوان الثقافة ، وقامت بقيامه حركة الترجمة على ساقها ، وأخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاحق العقول وظهر آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في البلاد الإسلامية .

وفي أوائل العصر العباسي الأول تغلبت نزعة الاعتزال التي أيدها المأمون بكل ما يستطيع وفي آخره وهو عصر النفوذ التركي انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة كـ محمد بن أبي الليث في مصر ، وأحمد بن أبي دؤاد في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له (١) .

ومراكز الحياة العقلية كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر ، وتفوقت الشام في الشعر والآداب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة في العلم والآداب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والسكندی بصريان ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ من حران ، وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامي واشتهرت بلخ وخرزم وأصفهان في ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ السكندی المشهور ، وأبو موسى الخوارزمي صاحب المؤلفات القيمة في الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهاني مؤلف الأغاني ، وسواهم من العلماء .

وبعد فهذا العصر كان زاخرا بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلا

(١) راجع ٤١ : ١ ظهر الإسلام .

(٢) راجع ٨ : ١ اليتيمة للشعابي ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

بالعلماء والمفكرين والفلاسفة . . وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (١) والأدباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكيك واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ، ويشور ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٢) ، وكانت جماعة الأدباء يضرجون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصدافته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة	وإلا ببستان وكسرم مظل
ولست تراه سائلاً عن خليفة	ولا قائلاً : من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة	يناظر في تفضيل عثمان أو على
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب	ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلاً	يقلب في اصطرلابه عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره	وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهاراً بعد ذلك ، وظهر أفاض من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامى

وقد نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في العصر العباسى كثير من أئمة العلماء :

(١) واشتهر على بن جور الفارسى - وكان كاتباً مترسلاً ذا علم بالنجوم - بادخالها في شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .
(٢) راجع ص ٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢-٤٠٦ ج ١ ضحى الإسلام) .

(أ) ففي التشريع الإسلامي نبغ : أحمد بن حنبل م ٢٤٠هـ، والكرائيسي م ٢٤٥هـ، والزعفراني م ٢٦٠هـ، وداود الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٥هـ) ، وإسماعيل ابن إسحاق قاضي بغداد ٢٨٢هـ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠هـ، والحري م ٢٨٥هـ، ويوسف بن يعقوب القاضي (٢٠٨ - ٢٩٧هـ) ، ومحمد بن داود الظاهري م ٢٩٧هـ .

(ب) وفي التصوف : المحاسبي ٢٤٣هـ والبسطامي م ٢٦١هـ وسهل التستري م ٢٨٣هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦هـ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٦٧هـ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩هـ ببغداد .

(ج) وفي علوم اللغة والأدب : مصعب الزبيري م ٢٢٦هـ، والتوزي م ٢٣٨هـ، وأبو العميل م ٢٤٠هـ، وابن السكيت م ٢٤٤هـ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥هـ، والمازني م ٢٤٩هـ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ، والزبير بن بكار م ٢٥٦هـ، والرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج م ٢٥٧هـ، والأشنانداني م ٢٥٧هـ، وعمر بن شبة م ٢٦٢هـ، وابنه أحمد م ٢٧٢هـ، والطلحي م ٢٧١هـ، والسكري م ٢٧٥هـ، وأبو العباس اليزيدي م ٢٧٨هـ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢هـ، والمبرد ٢١٠ - ٢٥٠هـ، وثعلب ٢٠٠ - ٢٩١هـ، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٠٧هـ. وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦هـ، والزجاج م ٣١١هـ، والأخفش م ٣١٨هـ، ونفطويه م ٣٢٣هـ، وابن دريد ٢٢٢ - ٣٢١هـ، ثم ابن الأنباري وسواهم .

(د) وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠هـ، وثمالة ابن أشرس م ٢٢١هـ، والنظام (٢٠٠ - ٢٣٥هـ) ، وابن أبي دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ) وبجي بن أكرم م ٢٤٢هـ، والعلاف البصري م ٢٣٥هـ، وابن الراوندي م ٢٤٥هـ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ) ، وأبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٢هـ) ، ثم ظهر أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٢٣هـ) ، وقد استمر

المعزلة في العراق يملون ويدرسون على يدي الجبائي وتليذه في الاعتزال:
محمد بن عمر الصيمري .

(٥) ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء : ابن ماسويه الطبيب
م ٢٤٣ هـ ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥ هـ ، ومحمد بن موسى الخوارزمي وهو مزيح
والكندي م ٢٦٠ هـ ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمي وهو مزيح
الحساب الهندي وأرقامه بين العرب ، والفارابي م ٢٣٩ هـ ، ثم بعد ذلك
ابن سينا م ٤٢٨ هـ ، والغزالي م ٥٠٥ هـ ، والرازي المتوفى ٦٠٦ هـ وسوام . .
ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم
أثر في الفكر العباسي : حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ) ، وأبو معشر
الفلسفي م ٢٧٢ هـ ، والبلاذري م ٢٧٩ هـ ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام
٢٧٨ هـ ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ ، والسرخسي م ٢٨٦ هـ ، وثابت
ابن قرة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) ، واسحاق بن حنين م ٢٩٧ هـ ، والرازي م ٣١١ هـ ،
وسوام .

ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة في العلم ، الأصيلة في الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التي امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التي اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولاغنى للملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها . ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فاليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفاضل ، كسقراط وأرسططاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللسكندانيين شهرتهم في الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة في النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة في الطب والفلك ورصد الكواكب ، ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدسة الرها ، وقسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان في أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق

كما نقلوا من علوم الهند كتباً في النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى ما ورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنوشروان العادل ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد «جوستينيان» قهر الروم لهم على إثراقاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة في الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون في هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حباً لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة في الإفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة في العصر العباسي : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمراً ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء في استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبية على هذه الممالك المفتوحة . فكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة . إذ وجدت في اللغة العربية استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التي أصبحت هي الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخي الفكر حركة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة ، التي كان لها أكبر الأثر في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

ولم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائيل شيئاً . اللهم إلا كناش أمرون في الطب ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاع هذه الترجمة عمر بن عبد العزيز في الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ذا ولع بالكيمياء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له في هذه العلوم كما يقول الجاحظ (١) وغيره ، ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت ذاتة في عصر بني أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة في العصر العباسي الأول فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ - فالطور الأول : يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من عام ١٣٦ هـ ، حتى عام ١٩٣ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، واشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولي المنصور عني بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يرسله بما لديه من كتب الفلاسفة ، واستخار لها مهرة الترجمة وكلفهم

(١) ٢١٣ : ١ البيان والتهيين ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

ياحكام ترجمتها إلى العربية (١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية (٢) . ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزاري ، كاقرب إليه جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذهُ طبيباً له . ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلياً ولي الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل مافي قواه من جهد وعزيمة ، فاقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمه له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل اسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد « دار الحكمة » ، التي كانت تحتوي نفائس الكتب من شتى اللغات ، وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور . وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كلية ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطي في الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون سخاء قادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي .

(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودي .

الآثار في ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

٢ - والطور الثاني لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهي بنهايته ، وكان المأمون عالماً متضللاً واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمه العقلي والعلمي لا حد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج الترجمة .

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة في كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرص الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم في تعلمها ، ويخلو بالحكام ، ويأنس بمحاضرتهم .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة في هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون في العرب كبريكليس في اليونان ، وأرغسطس في الرومان ، فأنهم ما بدأ به آباؤهم ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يعثوا إليه بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ؛ ومن المترجمين في عهده : الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم ، وقسطا ، وحبيش ، واصطفان ، وهم مترجمون من اليونانية .

٣ - أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بأبجلافة المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فذشطت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسماء والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزرُوا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

١- ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر، وكان هن جملة المترجمين للهامون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني . . ومنهم كذلك قسطا ابن لوقا البعلبكي ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب . ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للهامون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨ هـ . ومنهم : حبيش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وآل بنخيشوع وهم من السريان ، وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم في المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السيامة نقله حنين بن إسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

٢ - ومن أشهر المترجمين عن الفارسية: عبدالله بن المقفع، وآل نوبخت،
والحسن بن سهل، وجبله بن سالم، وإسحق بن يزيد، وهشام بن القاسم،
وسواهم .

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة، من أشهرها: كتاب كلية
ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع؛ وكتاب خدائنامه، الذي ترجمه كذلك
ابن المقفع، وسماه كتاب سير ملوك الفرس، وترجم كذلك الأدب الكبير،
والأدب الصغير، والدرة البتيمة، وكتاب انتاج في سيرة أنوشروان . ومن
الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً: عهد أردشير؛ وتوقيعات كسرى،
وهزار أفسانة (١)، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب
الحرب، وكذلك عهد أردشير إلى ابنه سابور ترجمه البلاذري شعرا (٢)
إلى العربية، ويقرنه صاحب الفهرست بكتاب كلية ودمنة (٣) . . وسوى
ذلك من نفائس المؤلفات .

٣ - ومن مشهورى المترجمين عن الهندية: منسك الهندي الطبيب الذي عالج
الرشيد، وصالح بن بهلة الهندي الذي دخل بغداد في عهد الرشيد أيضاً، ونال
شهرة واسعة، واشتدت مخالطته للأطباء . . . ومنهم محمد بن إبراهيم
الفرزاري، وابن دهن .

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم
والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسفار . ومما ترجم من كتب الأدب
الهندي: كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بيدباني الحكمة، وكتاب
السند هند - أى الدهر الداغر - في الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن
إبراهيم الفرزاري .

(١) معناه ألف خرافة .

(٢) ١١٣ و ١١٤ الفهرست .

(٣) ١٣٦ الفهرست .

٤ - وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والسكندانية . وما نقل عن السكندانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب .. وسواهما من نفائس المؤلفات .

وقد عني المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليوناني في العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئاً يذكر من آداب اليونانيين .. فإذا قرأنا ثبت الكتب المترجمة نجدها تبحث في كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبي يوناني مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ما لليونان والرومان من آثار أدبية عالية في القصص والبشيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات في علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والاسمار ، فهذا ابن النديم ينقل في كتابه الفهرست أسماء كتب للروم في هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، ، مما تحفل به مصادر الأدب العربي ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيواز ، وعيون الأخبار . . . وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسفراط وأفلاطون وأرسطو . يروي ابن النديم أن علي بن ربن النصراني نقل كتاباً في الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . : وهذه

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست . (٢) ٣١٦ الفهرست .

الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف
منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض
ما يؤثر منهما إلى العربية . بعد تجريدتهما مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلبسهما
من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف
العربي ، وليس فيما ما ينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان
شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء في البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن
بعض اليونانيين ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليوناني
القديم ، كالأساطير والملاحم والتثيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة
وشعر غنائي ، فلم تترجم إلى العربية إلا بآداء هوميروس ، ولا ما شابهها من
الآثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعرافاً
عن نقلها الى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليوناني في الترجمة إلى العربية بأن العرب
كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون
آداب اليونان ، ولا يقدرونها حتى حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين
على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أساموا ،
وخضعوا للحكم الإسلامي . . ولعل في هذا ما يفسر لنا غض نقاد العرب
المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم في صناعة البيان ، فهذا ابن الأثير يذكر
في كتاب « المثل السائر » أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا
بثقافة اليونان البيانية ، وينفي أن يكون هو قد تأثر في رسائله وكتابه بما
ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا
في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به
صاحب الكلام العربي شيئاً (١) .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حفظاً ، وأعلام كعباً ، وأكثرهم آثاراً ، في الأدب والشعر ؛ فهم في غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ما هم في حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسي على العموم قريب من ذوق العربي كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والآداب الفارسي في جملة ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول في كتاب «المثل السائر» : إنني وجدت العجم يفضلون العرب في الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفرس في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه . وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر .

ولم يجد المترجمون حائلاً يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية ، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان أن التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحياناً إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أمهم ، التي تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأجداد وأبطالهم المغاوير ، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة ، لتكون مادة للمفاكهة والسمر .

وفي هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير الأدب اليوناني في الأدب العربي . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية .

ولقد أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة في العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة في لغة العرب ، فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية في الألفاظ والأماليب ، ففوق تعريب العرب الأسماء الأجنبية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، كذلك عربوا بعض مصطلحات العلوم ، وأكثروا من التوسع في مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياء وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير .

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخيالاتهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ، فظهر العمق والترتيب العقلي ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر فيما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم . وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبالغات الكاذبة .

فضلا عن أنه قد نشأت علوم جديدة في عصر الترجمة كانت أثرها لها ، أمدت اللغة والأدب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة في النواحي اللغوية والأدبية والعلمية .

على أن حركة الترجمة كان لا بد أن يكون لها بعض الأضرار التي عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها :

١ - كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال السكون والبناء للجهول وصوغ المصادر الصناعية ، مثل الكيفية والكمية والذاتية والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية ، وكثرة الفصل بالضمير الغائب ، وسوى ذلك مما أوردت الألسنة لكثرة ، والأساليب عجمة ، والمنطق التواء ، والمملكات ضعفاً ، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً .

هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوع الأسلوب العلمي ، واستحداث أصحاب كل علم لغة تاليفية لها رهوزها ومعانيها وألفاظها ، وصعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكاتبين فيه . وهذه المصطلحات كثيرة متعددة : ففي الفلك والرياضة نجد : المرصد والزيج والتعديل والنخروط والدائرة والمثلث والمربع وفي الطب نجد : الصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد والسوداء والصفراء . وفي الفلسفة نقراً : الجوهر والعرض والتصوير والتصديق والموضوع والمحمول والقياس والشكل والكيفية والكمية والماهية والهوية واللانهاية .. إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت حتى وضعت لها معاجم خاصة ، منها كليات أبي البقاء ، وكشاف اصطلاحات الفنون ، وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى عام ٨١٦ هـ .

التأثير الأجنبي

في اللغة العربية وآدابها

كان امتزاج العرب بالعجم ، وما نشأ عنه من آثار ، وما ذاع بسببه من أفكار ، خطره الشديد ، ودويه البعيد ، في البيئة الإسلامية العربية .. ومن أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج ، وترتب عليه ، ترجمة العلوم المختلفة ، من شتى اللغات ، إلى اللغة العربية كما فصلنا .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء

والأدباء والشعراء شغلا كبيرا ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكثروا ثقافتهم تكويناً سليماً وليعدوا أنفسهم للناصب العالية ، والدرجات الرفيعة :

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العسامة التي تتقفت بها عقول المستعربين ، يدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة في البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون في موضوعاتها ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة في العواصم الكبرى في العالم الإسلامي : كخراسان والرى وخرزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع في العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية في طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجاة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلاً من الزواج بالأعجميات ، ويمدونه عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا في هذا العصر على الزواج منهن ، لما رأوا من وفرة جاهلن ، ونجاة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون في التسرى ، إلى أن نشأ فيهم علي بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرغبوا فيه وأقبلوا عليه .

فليس عجيباً إذن في هذا العصر أن تكثرت طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها في الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي في الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما في عصر بني أمية فكان أثره قليلا محدوداً ، لقلة الاختلاط ، وأنفة العربي من الزواج بالأعجميات ، ونفور العربية من الزواج بأعجمي ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار . وكان فحول الأدباء والشعراء والخطباء والكتّاب لا يزالون يعيشون في بلاد العرب ، أو قريباً من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالي لا تزال تكون نفسها في اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد نضجت بعد مواهبها وملكانها الأدبية .

فلما جاء العصر العباسي ، وبدأ بناء الحضارة ، وذاعت ألوان الثقافة . وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح في اللغة العربية وآدابها .

وقد ازدهرت الثقافة العربية وعلومها ازدهاراً كبيراً في هذا العصر ، سواء علوم اللغة أو الدين أو الأدب أو الفلسفة ، وتلافت بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، تلاقت هذه الثقافات المتعددة ، وكان لكل ثقافة منها شعبة وأنصار ، وإن كان كثير من الأدباء قد جمعوا بين مختلف الثقافات .

ولقد كان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج ، فإن من أسلم من أبناء الأمم الأخرى كان يقبل على قراءة القرآن ودراسته ، وعلى تعلم العربية وآدابها . .

الثقافات الأجنبية وأثرها في اللغة والأدب

أولى هذه الثقافات الأجنبية هي الثقافة الفارسية ، وترجع صلات العرب بالفرس إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ؛ وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية .

ولقد أقام الأكامرة إمارة الحيرة على حدود مملكتهم ، لحماية من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية في لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدى بن زيد وأميرة بن أبي الصلت .

وتأثر كذلك بعض الفرس بالأدب العربية ، حتى ليقال إن بهرام جور - وهو فارسي قديم - تعلم في الحيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية .

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامي ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد ، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية ، وحذق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب .

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالي من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشئ منصب الوزارة وجعل في الغالب وفقاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين .

ولقد جدد الوزراء والسكرتاب الفرس في نشر ثقافتهم وآدابهم والتسكين

لمفارفهم في البيئته العربية ، حتى صار الإمام بهذه الثقافة والتكئين من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب ، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة . فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم في الحكم وطرقاتهم في السياسة ، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه .

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب : « واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم ، ، وقال الرشيد للسكسائي معلم بنيته : « رونا من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والهند ، .

وأصبح للثقافة الفارسية في بغداد والحوضر العربية مقام كبير ، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التكئين لها وإشاعتها ، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية .

ويظهر أثر الثقافة الفارسية في لغة العرب فيما يلي :

١ - الألفاظ الفارسية التي عربت ونقلت إلى العربية ، وهي كثيرة لاحصر لها ، مثل الفالوذج لما يسمى عندنا « بالوذة » ، واللوزينج (١) ، ، والجوزينج لنوع من الفطائر بحشى باللوز أو الجوز ، والسكاخ وجمعه كواخ وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف ، والطباهجة (٢) لطعام من يعض وبصل ولحم ، والسكباج لمرق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكبيا وسك بمعنى خل وبابمعى طعام . . إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة .

(١) في اللسان : هي من الحلوى شبه القطائف .

(٢) هو اللحم المشرح في القاموس ، وفي شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : هو

السكباب ، وفي اللسان : ضرب من قلى اللحم .

ومثل : الدوشاب وهو نبيذ النمر ، والجلاب الماء الورد ، والمسطار الخمرة حلوة ، قال الأخطل : « حمرأ عيونهم من المسطار ، وغير ذلك من أسماء الأشربة .. ومثل السمور (١) والسنبجاب ، والخشنشار لطير الماء .

ومث : الدار صيني ، ومعناه شجر الصين ، والجلنار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بوسستان و « بو » معناها رائحة و « ستان » معناها موضع ، والسكريا ، والتوت ، والأذريون لنور أصفر معرب آذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاهل به ؛ إلى غير ذلك من أسماء النباتات .

ومثل : الأسطرلاب (٢) ، والزيج لحيط البناء ، والمهندز ، والزئبق ، والإكسیر ، والمغناطيس ، والزرنیخ .. وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات .

ومثل : البربط للعود ومعناها صدر العود لشبهه به - وبر بمعنى صدر - ولحم الزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس العلم الكبير والعسكر ، والتخت (٣) لما توضع فيه اثياب ، والدهقان لرئيس القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما في شفاء الغليل ، وفي القاموس المحيط : هو الجرة ذات العروة ، والبيمارستان لموضع علاج المرضى وبهار معناه مريض واستان موضع . إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية العربية .

وهكذا أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريف موجوداً منذ العصر الجاهلي ولكنه زاد وتما في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين .. وتعرف بواسطة ذلك الأوقات .

(٣) هو الدولار

٢ - قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجعلتها أفدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ - ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك اثقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلي :

١ - كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره ونثره في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد في النثر في هذا العصر ، وبشار وأبونواس شقا طريق التجديد للبولدين في الشعر . . وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير مافي بلاغات العرب والفرس جميعا من معان وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا آثاراً واسعة في الشعر والنثر ، فجددوا في المعاني والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح في عهد بني العباس يزدان بأحلى وأروع مافي أدب الفرس من معان وأخيلة فتعددت الأغراض واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنيق في التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص في هذا العصر : كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ،

ومثله كثير ممن أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل
ابن هارون والفضل بن سهل وسوام ، ممن كان لهم فضل كبير في رقي الأساليب
العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعاني
والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع
ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعاني الفارسية ترشد العربي إلى أمثل
طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور
الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالزرجس ، وكان يقول : وهو
ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على
كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات
العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجر في اللهب

وكان ابن الرومي يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعراً عربياً . ويقول
بزرجمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تقى ، وإذا أدبرت عنك
فأنفق فإنها لا تبقى ، فقال الشاعر العباسي :

فأنفق- إذا أنفقت إن كنت موسراً وأنفق - على ما خيلت - حين تعسر
فلا الجود يضي المال والجد مقبل ولا البخل يبق المال والجد مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالي
مشوبة بالمسكاره ، فانتصرت على الخول ضناً بالعافية ، فأخذته العتابة فقال :

وإن جسيمات الأمور مشروبة بمستودعات في بطون الأساود (١)
وكان العتابي الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعاني والأخيلة ،
وسئل لم كتبت كتب المعجم؟ فقال: وهل المعاني إلا في كتب المعجم ،
فالبلاغة لنا والمعاني لهم .

ويقول أبو هلال العسكري في رسالته : « التفضيل بين بلاغتي العرب
والمعجم » : « للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس ، .

٢ - هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس
وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصي ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ،
وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً .

وإن كنا لاننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من
ضعف الملسكات ، وكثرة العناية بالبديع الذي يحول دون البساطة والاعتدال
على الطبع .

وثانية هذه الثقافات هي الثقافة الهندية فلقد اتسعت الفتوحات الإسلامية
وانسابت جيوش العرب المظفرة في كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم الثقفي
السند في عهد الوليد بن عبد الملك وذلك عام ٥٩١ هـ .

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من
الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم
العربي ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة
بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التي كانت
قد اتهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالْحِكْمَة ، التي كان الهنود معدنها ، وبالْأَهْلِيَّاتِ والرياضيات .

ويقول القفطى في « أخبار الحكماء » ، (١) : الهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد . نعمة الممالك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز في فنون المعرفة كل الملل السالفة وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت تأليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكى بعض الأطباء من الهند أمثال منكه . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا في الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ؛ كأبي عطاء السندى الشاعر ، وكأبي الأعرابي العالم اللغوى المشهور ، وسواهما .

وللهنود نحو وحرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في البلاغة والأدب . قيل لهيلة الهندى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأتق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص اطراف معانيها . فترجمت فإذا فيها ما ترجمته « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوقة .. الخ (٢) .

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود في الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير الجميل ، قال ابن الرومى فى أبى القاسم التوزى الشطرنجى من قصيدة طويلة :

(١) ص ٢٦٦ المجمع . (٢) ٧٩ : ١ البيان والتبيين للجاحظ .

غلط الناس : لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مسكر يدب في القوم أخنى من ديب الفناء في الأعضاء
وأظن اقتراسك القرن فالقرن من منايا وشيكة الإرداء
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضاً جللتها بدماء
تقرأ الدست ظاهراً فتؤيد به جميعاً كما حفظ القراء

على أن أثر الثقافة الهندية في لغة العرب كان ضئيلاً يتمثل في هذه
الألفاظ الهندية التي عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والابنوس ،
والبيغاء ، والحيزران ، والأهليلج ؛ وسوى ذلك من أسماء الحيوانات
والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها في أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص
والحكى الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم في
الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل لزهر إذا حدا وشدا أقل وأكثر فانت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظرة في علم الطبائع لأن الهند تزعم
أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً .

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال الهنود في الفلك قول أبي نواس في الخمر :

تخيرات والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون
أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ثم سيرها من هناك
وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت
إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء في غير الشعر ، يقول ابن قتيبة :
قرأت في كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان
الحاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصم
ولا أمن . » .

إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربي من الثقافة الهندية .

وثلاثة هذه الثقافات هي الثقافة اليونانية ، وحين ازدهرت النهضة العلمية
في العصر العباسي ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون
الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت الكتب الفارسية المترجمة
الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان
وعلمهم وفلسفتهم وحكمتهم (١) ، ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات
اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية في لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة
عربت مثل : « البرجد ، وهو كساء غليظ مخطط ، والزبرجد ، والياقوت ،
والزمرد ، والقيراط ، والأوقية ، والبلغم ، والبرقوق ، واللوييا ، والترمس ،
والجائليق ، والبطريق . »

ومثل : إيساغوجي بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهي الكليات
الجنس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ومثل السفسطة
والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيولي بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون .
إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التي لا عد لها .

(١) كانت مراكز الثقافة اليونانية في الشرق كثيرة ، ومن أشهر هذه المراكز :
الاسكندرية - حران بالجزيرة - جنديسابور .

وقد أثر المنطق اليوناني في الفكر العربي تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معاني جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية في أدب العرب يتجلى في نقل بعض الحكايات والأسفار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعاني الفلسفية فتأثر بها الأدب العربي واكتسب منها سعة في الخيال وتهذيباً في الفكر .

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربي قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليوناني نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روايته لما أسلفنا .

وكان الباعث على الترجمة من اليونانية إلى العربية عوامل كثيرة ، منها أن حياة الحضارة في الدولة العباسية استلزمت أن تسند بالعلم ، ومنها الرغبة في استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين ، ومنها غلبة اللغة العربية على الأقطار المفتوحة ، فكان لا بد أن تنقل علوم هذه الأقطار القديمة إلى العربية ، ومن أهم بواعث هذه الترجمة ميل بعض الخلفاء العباسيين إلى العلوم الفلسفية كالمأمون . .

الشعر في العصر الأول

تقديم:

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية في هذا العصر بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها في الأدب واللغة متفاوتا ، فظلت منهاج الأداء والأساليب ولغة السكتاب والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نضجت معاني السكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلي ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن تخنى رأسها للعواصف الجائحة التي تهدم من صرحها الشاهق ، أو تززع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هي لغة التفكير والأدب ، وإن سايرت حركة الرقي ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما الوثابة في هذا العصر الحافل (١) ، لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها ، وعلى أية حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني (٢) وطرافة التقسيم .

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه - ٢٨٧ التوجيه الأدبي - ٢٣٥ الأدب العباسي لمحمود مصطفى - ٢٨٠ ج ١ ضحى الإسلام - ٢٤٤ الزياد .

(٢) وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية وعربت ، كثيرا من الألفاظ اليونانية .

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفا لا يعدو تلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر ، وهذه القصص الهندية التي أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككلمة ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية .

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللحن والمجون ووصف الراح ، وأدب الزهد تأثر كثيرا بنزعات الفرس ، وعنه نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصي ككلمة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعنتابي وأبي نواس وبشار وسواهم ، فأخرجوا أدبا عربيا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهرا بالترجمان ، وكان يقول :
هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد (١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوتة أحمر على كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب ، وراجع ص ٧٠ من هذا الكتاب .
(٢) وينسب البيت الأول لعلي بن الجهم (٢٣ ج ٢ ديوان المعاني) قال أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوتة أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب .

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظره مستطرف حسن من خمرة مزة كالجر في اللهب

وأخذ ابن الرومي معنى حكمة ابراهيم جور (١) فنظمه شعرا (٢). وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) في الدراوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارا واسعة في أغراض الشعر ومعانيه، وأوزانه وتوافيه، ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسماهم، مما ظهر أثره في الأدب العربي واضحاً. وإذا كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً في المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته، فقد كان في عهد بني العباس أعمق لافي الأسلوب البياني، بل في التفكير والخيال وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التأنق في النثر والشعر، وطابت الرقة والدمائة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم وأخبار الزهاد فيه، وبتأليف الكتب الجامعة في الأدب كاليان والنتيين وعيون الأخبار والكمال والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها بما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة أدب الكتاب بوضوح.

(١) فارسي قديم تعلم العربية في الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازي في كتاب المعجم، : إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر.
(٢) ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها زهر الأداب.

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحيى في نفوسهم الشعور القومى ، وذكروهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلمت الشعوية ، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان ما أثرهم ووزرى على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والخرمى ، ومهيار ؛ وفى الكتب يضعها أمثال أبى عبيدة ، والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعوى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال عماد ابن يزيد الأموى ، والجاحظ ، وابن قتبية ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصية الجنسية بما عاجله فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والأمراء ، جعل الأدب يستمر فى اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلاوة النعيم .

وبعد ذلك العصر استمر الأدب فى النمو والازدهار على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها . . ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية فى تشجيع الأباء والشعراء وتمثلهم ببغداد وخلافة بغداد فى العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب .

وانغماس الأديباء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهاها الخليج ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع جوانبها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مبادئها الوضيعة ، وملا شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون فى صراحة مكشوفة ، وعرى فاضح ، وابتدال مهين ، ومن

(١) الأدب العربى الأستاذ أحمد شعرازى .

شاء فليرجع إلى الأغانى ، أو يتيمة الدهر ، أو دواين كثير من الشعراء ،
ليستطلع ذلك في شعر بشار ، ومطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ،
ومسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، وحسين بن الضحاك ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير
من الدنيا والترغيب فى الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب ؛ وجد له مجالا
فى نتم لبعض الشعراء والعلماء ، وفى كثير من شعر أبى العتاهية ، وفى كل
ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال . . وكذلك قسوة الحياة
وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها فى كتب
المقامات ، قصصا للكادحين ، يمتالون على العيش بالمكر والخداع ، وفى أدب
المحررمين ، سخطا على الزمان ، وأئينا من البؤس والحرمان . واضطراب
نظام الحكم ، وفساد أدائه ، لم يعدم من ينعى عليه ، ويندد به ، أو من يروم
علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبحث عن أشد الظواهر
الاجتماعية تأثيرا فى الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى
وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه ، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم . فهم
الذين أثروا فى المجتمع ، ولونوا الحضارة ، بما ورثوا عن دولهم الدائلة ،
وحضارتهم الزائلة . وصبغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم ،
وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه ،
وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فىقول : « ضعف أمر الدين ،
وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتناول له ناس من آل الرسول
صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك
وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان . . ألا ترى أن الحال استعالت
عجم كسروية وقيصرية ؟ . هذا الربيع - وهو حاجب المنصور - يضرب
من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكو ذلك إلى أبى جعفر المنصور ، فىقول :
أصاب الرجل السنة ، وأخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة

شرف من الأدب ، بل الأدب كله في السنة ، وهي الجامعة للأدب النبوي والامر الإلهي ، ولكنها العزة بالإثم ، وقد سمو آيين العجم أدبا وقدهوه على السنة التي هي ثمرة النبوة .

تطور الشعر في العصر العباسي الأول

١ - كان الشعر - ولا يزال - صورة المجتمع في كل بيئة ، ومرآة الحياة في كل عصر ، وسجل الأحداث في كل زمان ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان ، ولأن الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوباً مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر في كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وانعكاساً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لعصره ومصره ، فهو في الجاهلية ديوان العرب الذي يسجل مفاخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجعة واستقرار ، وبأس ونجدة ، وحماسة وفتوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرأه فتجد في صفحته صورة البادية ، بوعورة مسالكها ، ووعوثة شعابها ، وخشونة هضابها ، وترى فيه الرمال والكشبان والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصيد والطراد أكثر مما ترى أى شيء آخر .

وهو في ظلال الإسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ويستجيب لدواعيها ، وتتحور أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتأثراً ببياناتها الحكيمة ، وتجاوباً مع ما أتبع للدولة من حظ في الحضارة ،

وما استجد من شئون في السياسة ، وما طرأ من عمران وعرقان . فزاه قد
خاض في العصية ، وجال في السياسة ، وصال في المدح والهجاء ، وأيد
وعارض ، وجادل وخاصم ، وجد في ميادين المجدين ، وتكشف في محارب
الزاهدين ، وتبذل في مواطن الغزل والمجون مع المترفين الإباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثيرًا عن منهجه الجاهلي ، لأصالة العروبة، وقرب
العهد بالبدوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع
عن خلطهم ، فلم تتغير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ،
إلا بمقدار ما سمح به التغير الطارئ في مناهج الحياة ، وأساليب العيش ،
ومظاهر الحضارة . وهو في جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدد الأشجان
وتنه العبرات ، وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجميل الحياة .

٢ - وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المجنح
يخلق في آفاق الجمال ، فيبنى من الصخر قصرًا ، وينبت من القفر زهرًا ، ويخلق
من الرسوم الدوارس ، شخوصًا وأوانس ، ويصور من البعر المتناثر لآلئ
وجواهر ... فما بالك به في العصر العباسي ، والحضارة في الأوج ، والمدنية
في القمة ، والطبيعة في جلوة ، والأرض في زينة ، والثقافة متنوعة ،
والمناظر متجددة ، والعمران في عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملكهم (بغداد) في ديار الأعاجم ، وامتزجوا
بهم كل الامتزاج ، واندمجوا فيهم كل الاندماج . ولهؤلاء ألوان من الثقافات ،
وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلق وأشتات من العادات والتقاليد . .
فكان لهذا كله أثره في نفوس الشعراء ، كما كان له أثره في نفوس العرب
جميعاً ، ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة
مالم يألّفه خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر

موفقة ، وتلك مجالس مفاكمة وسمير ، ومجالى منادمة وطرب ، إلى غير ذلك مما يمد الشعر ويغذيه ويثيره وينميه ، ويجعله يخلق فى أرحب أفق وأعلى سماء .
كذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدينة . وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة فى تصورهم ولهذا رأينا الشعر يخلق فى كل أفق ويغرد فوق كل فنن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الحباب ، ويفاكه السمار ، ويساجل الأوتار ، وينشد الحسن ، ويهتف بالجمال وهكذا انتقل من الصحارى المجدبة ، والخيام المطنبة ، إلى الرياض والغياض والقصور والزهور ، والجداول المترقرة أو المروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والتعيم .

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تجرح لهاته خشونة الحياة ، ويخفق شذوه لفتح الهجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ماشاء فرحاً ، وابتدع أفانين الشدو والغناء وما العصر العباسى إلا ذلك الربيع .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الإنسانية ، فيكون فى الجاهلية أنغام صبي ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرية وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطباع حياة ، ثم يستحير شبابه ، ويكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فيظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما : عبث شباب ، وأغاني طرب ومظاهر ترف . . . (١)

وظهر فى هذا العصر تياران فى الشعر لكل منهما خصائصه وميزاته : تيار الشعر البدوى بما يشتمل عليه من خصائص فكرية وفنية ، وتيار الشعر الحضرى بما يتميز به من سمات وخصائص . .
وسنفصل الحديث فى بعض الأسباب لتطور الشعر فى هذا العصر . .

(١) الزيات فى تاريخ الأدب العربى ص ٤٧

عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

١ - كان الخلفاء والأمراء في عصر نفوذ الدولة العباسية عرباً ، جرى في عروقهم دم العروبة ، وتواصلت ملكتها ، وسحرتهم بلاغتها ، ورأوا في الشعر مجدهم التليد وفخرهم القديم ، فحرصوا على روايته وإحيائه ، واهتزت أربابهم لسماعه وإنشاده ، وخلق أفئدتهم القول الرائع ، والبيان الفائق ، واحتلبت عطاياهم المدح الجيد ، وإثناء البليغ . ولهذا قربوا الشعراء ، وفرضوا لهم في بيت المال ، وأغدقوا عليهم العطايا والصلوات ، وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم انتكسب بالشعر للعيش والسكفاف ، إلى انثاء الواسع والغنى السابغ واختران المال ، والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم . حتى رأيناهم يقتنون الثروات الواسعة . ويسامون الملوك في المنزلة ، ويسارون ذوى اليسار في نعيم العيش ، وترف الحياة ، وامتلاك القصور والضياع .

قالوا : إن سلماً الخاسر مات عن خمسين ألف دينار ، ويحدثنا صاحب الأغانى أنه كان يأتى باب المهدي على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والشى ، وما أشبه ذلك من اثياب الغالية الثمن ، ورائحة المسك والطيب الغالية تفوح منه .

ومروان بن أبى حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ، وكان أبو نواس محظوظاً لا يدري ما يصل إليه ، وكان يتساجل في الإنفاق هو والعباس بن الأحنف صريع الغواني ، وكان البحترى ملياً ، قد فاض كسبه ، وكان يركب في موكب من عبيده (١) .

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لانكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء وما كانت تستدره رقاهم السحرية من مال . ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والارتياح لإنشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق وإلمام . فهذا المنصور يفجعه الدهر في ابنه جعفر ؛ فتستبد اللوعة بقلبه ، ويسد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سبيلا للعزاء إلا قصيدة أبي ذؤيب في رثاء آبائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبته في أهل بيته أشد من لوعته في ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاء ، حتى يصادف الربيع شيخا مؤدبا ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبي ذؤيب : « والدهر لا يبقى على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع . فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .. وكذلك كان المأمون ، وسيأتي من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره .

وكان الناس يعرفون للصدر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أخرج المواقف ، التي يتحاشون المواجهة فيها . كالذي حدث من نقض نقفور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يخبروه . فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أذاك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أوقد فعل ؟ ثم غزاه وفتح هرقة وكان الرشيد شاعرا كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا في

النهضة الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنايتهم به ، وإغداقهم على قائله .
يروون أن الرشيد قال في قبته :

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقه فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فدله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقال في رثاء جارية :

فارت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيفما كانا
قد كثر الكلام ولكنتى لست أرى بعدك إنسانا

وقال في جواربه الثلاث : سخر وضياء وخنث :

ملك الثلاث الأنسات عنانى وحلن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعنى البرية كلها وأطيعين وهن فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

أما الذى لاشك فيه فهو أنه كان أدق حساً ، وأتق ذوقاً ، وأصح فهماً
وبصراً به من سواه ؛ ولقد أنشد النعمانى يوماً فى صفة فرس :

كان أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قلباً محرقاً
فقال له : دع كان ، وفل نخال ، حتى يستوى الشعر .

وقالوا : إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمركة فى عسكرين بلا طبل ولا علم

ومنزلة مثل بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحترى فى عصرهم معروفة
بما يدل على أنه كان عصر ازدهار للشعر ، وعناية شديدة من الدولة والشعب
بنهضته ، بل لقد كان الكثير من الأمراء وأبناء الخلفاء شعراء مجيدين ،

من مثل إبراهيم بن المهدي وعبد الله بن المعتز وغيرهما ، ويفيض الصولي في قسم من أقسام كتابه الأوراق ، في ذكر الأمراء وأولاد الخلفاء من الشعراء ، ويقال إن المهدي حفظ شعر ذي الرمة في صباه ، ولولديه جمع المفضل الضبي مختاراته « المفضليات » .

هذا إلى سعة الثقافة الأدبية ، ونمو العلوم العربية ، واتساع الذوق الأدبي باتساع المعرفة والاطلاع ، وغير ذلك ، مما كان له أثره في زيادة العناية بالشعر والشعراء في هذا العصر .

ومن الأدلة على فطنتهم بالشعر وتذوقهم له ، ما يروى عن الأصمعي (١) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) وخلف الأحمر (٣) يأتیان بشاراً (٤) ؛ فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ؛ فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة (٥) ؟ قال : هي التي بلغتك ، قالا : بلغنا أنك أكثرتها فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحبت أن أورد عليه ما لا يعرف ؛ قالا : فأنشدها يا أبا معاذ فأنشدهما :

-
- (١) عبد الملك بن قريب الإمام في اللغة والأدب ، توفي عام ٢١٦ هـ وتجد الرواية في الأغاني : ص ٤١ ج ٣ ، وفي الدلائل ص ١٠ وفي المفتاح ص ٧٥ .
(٢) وفي الأغاني : خلف بن أبي عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفي عام ١٥٤ هـ وخلفه ابنه توفي في أواخر القرن الثاني الهجري .
(٣) من أئمة اللغة والشعر والأدب توفي عام ١٨٠ هـ .
(٤) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفي عام ١٦٧ هـ .
(٥) قائد من كبار القواد المشهورين في بدء عهد الدولة العباسية .

بكرًا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير (١)

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا بامعاذ مكان : إن ذاك النجاح بكرًا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : وإن ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرًا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين هينيه ؛ فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء - وهم من فحولة هذا الفن - إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه؟ (٢)

ولم تكن السياسة وحدها هي الباعث على الاحتفال بالشعر ، بل التلذذ به والتأدب بأدابه وتعرف أخبار الماضين فيه ، ولهذا كانوا يدنون مجالس الشعراء ويأثسون بهم في خلوتهم ويقترحون عليهم نظمهم فيما يجول بخواطهم ويسألون العلماء به عما يستغلق من المعاني ويستقدمون الرواة للسؤال عن بيت مفرد ليصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله .

سأل الرشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر : « ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ، فلم يعرفه أحد وكان الأصمعي مريضاً فأرسل إليه إسحاق الموصلي وبعث معه ألف دينار فأرسل إليه إن هذا عجز بيت لأبي الفشناس وصدره (وسائله أين الرحيل وسائله) من قصيدته :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه أقاربه
والرشيد من أكثر الخلفاء بحثاً في الشعر ، سأل أهل مجلسه مرة عن معنى قول الشاعر :

(١) البيت تجسده في الدلائل ص ٢٢١ و ٢٤٣ وفي المطوك ص ١٠٢ وفي المفتاح ص ٧٥

(٢) راجع ٩٦ و ٩٧ : شرح الإيضاح للخطيب القزويني بقلم محمد عبد المنعم خفاجي

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولاً
فتجادل الأصمعي والكسائي ولجا بين يديه في الخصومة وكان رأيه الفاضل
بينهما ... وأعطى الفضل خانما قيمته ألف وستمائة دينار مكافأة على أحسن
بيت قيل في الذئب .. وكان المأمون على غراره ، ولى ابن الجهم ولاية من أجل
بيت طلبه فوجده عنده ، وكان المأمون يبائع في إكرام الشعراء ويعفو عنهم
وإن تطارلوا عليه ، دخل إبراهيم بن المهدي غضبان فقال المأمون : ما بك ؟
فقال نال مني دعبل ، فقال : لك في أسوة أما سمعت ما قال :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو مارأى بالأمس رأس محمد
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

فقال : زادك الله حلياً يا أمير المؤمنين ، وذهب عن إبراهيم الغضب .

ولم يجتمع على باب أحد من الملوك ما اجتمع على باب المأمون والرشيد
من الشعراء ويشبه بهما سيف الدولة الحمداني وصاحب بن عباد ، وإذا
ذكر المحبون للشعر المثيبون عليه العارفون بمكانته المميزون لجيده ورديته
فاشد بالبرامكة وآل سهل وآل طاهر .

وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يحتسون في أموال الخلفاء
ويفرطون في الدالة عليهم ، ويشفعون فيما لا ترجى الشفاعة فيه ، فيفكون
رقاب العناة ويجيرون من الموت ويدخلون بين الخليفة وخاصته ، وكتب
الأدب مليئة بأخبارهم ؛ وقد بلغ من تأثير الشعر في البيئة الاجتماعية أن
نقشوه على جدران المنازل والأديرة وفصوص الخواتم وصدور المجالس
وطرزوه على الستائر والطنافس ، وعلى الأقداح والكاسات وسائر آنية
الذهب والفضة والأعلام والمصابيح ، وزينوا به أبدانهم فكتبوه بالحناء
على الخدود والأقدام ، وكان المجتمع العربي كله أصبح ذا نفس شاعرة ملهمة ..

٢ - وهذه أمثلة لعناية الخلفاء بالشعر :

(١) عناية الخلفاء العباسيين في هذا العصر بالشعر والشعراء معروفة مشهورة يروى أن أبادلامة أقبل على المنصور ، فأنشده :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقمعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلنكمو إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائد المنصور رأسكو فالعين والأنف والأذنان في الرأس

فمز أربحيته ، وأنساء حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شيء تجد أن
نعينك ؟ قال أبادلامة : تملأ لي هذه الخريطة دراهم ، فمئت فوسعت أربعة
آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء يبأبك وهم
كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني
منكم فلا يصغني بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هي دوية منتنة
تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لخب .
فن كان في شعره هذا فليصرف فأنصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذي
دخل فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة يبضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم الزراب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل
فقال : حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت بخمسة آلاف درهم .

وهذا ابنه المهدي (١) يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

(١) كان المهدي يعجب برائية زهير ويقول : ذهب والله من يقول مثل هذا
٢ : ٢٥٨ البيان والتهمين للجاحظ ط الخانجي ،

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلا ونايلا كأنهما عدل النبي ونايلا

فقال: أما ما ذكرت من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا .
وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله أحد فيه ، وإنني لأتجرأ جهدي ،
ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده:

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملكهم بخليفة كالدهر يخالط لينه بشماس
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدها فأنشده:
أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله فقد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً ، ودخل عليه ابن الخياط فدحه ،
فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :
لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذور الغنى أفدت وأعداني فأنفقت ما عندي

فلما بلغ المهدي ما فعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبي حفصة على الهادي فأنشده في مدحه :

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي : أيهما أحب إليك ثلاثون ألفاً أم مائة ألف تدور
في الديوان؟ قال تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف . قال : بل تعجلان
لك جميعاً ، فحمل له ذلك .

وروى الصولي عن سعيد بن مسلم قال : إني لأرجو أن يغفر الله لامهادي

بشيء ، رأيت منه . حضرته وأبو الخطاب السعدي ينشده في مدحه :
ياخير من عقدت كفاه حجزته وخير من قلده أمرها مضر
فقال الهادي : إلامن ؟ وبك . فقلت يا أمير المؤمنين : إنما يعني من أهل
هذا الزمان ، فذكر الشاعر فقال :
إلا النبي رسول الله إن له فضلا وأنت بذاك الفضل تقتخر
فقال ، الآن أصبت وأحسنت ، وأمر له بخمسين ألف درهم (١)

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر
كل عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء ،
ويتأثر بالشعر أبلغ التأثر ، حتى إنه لما آلمه لحن الملاحين الذين كانوا يتغنون
في دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو في السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه
ليصلح من أسننهم ، فعمل أبو العتاهية شعراً في الوعظ والتذكير بتقلب
الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر
بإطلاقه من السجن . فكان الرشيد يبكي وينتحب إذا سمع هذا الشعر
الذي كان منه :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح
هل لمطلوب بذهب توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب إنما من قروح
سبب المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين هبني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والاموت يغدو ويروح
نح على نفسك يامسك كين إن كنت تنوح

تموتن وإن عمرت ما عمر نوح

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بها دون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه خلعتة . وأمر له بعشرة من رقيق
الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه إبراهيم الموصلى لما ولي الخلافة واستوزر يحيى بن خالد، فقال :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها
فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

وقال المأمون يوماً لمحمد بن الجهم : أنشدني ثلاثة أبيات في المدح
والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده في المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أنهى غاية الجود
وأنشده في الهجاء :

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح الخبير
وأنشده في الرثاء :

ارادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان المتوكل جواداً بمدحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى
المتوكل . دخل عليه علي بن الجهم ، ويديه درتان يقلبهما ، فأنشده قصيدة
فرمى إليه بكرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها رهي والله خير من مائة ألف؟

قال : لا ، ولكنى أفكر فى آيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل تغرف من بجره البحار
الملك فيه وفي بنيه ما اختلف الليل والنهار
يرجى ويخشى لكل خطب كأنه جنة ونار
يداه فى الجود ضربان عليه كلتاها تغار
لم تأت منه اليمين شيئا إلا أتت مثله اليسار

فرمى إليه بالدرة الأخرى (١) ، ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان
ابن أبي حفصة ، فأنشده :

سقى الله نجداً والسلام على نجد وياحبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها لعل أرى نجداً وهيبات من نجد
ونجد بها قوم هوام زيارتى ولا شيء أحلى من زيارتهم عندى
فلما أنم القصيدة نفحه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة
من الظفر ، حتى أنطقه بالشكر فى قوله :

تخير رب الناس للناس جعفرأ فلكم أمر العباد تخيراً
فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطنى وأن أنجبرا
قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل
حاجة ، فسأله ضياعاً كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .
ودخل عليه البحرى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ،
فقال له : قل فى هذا يا بحرئى : قال البحرئى ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى
اعتزلت جانباً ، فقلت :

ذات ارتجاس بجنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورثة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رعد من وشى أنوار الربا في برد
كأنما غدرانها في الوهد يلعبن من حبابها بالتردد

فقال المتوكل : انظروا ماذا في الخزان من ماء الورد العتيق ، فادفعوه
إلى البحترى . قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعته بمال .

(ب) ولم يكن عظماء الدولة وولاتها وأمرؤها أقل اهتماماً بالشعر، أو بذلا
للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال ، حتى كرمهم خالد بن برمك
وسهام الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم . فقال بشار :

حذا خالداً في فعله حذو برمك فوجد له مستطرف وأصيل
وكان ذور الآمال يدعون قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل
فسهام الزوار سترأ عليهمو فاستاره لليجتدين سدول

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم . وكان يعطيه في كل وفادة خمسة
آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء وانقواد والرؤساء والعظماء
والأثرياء يبذلون للشعراء ، ويغدقون عليهم ، وكأنما أخذتهم رقى الشعر ،
وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون بالدين وبالشمال ، ويتخرقون في هذا العطاء

(١) الارتجاس : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة
والمزاد بصدق الوعد أن برقها ليس خلباً .

حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمنعون هذا المنع .

ولو أننا أفضنا في أخبار هؤلاء وتبعنا عطاياهم الجسام ؛ وصلاتهم التي تفوق الخيال ، لما اتسع ذلك المجال ، لحسبنا هذا القبس دليلاً على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف في مثوباتهم ، حتى صارت لهم منزلة لاتدانيها منزلة ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقبلون إسماءهم ، ويغضون عن أذامهم ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلًا هجا المأمون بقوله :

أيسومني المأمون خطة عاجز	أو مارأى بالأمس رأس محمد
إن الترات مسهد طلابها	فاكف لعابك عن لعاب الأسود
لني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أحاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول نخوله	واستنقذك من الحضيض الأوهد

فذهب أبو سعد الخزرجي ، وأنشد المأمون هذا الهجاء ، وقال له : أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسه ؟ فقال له : لا ، هذا رجل نخر علينا ، فانخر أنت عليه ، فأما قتله فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلًا ، متى كنت خاملاً ؟ وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفي مهدها ربيت (١) » .

وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي	إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة	وهفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا	ولا شك في خير الفعاليين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدباً ، وأمر بإطلاقه والحفو عنه .
وهكذا شفع له مقام الأدب . وجاء الشعر ، وما أعظمه من جاه عند
هؤلاء الناس .

بل إن أبعاد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم . ما كان
من أبي تمام حين شفع للوائح عند أبيه في ولاية العهد ، فقال :
فاشدد بهرون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بدون سوار

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الإجلال ، ويجلونهم
من نفوسهم وقلوبهم تلك المسكاته ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه
المنزلة ، فلا يكتفون بما يسد رمقهم ، أو يغني حاجتهم ، بل يغمرونهم بالعطاء
ويغرقونهم بالثراء ، ويفعمونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم
لا بد أن تعمر مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم
بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب تترنح أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهنز
أريجيتهم نشاطاً له ، وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء في هذا العصر - كما كان لغيرهم من رجال الفن
والأدب - مجالس يتفقا كهون فيها بالطريف من الشعر ويتسامرون بالغريب
من الرواية ، ويتجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ،
ويستجيدون الجيد ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة
الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ،
واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل
والقلب والشعور ؛ وهذا مما يدل على مدى العناية الفائقة التي أولاهها
الخلفاء والأمراء والولاة للشعر والشعراء في هذا العصر .

وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر في هذا العصر :

١ - قالوا إن المنصور ركب يوماً هجينا في وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس تلعب بين عينيه . فقال لمن حوله : إني قائل بيتا ، فمن أجازته فله جبتي هذه ، وقال :

وهاجرة نصبت لها جبتي يقطع ظهرها ظهر العظاية (١)
فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعي على خدي وأقصر واعظايه
فتزع المنصور جبته وهوراكب ، وأعطاهاله ، فباعها بأربعمائة دينار .
٢ - وعقد المهدي يوماً مجلساً لمروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كان أمير المؤمنين محمداً لأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهمو سقته به الموت الحتوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ، فقال يابني العباس ، هذا شاعركم المنتقطع إليكم المعادي فيكم ، فأتوه مايسره ، فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وأعطاه هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ، ثم قال له : وسيايتك مني ما يؤديك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت مني ما سأزداد به شعراً .

٣ - وكان الهادي مغرماً بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو ابن معد يكرب الزبيدي ، عقد مجلساً للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدي من يبي ن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغضت عليه الجفون

(١) العظاية : دريئة صغيرة ملساء تشبه سام ايرص .

أخضر اللون بين حديه برد من زعاف يمين فيه المنون
فاذا ما سلطته بهر الشمه من ضياء فلم تكدر تستبين
ما يبالي من انتضاه لحرب أشمال سطلت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقوس المش هل ما تستقر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم .

٤ - وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ،
لأنه كان عالماً شاعراً أديباً ، ذا حس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب
وغرام بالشعر ؛ كما كان أجزل الخلفاء عطاءً ، وأبلغهم تأثيراً وتقديراً ؛
وهو الذي شق عليه امتناع أبي العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمته
حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح في رده عن هذه الحال ، أمر بضربه
ستين عصاً ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر ،
ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد
وأمر بالتوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية في امرأته :

من لقلب متيم مشتاق شفاه شوقه وطول الفراق
طال شوقي إلى قعيدة بيتي ليت شعري فهل لنا من تلاق؟

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل الستين عصاً ، ستين ألف درهم .
ودخل عليه أعرابي فأنشده ، فقال : يا أعرابي أسمعك مستحسناً ،
وأنكرك متهماً ، فقل لنا بيتين في هذين - الأمين والمأمون - فقال : يا أمير
المؤمنين حملتني على الوعر القرد (١) ، وأرجعتني عن السهل الحردد ، روعة
الخلافة ، وبهر الدرجة ، ونفور القوافي على البديهة ، فقال الرشيد : قد جعلت

(١) القرد : ما ارتفع من الأرض .

أعتذارك بدلا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفست الخناق ،
وسهلت ميدن السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبد الله ثم محمد ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك
قال : الهنيدة (١) يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع .

وروى حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعي
والكسائي ، فسأل الرشيد عن بيت الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا

فقال الكسائي : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعي وتهاanf (٢) ،
فقال الرشيد : ما عندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضا أنه
دخل في شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام . فقال
الكسائي : ما هو إلا هذا ، وإلا فما المعنى للإحرام ؟ قال الأصمعي : فخر وني
عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان لم
يأت شيئا يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعي ما تطلق في الشعر .

ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده
وابسط له في البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه ،
مقصرأ عن غده . فقال الرشيد : يأسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده

(١) الهنيدة : مائة من الإبل .

(٢) التهاanf : ضحك في قنور واستهزاء .

ومن الحديث أصح وأبلغه ، ومن البيان أفصح وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أحداً تقدمني إلى هذا المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بني لوى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذلك تزيد سادة عبد شمس

٥ - ولم يكن المأمون بأقل من أيه فهما للشعر ، وبصرأ بالأدب ، وعناية بالأدباء وإفساحاً في مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبي حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً

فلم يطرب المأمون ، ولم يسغ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان لعمارة بن عتيل : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ؟ والله إننا لننشده أول البيت ، فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان : إنه لم يتحرك لقولي . فقال عمارة : إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها ، وفي يدها مسابحها ! فن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أني أخطأت .

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون في سمره ليلة ، فدار الحديث على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد - بفتح السين - من هوز ، قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي كرم

الله وجهه عن رسول الله . إذا زوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها
سداد بكسر السين - من هوز ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ،
وقال يانضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ فقلت نعم ، لأن السداد بالفتح
لحن ، قال أو تلحنتي . قلت : إنما لحن هشام فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال
فما الفرق بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد في الدين والسيدل ، وبالكسر
البلغة وكل ماسددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟
قلت : نعم ، هذا العرجي يقول :

أضاعوني وأى قتي أضاعوا ليوم كرية وسداد نخر

قال المأمون : قبح الله من لا أدب له ، ثم أمر لي بخمسين ألف درهم ،
ودفع لي الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

٦ - واجتمع الشعراء في مجلس المعتصم فقال لهم : من كان منكم يحسن
أن يقول مثل قول منصور النيرى في الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية	أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فآله رافعه	ومن وضعت من الأقسام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً	فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله	أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الحميري : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها	شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة	إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه في الظلماء منبجاً	إذا استنارت لياليه به الغرر

فمش له وبالغ في جائزته :

٧ - وكذلك كان المتوكل في مجالسه ، وبالبحرئى يصول فيها ويجول :

ولقد شهد أبو عنبس الصيمري بعض هذه المجالس ، فقال : كنت في مجلس المتوكل والبحترى ينشده :

هن أي ثغر تبسم وبأي طرف تحتم
حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر ال متوكل بن المعتصم
والمجتدى بن المجتدى والمنعم بن المنتقم
أسلم لدين محمد فإذا سلبت فقد سلم

وكان البحترى من أبيض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر المتوكل وقال لي : أما تسمع ما يقول يا صيمري ؟ قلت بلى ياسيدي ، فرني بما أحببت قال بحياتي : اهججه على هذا الروي ، نقلت :

أدخلت رأسك في الرحم وعليت أنك تنهزم
يابحترى حذار ويدحك من قضاقة ضنم^(١)
فلقد أسلت بوالديك من الهجا سيل العرم
فبأي عرض تعتصم وبهتسك جف القلم
وبحق جعفر الإمام ابن الإمام المعتصم
لأصيرنك شهرة بين المسيل إلى العلم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق يديه ، وخرج البحترى غاضباً .

(١) قضاقة : جمع قضاق وهو الأسد ، ضنم : جمع ضنيغم وهو الأسد .

المحدثون والمولدون

الشعراء المحدثون هم الذين نشأوا في العصر العباسي وتأثروا بمظاهر الحضارة المختلفة فيه ، والمولدون منهم هم الذين نشأوا من أب عربي وأم أعجمية ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ؛ وقد يطلق لفظ المولدون على ما يطلق عليهم لفظ المحدثين من شعراء العصر العباسي وحضارته ومن اتساع أفق الخيال باتساع المشاهد ومختلف المناظر فيه .

وللمولدون حسناتهم وسديتاتهم أما حسناتهم فيمكن أن نعدّها فيما يلي :

١ - تنازلوا معاني المتقدمين فزادوا عليها وكشفوا عن مواطن الجمال فيها .

٢ - واخترعوا معاني جديدة لم تكن تخطر على بال متقدم .

٣ - وكسوها أسهل الكلام وأعذبه على اللسان وأخفه في السمع وألصقه بالقلب .

٤ - وفتحوا في الأدب العربي فتحاً جديداً بزيادتهم في أغراضه التي جعلته أدباً رفيعاً خليقاً بالعناية به والاحتفال له وصيرته فناً عالياً يهذب النفس ويصقل الفكر ويسمو بالوجدان حين يطالع ماتضمنه من أمثال سائرة وحكم عالية ومواعظ شافية وتصوير لمجالي الطبيعة ومظاهر الكون .

٥ - ولهم في باب الخيال الشعري الصور الرائعة التي تسحر النفس وتجعل عن الوصف وحسبك أن تستعرض ما مر بك في فن البيان لتدرك بدائع خيالهم وتعلم ما قدمه المحدثون للأدب العربي من حسنات ومن محاسن المولدون .

٦ - براعة الاستهلال وحسن التخلص والخروج لتمام حذقهم وجودة

صنعتم وعليتهم بأنهم مواطن إذا وفيت حقها من التجويد استمالت الأسماع إليها وعطفت القلوب عليها ومن ابتداءاتهم الحسنة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

على أنهم لم يسلبوا من العيب فقد نعى عليهم العلماء أموراً ترجع إلى اللحن فى الإعراب والخروج على أوضاع اللغة وأنهم يسهلون كلامهم حتى يصيروا به إلى الساقط السوقى وأن لهم معانى غامضة متناقضة واستعارات بعيدة أو سخيصة ينبو عنها الذوق وأن فرط شغفهم بالبديع دعاهم إلى استهلاك المعنى وإلى أن يصير الكلام ضرباً من الخداع والتزويق لا تأدية للراد وأنهم قد تدعوهم شهوة الإعراب إلى التشبه بالأعراب فيخلطون بكلامهم الرقيق العذب وأسلوبهم السهل الممتنع الألفاظ الغريبة ، والحق أن هذا تحامل وأن المتقدمين وقع لهم مثل هذه الهفوات ولكن العلماء بالغوا فى الاحتيال لهم والاعتذار عنهم بضروب من التخريج تكشف عن المقابح دون أن تمحوها :

إذا كان وجه العذر ليس بيبين فإن اطراح العذر خير من العذر

فإذا لم يسع المتأخرين ما وسع المتقدمين كنا باعين فى الحكم مجاوزين حد الإنصاف وقد يقال إن المتأخرين أهل تجويد وفقه فى اللغة وعرفان للطرده والشاذ فكان عليهم أن يجنبوا كلامهم ما يهجنه وللقائل وجه ولكن يبدو أن الضرورة تنزل الشعراء فى كثير من الأحيان على حكمها .

ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا العصر

تأثرت ألفاظ الشعر وأساليبه بعوامل ثلاثة : الحضارة ، والغناء ، واختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية .

١ - أما تأثير الحضارة في ألفاظ الشعر وأساليبه فهو شديد الواضح ، فقد تغيرت الحياة العربية في هذا العصر الذهبي تغيراً ملموساً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة في جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها ، وألوانها ، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون في اللباس ، ويفتنون في الطعام ، ويخرفون في المسكن ويتصنعون في كل مظهر . فلم يعد مسكنهم بالخيمة التي ترفع عمدتها ، وتشد أطناها في رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد ، وتزركش بالستائر ، وتحلى بالمرصعات ، وتقالق بالثريات ، وبالقرب منها ، قصور الخلافة بسقوفها المحلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبائها العامرة ، ولياليها الساهرة ، وقيانها المغردة ؛ ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه في صحاف الذهب والفضة ، ويخلطونه بماء الورد والكافور (١) ، كما يحلون أواني الشراب بالصور المنقوشة ، والحلى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس في قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاير فارس

وكذلك كان تأقهم في الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة بألوان الزهر كما يلبس النساء ، والنساء يلبسها مطرزة موشاة ، وهذا ابن الرومي يشبهها بقوس قوح فيقول :

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠١

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً
على الجو دكنا والحواشي على الأرض
يطرزاها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر لآثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وكن يحاين الرؤوس بجلى من الذهب ، ويزينها بالعصابات المنضدة ،
ويحاكين الفارسيات في صبغ الشفاه والحدود .

هذه الحضارة الزاهية بألوانها ، ومظاهرها ، وما فيها من جمال وتجميل
وزخرف ووشى ، وصنعة وتصنيع ، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة
الفنية الخاصة ، كما يقول ابن خلدون : « وعلى مقدار عمران البلد يكون
جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها ، بحيث تتوفر
دواعي الترف والثروة (١) ، وهكذا تأثر الأدب بالمدنية والحضارة ، وكان
الشعر دائماً أكثر تأثراً ، وأسرع استجابة للمدنية والتحضّر ، لأنه المجال
للظرف والتأنيق ، والمصور للحسن والجمال ، والمحاق فوق الطبيعة بأجنحة
الخيال . والموضوع الأول للحن والغناء ، ومن مظاهر تأثير الحضارة
في ألفاظ الشعر وأساليبه . ما يلي :

١ - رقت ألفاظه وعذبت ، ولانت تراكيبه وسهلت ، حتى كاد كل
منهما يسيل رقة حاشية ، وأناقة مظهر ، وعذوبة مخرج ، وسهولة بيان .
فهجرت الكلمات الغريبة ، ووضحت الأساليب ، وأشرقت ديباجة الكلام .

قال البحرى :

مخلف في الذى وعد	ميل وصل فلم يجد
وهو بالحسن مستب	يد وبالعدل منفرد
يتثنى على قضيه	ب ويفتر عن يرد

قد تطلبت مخرجا من هواه فلم أجد
ضاق صدرى بما أج ن وقلبي بما وجد
وتغضبت أن شكوت جوى الحب والسكد
واشتكأتى هواك ذى ب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام فى وصف الروض :

إن الريح أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جسمان
مصوراً فى صورة الإنسان لكان بساما من الفتیان
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ترى نشوان
تختال فى مفوف الألوان فى زهر كالحديق الروانى
من قانع وناصع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جنون زهر الألوان فشك أن كل شىء فان

أست ترى أثر الحضارة فى رقة اللفظ وصفاته ، وسماحة الأسلوب
وبهائه ، وسجاجة الكلام وإشراقه ؟ . وقد اجتمع مسلم بن الوليد
وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل فى مجلس ، فقالوا لينشد كل واحد منكم
أجود ما قال ، فأنشدهم أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فلىنى اللوم

فقال أبو نواس لنى أرى نمطاً خسروانياً مذهباً (١) . ويجدثنا ابن
رشيق أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا يوماً
فقال أبو نواس ، لينشد كل منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، فأنشده
أبو العتاهية :

يا لإخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى فإني في شغل شاغل
عيني على عتبة منملة بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالوا : أمامع سهولة هذه الألفاظ
وملاحظة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا نشذ شيئاً (١) .

وهكذا لان عيشهم فلانت ألقاظهم ، ورقت شمائلهم فرقت عباراتهم .

٣ - وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، ومازدان
به الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس هو وشدو ، أن
خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف
الشعراء عن هذا النحو الذي يذكرونهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة
وبريقها . ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إياس . ذكروا أنه
اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ،
فقال مطيع :

لأحسن من يبد يحاربها القطلا ومن جبلى طى ووصفك ساعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما في قوله :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ماضر لو كان جلس

وقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة السكرم

وقوله :

تبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد
لاجفدمع الذى يبكى على حجر ولاصفا قلب من يصبو إلى وتد
وقوله :

دع الرسم الذى دثرا يعانى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غربا

وقد كان لهذه الجملة أثرها فى الشعراء ، فكان منهم من استبدت به
نشوة الراح ، وصرعته حميا الأفداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم
من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالنزل ، ومنهم من بهره جمال
الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة ، فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بوشيتها
وروائها ، ويجعل ذلك استهلال قصيده وفاتحة موضوعه . وإنا لنرى
أبا تمام يمدح المعتصم ، فيقدم بين يدي هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل
الدهر فى حواشيه الزاهية التى يتمايل فيها الثرى ، كعروس تثنى فى حليها ،
وتنكسر فى زينتها :

وقت حواشى الدهر ففى تمرمر وغدى الثرى فى حليه يتكسر
من كل زاهرة تفرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تسدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها فتمتين فى حلل الربيع تبخر

أرايت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يخال فى وشها وزينتها ورقتها

٣ - على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر فى هذا العصر ، تلك هى
أن الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمياً آخر غير
ذلك كله . فجعلوا المطلع دال على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع
القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو فخامة ، وسهولة
أو جزالة . ومن ذلك ابتداء أبي تمام فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعى وإن كان أسما وأصبح معنى الجود بعدك بقلعا

وقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عند

وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الانتهاء ، باشتماله على ما تسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

٤ - وسرى زخرف الحضارة ووشيا ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى الشعر فظهر المحسن البديعي ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية ونحو ذلك ، وقد كان أول أمره مازجا واضحا في شعر مسلم وأبي نواس والبحترى ، ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غض من جمال شعره ، وما زال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتز . وسنتحدث عن الصنعة عند المحدثين في بحث خاص .

وانظر إلى الجناس والطباق في شعر مسلم بن الوليد الذى يعد أول من سمي هذه المحسنات بالبديع كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في شعره . قال يمدح يزيد بن يزيد الشيباني :

يفشى الوغى وشهاب الموت فى يده يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
(يفتر) عند (افترار) الحرب (مبتسما) إذا (تغير) وجه الفارس البطل
موف على (مهج) فى يوم ذى (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)

واقرا هذا الطباق الذى يعد أهم لون كان يستخدمه البحترى . إنه

طباق لا تعقيد فيه ولا تكلف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بتداهي
المعاني ، لامشقة فيه ولا صعوبة :

منى وصل ومنك هجر وفي ذل وفيك كبر
وما سواء إذا التقينا سهل على خلة ووعر
قد كنت حراً وأنت عبد نصرت عبداً وأنت حر
أنت نعيمى وأنت بؤسى وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ،
يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجاً غريباً
حتى يكسد الذهن في فهمه ، ويتعب العقل في إدراكه .

إنه يصف بعيره وما أصابه من نحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :

رعته الفياق بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
فلا تجد طباقاً عادياً بين رعته ورعاها ، إنه بعير يرعى الفياق وترعاه
الفياق ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير .

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا يياض العطايا في سواد المطالب
واقراً له في المشاكلة :

أظن الدمع في خدى سيقى رسوماً من بكائى في الرسوم
وكذلك كان جناسه يتكى على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :

تطل الطلول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
فقد سمجت فيها السحاب ذيلها وقد أخلت بالنور منها الخائل

وكذلك (التدييج) في مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيا لسة سود لها كنف خضر

وهكذا كان أو تمام يغرب في المحسنات إغرابه في معانيه ، حتى إنها
لقد استفدت منه جهداً شاقاً ، إذ يفرقها في استعاراته وتصويره ، فيجللها الغموض .

ومن مطرف الجناس قول البحترى :

فإن صدفت عنا فربت أنفـس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح وريحك فيه للأعداء حتف

ب - وأما تأثير الغناء في الشعر في هذا العصر فهو أشد وضوحاً . فقد
كان للغناء - وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة - أثره في انتقاء ألفاظ
الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب .

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندجة فيها ، وقد استجاب
الشعراء للمغنين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التي تناسبهم ، وتخيروا
لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة
القصيرة ؛ وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائي المهذب الرقيق ، واحتفل
الشعراء به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا في ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل
مذهب ، حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذي يقول
عنه صاحب الأغاني : « لولا أن العباس أحقق الناس وأشعرهم وأوسعهم
كلاماً وخطراً ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد ويجوده » .

وقد أثر الغناء في أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون في الغناء أحياناً
فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا في أوزانهم ، على النحو الذي
سنتحدث عنه فيما بعد كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيراً - في شعرهم الغنائي -
الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثرها
من البحور المجزوءة التي تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر في الشعر بوجه عام ، غذائياً كان أو تقليدياً ، من حيث الموسيقى الداخلية ، التي تعنى اختيار الكلمات وترتيبها والمشكلة بين أصواتها ومعانيها . ومن الممكن اعتبار البحترى أربع شاعر يصور هذا الجانب . قال البافلاني : « إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً (١) . . . وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظاً عذبة ، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الخلي (٢) . اقرأ له في رثاء المتوكل ، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة ؛ لأنه نثر غاضب كأن لها قعقعة السلاح ؟ وكيف ربط القوافي بالهاء الساكنة . فسوته ينطلق بالكلمات والمقاطع ، ثم ينخفض فجأة كالنائح المتعب :

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه فعادت سواء دوره ومقابره
ولم أنس وحش القصر إذ ربيع سربه
وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيغ فيه بالرحيل فهشكت على عجل أستار ومستآثره
واقرأ له :

لى حبيب قد لج فى الهجر جدا وأعاد الصدود منه وأبدى
يتأبى منعا ، وينعم إسعا ، فا ، ويدنو وصلا ، ويبعد صدأ
أغدى راضياً وقد بت غضباً ن ، رأسى مولى وأصبح عبداً
وبنفسى أفدى على كل حال شادناً لو يمس بالحسن أعدى
مر بى خالياً فأطمع فى الوص ل وعرضت بالسلام فردا
وتى خده إلى على خو ف فقبلت جلناراً ووردأ
سبى أنت ما تعرضت ظلاماً فأجازى به ولا خنت عهداً

(١) إيجاز القرآن ١٠٦ . .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ١٠٦ .

أتراني مستبدلاً بك ما عشت بدىلاً أو واجداً منك ندا
حاش لله أنت أفن الحاشا ، وأحلى شكلاً ، وأحسن قدداً

فأنت زاه قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق في فن الصوت ،
فقد كرر الجيم في الشطر الأول ، وكرر الدال في الثاني ، فأحدث في البيت
الأول توافقاً صوتياً ، وفي البيت الثاني يوفق بين الألفاظ ، فيأتي بكلمة
(يتأبى) كأنها مشدودة إلى (ينعم) بهذا الرباط المحكم (منعاً) ، وعلى هذا
النحو في شطره الثاني . وانظر إلى الطباق بين يدنو ويعد ووصلا وصدا .
ثم انظر إلى إقبال كل كلمة أخفها في البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة
واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك ما في الآيات من
طباق وتقسيم ومقابلة ، وما في قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد
الحروف والسكنات والحركات ، مما يسميه البديعيون بالتطريز ، وهكذا تجد
الجوانب الموسيقية المعتددة (١) .

ج - أما اختلاط العرب بالعجم فهو أشد تأثيراً في ألفاظ الشعر وفي
أساليبه في هذا العصر ، فلقد كان لاختلاط العرب بغيرهم من العناصر
الأجنبية التي لها ثقافتها ولغاتها وألفاظها واصطلاحات علومها وفلسفاتها .
كان لهذا الاختلاط ، بل لهذا الامتزاج أثره في ألفاظ الشعر إلى جانب
آثاره في نواحيه الأخرى :

١ - فقد شاعت في الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت
وصقلت ، وربما كان بقاؤها على حالها للتظرف والتفكك ، على نحو ما كان
يصنع الأعشى وغيره من الشعراء .

يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشى إذا ماشق يرفى

(١) راجع الفن وملاحبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ٥٦ :

إن رفاءك هذا أحذق الأمة كفا
فإذا قابل بالنص ف من (الجردق) نصفاً
أحذق الصنعة حتى لا ترى مغرز إشقى (١)
ويقول إبراهيم الموصلى :

إذا ما كنت يوماً في شجها فقل للعبد يسقى القوم (يرا) (٢)
ويقول العماني في وصف من وقف بين الأسود :

لما هوى بين غياض الأسود وصار في كف الهزبر الورد
آلى ينوق الدهر آب سرد (٣)

أما ماصقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذركون ، أى لون
النار ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول
ابن المعتز :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها يقايا غالية

وكذلك نيروز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

٢ - كما شاعت في ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التي كانت
تجرى على الألسنة في العلوم الكلامية والفلسفية والكيمائية والهندسية
ونحو ذلك . قال أبو نواس :

وذا ت خد مورد قومية المتجرد
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفد
فبعضها قد (تأهى) وبعضها (يتجدد)

(١) الجردق في الرغيف معرب كردة : والأشقى المثقب .

(٢) البر لفظ فارسي معناه ملان وهو بتشديد الراء .

(٣) آب سرد : هو الماء البارد .

ويقول أبو تمام في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء
ويقول :

هب من له شيء يريد حجاباه ما بال لاشيء عليه حجاب
فعبير عن العدم بكلمة (لاشياء) الفلسفية .

ويقول :

صاغهم ذوالجلال من (جوهر) الحج دوصاغ الأنام من (عوضه)
كما يقول :

لن ينال العلا (خصوصاً) من الفتيه ان من لم يكن نداءه (عموما)
ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال (١)

وعلى هذا النحو سار الشعراء بعد هذا العصر في الاقتباس من
المصطلحات حتى رأينا المتنبي يقول :

إذا كان ماتويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

د - وبجمل الأمر أن عوامل الحضارة والغناء والامتزاج أثرت تأثيرها
في لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعذوبة الكلام ،
وبساجة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة
ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والإكثار منه ، والإكثار من النظم
في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ

(١) الهيولى : الأصل .

والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة .

قال الحاتمي : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتم انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذاعامة تتخون محاسنه ، وتخفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعات من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال حتى يقع الإتصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرم ولطف أفكارهم ... » .
أما الذي هجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

أوزان الشعر وقوافيه في هذا العصر

١ - حمل الغناء الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ؛ وابتداع أوزان أخرى تسير فنون الموسيقى والغناء ؛ وقد رجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بجزاً ، وجعلها تليده الألف مائة عشر بإضافة المتدارك ؛ وراح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التي تناسب الغناء : كالمقارب والهزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألوا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزأوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزاناً أوحى بها مزاجهم ، أودعوا إليها فن الغناء ، فسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يأيها المعمود قد شفق الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود

(١) راجع كتاب « البناء الفني للقصيدة العربية ، الخفاجي .

وأخرى مطلعها :

نبيا به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادي على جزء واحد :
موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق : إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز ؛ وكان
أبو العتاهية مشغولاً باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوماً فسمع
صوت مدقة ، فحكى ذلك فى الفاظ شعره :

للبنون دائرات يدرن صرفها
ثم ينتقينا واحداً فواحداً

ولما روجع فى هذا قال : أنا أكبر من العروض ، وهو الذى يقول :

عتب ما للخيال خبرينى ومالى
لا أراه أتانى زائراً مذ لىالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب
والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى (١) .

مثال المقتضب قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبى العتاهية :

أيا عتب ما يضر ك أن تطلق صفادى

٢ - أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من

دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

فالنوع الأول يشمل ما يلي :

١ - المستطيل ، وهو مقلوب الطويل (مفاعيلن فعولن مفاعيلن
فعولن) مرتين :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

٢ - الممتد ، مقلوب المديد (فاعلن فاعلان فاعلن فاعلان) مرتين :

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا

٣ - المتوافر ، محرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين :

ما وقوفك بالوكائب في الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

٤ - الممتد ، مقلوب المجتث (فاعلان فاعلان مستفع لن) مرتين :

كن لأخلاق التصابي مستمريا ولأحوال الشباب مستهليا

٥ - المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلن مفاعيلن فاع لانن) مرتين :

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تداني

٦ - المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاع لانن مفاعيلن

مفاعيلن) مرتين .

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد

وأما النوع الثاني ، فنه :

١ - السلسلة (فعلن فعلان متفعلن فعلاتان) وهو من اختراعات

البغداديين :

السحر بعينيك ماتحرك أو جال إلا ورماني من الغرام بأوجال

٢ - الدويبت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه ، لأن (دو)

بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، ووزنه (فعلن

متفاعلن فعولن فعلن) :

قد أقسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأسحار
يانار أشواقى به فاتقدى ليلا فحساه يهتدى بالنار

٣ - القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس
للسحور في رمضان ، ولعله مأخوذ من قوطم (قوما نشعر قوما) ، ووزنه
(مستعملن فعلان) ، ولغته ماحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه شديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
ولا عدمننا نوالك في صوم وفطر وعيد

٤ - المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائما وهو على
وزن البحر البسيط ، وأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد أن نكبهم
الرشيد وأمر الأيرثوا بالشعر ، فرثهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم
ينوحون عليهم به ، ويكثر من قوطم (ياموالى) فعرف بهذا الاسم ،
وهو مشهور بين عامة مصر بالموالى . وهو على أنواع ، فقد يجىء مهنرا
كله ، وقد يختلف مهنرا منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه في
المواويل البلدية :

يا عبد ابكى على فعل المعاصى ونوح هم فبن جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غرورة تجى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحر وتروح

٥ - كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات
والخرافات ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجوارى فى البحر كالاعلام

٦ - أما الموشح فهو أندلسى النشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن
معاقر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ،
ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذى

ندرسه ، وهم ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا ، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القمطة وأكثر ما تنتهي إلى سبعة أبيات (١) وأوزانه كثيرة ، منها (مستعملان فاعلان فاعيل) :

يا جيرة الأبرق اليمان هل لي إلى وصلكم سبيل

ومنها (فاعلان فاعلن مستعمل فاعلن) :

كللى يا سحب تيجان الربا بالخلي

واجعلى سوارك منعطف الجدول

٧ - وكذلك الزجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد فضج الموشحات ؛ إذ أخذ أهل الأماص ينسجون على منوالها بلبغتهم الحضرية من غير التزام إعراب ، وسعوا هذا النوع الزجل ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان الأندلسي ؛ ولا حصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال :

الفراق نار والوصال جنة والخلايق بعضهم يعشق
ولهب الحجر يتوقد والوصال م الملاح يشفق

٣ - ولقد تبع بعض هذه الأوزان - كما رأينا - تغيير طرأ على القافية فلم تعد تلتزم كما كان معروفا من قبل ، بل دعاهم الإفلات من قيود الوزن ، إلى الإفلات كذلك من قيود القافية . على أن من أظهر ما طرأ على القافية هو المسط والمزدوج والخمس .

١ - فالمسط أن يبتدىء الشاعر بيت مصرع ، ثم يأتي بأربعة أقسامه

(١) المقدمة لابن خلدون .

على غير قافيته ، ثم يعيد قسيما على قافية البيت الأول ، وهكذا ، وربما
خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة . ومنه :

غزال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرتها
بذكر الله والطرب
سبتني ظبية عطل كأن رضاها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

٢ - والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من
أخرى ، وهكذا ، كقول أبي العتاهية :

حسبك مما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفايا من اتقى الله رجا وخافا
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
ما زالت الدنيا لنا أذى بمزوجة الصغوب بأنواع القذى
إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وهذه المزدوجة لأبي العتاهية تسمى ذات الأمثال ، وله فيها أربعة
آلاف مثل .

٣ - والخمسة أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسها
بقافية مخالفة الأربعة قبله ، ثم خمسة أخرى من الوزن دون القافية للأربعة
الأولى ، ويتحدد القسم الخامس مع خامس الأولى في القافية :

ورقيب يردد اللعظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذجنى الخد وردا إن يوما لناظري قد تبدى
فتملا من حسنه تكحيفا
وتصد من فحشه في استباق يمنع اللعظ من جنى واعتناق
أيأس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه : لا تلاقى
إن بينى وبين لقيالك ميلا

أخيلة الشعر ومعانيه في هذا العصر

أثرت الحضارة بنوعها : المادى ، والعقل ، في أخيلة الشعر ومعانيه في هذا العصر تأثيراً بالغاً .

١ - فأما تأثير الحضارة المادية فيهما في هذا العصر فإنه قد وجد الشعراء في مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لاتقطع ، ومدداً لاينفد . وذخراً لاينتهى ، ومعينا لاينضب . فتنوعت معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانمسخ مجال أخيلتهم (١) ، وجادت تشبيهااتهم واستعاراتهم ، ولا بدع فهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ؛ وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمجالى الطرف والسمر وتشرق بمغاني اللهو والغزل والمجون . . ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض مترققة الجداول ، هاتفة الأطيوار ، عاطرة الأجواء :

هذه الحضارة المادية خليقة بأن تفتق أكام القريحة ، وتفجر ينبوع الشاعرية ؛ عسية أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديرة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال . . وإنما تستمد التشبيهات

(١) للخيال شأن كبير في الأعمال العقلية وفي الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أولى أرقى من الإدراك الحسى ، ومن مجرد التذكر نفسه ، فالتخيل يعين على استغلال الماضى للمستقبل ، ولولاه لأصبحت الحياة فقيرة كل الفقر . ولسكانت حياة الإنسان النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل فى تكوين المثل العليا ، وهو الذى يعيننا على فهم الحقائق والفنون .

وتبدو صور الخيال الشعرى فى : التشبيه والمجاز والكناية وحسن التعليل والمبالغة وما أشبه ذلك .

من المشاهد ، وتتجدد بتجدد المناظر ، وتتعدد بتعدد الصور ، وإنما يحاق
الخيال حين يتها إلى الأفق الرحب ، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .
اقرأ أثر الحضارة في التشبيه والخيال عند البحري وهو يصف الحسان :

لما مشين بذي الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدر
في حلتى حبر وروض فالتقى وشيان : وشى ربا ووشى برود
وسفرن فامتلات عيون راقها وردان : ورد جنى وورد خدود
وضحكن فاغترف الأقاحى من ندى غصن وسلسال الرضاب برود(١)

واقراً وصف أبي نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالإبر
أو سمر الفارس فيهما فانسمر بين رياض مثل موشى الخبر
مكلمات بهمار وزهر فانتدبوا في يوم قر وخصر(٢)
إذ ذر قرن الشمس في غب مطر صوالجاً يصبو إليها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر وقد تنادوا فراموا بالأكر
أحكما صانعها لما فطر أطف بالإشفاء خرزاً إذ دسر(٣)
فليس للإشفاء بالجلد أثر يحسبن تقاحا تدلى من شجر

وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجسافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواء ثوب نسيم

ولقد كان القدماء يشبهون اللحم بالجبال ويزنونه بها :

(١) أى لما ضحككن ظهرت أسنانهن كالأخوان وقد امتلأ بالندى ، ندى
الأسنان وريقها .

(٢) القر : البرد . وكذا الخصر .

(٣) فطر ، شق . الأشفاء . خرز يثقب به . ودسر . ثقب وطعن .

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ولكن المتحضر غير البدوي، والحلم في بغداد وفي القرن الثالث الهجري غير الحلم في البصرة وفي القرن الأول : فالحليم الحضري هو الذى يتسم لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتحضر للحلم الحضري، حيث يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ماماريت فى أنه برد (١)

وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها فى تنويع التشبيه ، وتعدد الاستعارة وتجديد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

٢ - وأما الحضارة العقلية التى أتت للشعراء العباسيين ، والتى كانت نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها البالغ فى معانى الشعر وأخيلته ، إذ أكسبتها ما امتازت به العقليات الأجنبية من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب المعانى ، وترتيب الأفكار ، وظهور أثر اللقاح واضحاً جلياً فيها ، من حيث الدقة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال الخصب ، والفكر العميق . والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من التشبيه والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ، ومزجته بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذى يهز المشاعر ،

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين (من حديث الشعر والنثر) .

ويطير بالقلوب حتى قال أبو الفتح عثمان بن جني : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومتانة التعبير وحجة القول فإن للحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال المحلق ، والفكر المنسق .

وسوف نعرض بشيء من التفصيل لأهم ما طرأ على معاني الشعر وأخيلته ، من مظاهر التأثير بهذه الحضارة وألوانها المختلفة :

١ — التجديد في المعاني القديمة : فقد تناول الشعراء العباسيون معاني السابقيين ، فتصرفوا فيها بما توحىه بيئتهم وحضارتهم ، وما يمليه تفكيرهم وثقافتهم ، وحوروا فيها بالزيادة والنقص ، والإيجاز والاطناب والإجمال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم وألبسوها ثوب الجدة والطفرة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريقة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذروا في مضمار التنافس والسباق .

يصف النابغة قدرة النعمان ، ويبين أنه لا منجى منه ولا عاصم ؛ فيقول :
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
فيجد الشاعر العباسي أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان ينبغي أن يأتي النابغة بما لا قسم له ، حتى يأتي بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حباته والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب

ويقول البحتري :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجبهم من خوف بأسك مهرب

وكان الفرزدق يقول في ناقته :

علام تلفتين وأنت تحنى وخير الناس كلهمو أمامي
منى تأتي الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى (١)
فيجعل جزاءها على بلوغ الممدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ،
أما أبو نواس فإنه يسخو في الجزاء سروراً بلقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ،
ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً
من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
وكان الشعراء من قديم يصفون بمدوحهم بالبأس والظفر في ائقتال ،
ويتخيّلون أن الطير قد ألقت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم في كل غزاة ، وتخلق
فوقهم في كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستغدو معهم نخاصاً وتروح بطاناً من
لحوم الأعداء ، قال الأفوه الأودى :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار
وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب
فقال أبو نواس :

تأبى الطير غزوته ثقة بالشبع من جزره (٢)
فكان في إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شعبها سيكون

(١) الأنساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرجل . والدبر بفتح الحين : قرح
الدابة جمع دبرة .

(٢) تأبى : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

من لحام أعدائه بقوله (من جزره) ثم إنه لم يكتف بتحليقها وقت الغزوة ، بل جعلها تتأبى الغزو وتتبعه ، أمام سلم بن الوليد فإنه جعل ممدوحه يعود الطير الشبع ، إنها لتتبعه في كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :

قد عود الطير عادات وثقن بها فمن يتبعه في كل مرتحل
ويجىء أبو تمام يفصل هذا التفصيل .

وقد ظلت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقا تل

لجعلها تنهل في الدماء ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقا تل ، وهذه
زيادات لابد أن تقع في ذهن شاعر كأبي تمام يحلل ويستوعب .

وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمو غضابا
فقال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لجعل ممدوحه الفرد العالم كله ، على حين جعل جرير القبيلة هي الناس
كلهم ، على أن العالم أشمل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبي نواس
أبلغ وأعم وأبعد في المبالغة ؛ إلى أنه سبق مساق الحكم والكلمات الجامعة .
ولقد قال المحدث بن غيلان فديماً .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

لجاء أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت في زى عذراء ناهد

فزاد في تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : «ولو برزت . . .» لجدد

بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به ، وهكذا تحس بجدة القديم ، وطرافة
التليد ، وتشعر بحسن تصرف العباسيين في المعاني القديمة ، حتى ليكادون
يستقلون بها ، ويستبدون بنسبتها .

٢ — ابتكار المعاني ودقتها : أما المعاني الجديدة التي ابتكروها ابتكاراً
واستنبطوها استنباطاً ، وخلقوها خلقاً ، فإنها تعي الحصر ، وتفوق العد .
ولا بدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتنوعت
بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ماجد في حياة الشعراء من
طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارقة ، وعادات طارئة ؛ ألهمهم
جديد المعنى ، ومبتكر الخيال وكل ما وقع في أفكارهم من ثقافة وحكمة
وفلسفة أكسبهم استقصاء المعاني في دقة وعمق تفكير ، ولهذا زخر شعرهم
وامتلاء أديهم بكل جديد دقيق .

الأتري أبا تمام كيف يجعل عطايا الممدوح في حاجة إلى تعويذة ؟
وما تعويذتها ؟ إنها نعمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكاد عطاياها يحن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب
وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا : بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وما رأيتك في هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشربها
خوفاً من الخليفة ، كقعدى الخوارج ، يحرص على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكيميا
كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطلق الأيقينا
ويقول أبو تمام في فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا استعمال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة في نفوس سامعيه :
في كؤوس كأنهن نجوم دوائر بروجها أيدينا
طالعنا مع السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا
وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الواشي ، فيأتي بجديد ، ويغرب
في التفكير :

يا واثياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنساني من الغرق
ولا غرر فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل :
أما الهجاء فدق عرضك درنه والمدح عنك كما علت جليل
فاذهب فأت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل
وأخيراً يقول ابن الرومي :

نظرت فأصدمت الفؤاد بلحظها ثم انثت عنه فظل يهيم
قالوت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزع من أليم

٣ - استقصاء المعاني وتحليلها : ويتصل بهذه الدقة في معاني الشعر
العباسي ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل ما يتصل به ،
واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء
إلى الاستطراد ، ومن هنا طالت أنفاسهم في القصائد طويلاً بلغت النظر ،
ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع
الأفكار ، وتتابع المعاني بتتابع الصور والمشاهدات :

ولقد مرت بنا - وستأتي - أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله
واستيفاء عناصره ، وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلی ، يتجلى فيه المعنى
الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها العين من طول وصلها فأجرها الشهرين خوفاً من الحجر

وما كان هجراني لما عن ملامة ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأى عقوبة أعاقبه فيها اترضى فما أدري
سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن عاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب واقطر بالبحر

وكان يكنى أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا : إن المعتصم لا يفتح
عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ
يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحتجون بالبراهين
والأدلة ، ويعرضونه في صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقلبونه على كل
وجه ، ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم
العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعفتهم به الحضارة من وفرة
المعاني والأفكار .

وما زالت هذه الظاهرة تشيع وتوسع حتى بلغت نهايتها - وقد تم التأثير
بالثقافة والحضارة - في أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول
طولا عجيبا ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعاني بالأدلة ، وعرضها
في مختلف الصور ، وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومي لترى كيف
استقرت هذه الظاهرة في شعره .

قال يحسن الحقد ويذكيه :

لئن كنت في حفظي لما أنام ودع من الخير والشر انتحيت على عرضي
لما عبتني إلا بفضل إبانة ورب امرئ يزرى على خناق محض

ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية توفيك ماتسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع من البذر فيها فهمي فاهيك من أرض
ولا الحقود المستسكنات لم يكن لينقض وترأ آخر الدهر ذو نقض
وما الحققد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة ثم ترى شكرا على حسن القرض

٤ - قوة التصوبر وبعد الخيال : وقد وجد الشعراء في الحضارة المادية
ينبوعاً ثجاجاً للصور ، وأفقاً فسيحاً للخيال ، وأعانهم الحضارة العقلية
بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ، وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا
بكل عجيب يهر براءة الوصف ، ويسحر بروعة التصوير ، ويطير بالألباب
في مطارح الخيال .

يقول بشار في وصف الجيش والقتال وهو أعمى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطى حمر ثعالبه (١)
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيفنا ليل نهاوى ككواكبه

واقرا هذه الصورة الرائعة للهبية من جلال الممدوح ، التي صورها
البحتري فاستوفى كل عناصر الإجلال والجلال ، وجمع كل ألوان العظمة
والمجد ، إذ صور الحجاب يقومون على سدة الممدوح ، فلا يدخلون أحدا
إلا بإذن ، فلما أذن له ودخل ، لم يدر كيف دخل ، لما طالعه من هيبة ،

(١) الحصى : العدد الكثير ، الشوك جمع شوكة : السلاح ، الخطى : الريح ،
الثعلب طرف الريح .

وغمره من جلال ، فانهقد لسانه وبهر جناه ، ولا ينطقه إلا ما آنسه من
بشاشة الممدوح ، وتهلل أساريه ، وحينئذ دنا فقبل يده ، بل قبل الندى
في يده ، بل في يد امرىء كريم حياه ، سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال من الباب الذى أنا داخله
مأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
وسلت فاعتاقت جناتى هيبه تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثى إلى ببشر آنستى مخاييله
دنوت فقبلت الندى في يد امرىء كريم حياه سباط أنامله

وسنقرأ كثيراً من وصف البحترى الذى تتجلى فيه البراعة وروعة
التصوير ، فلنرجع إلى بشار لنرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كان فؤاده كرة تراعى حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار
جفت عيني عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع ما فيها من براعة الوصف ، وهو
الخيال ، ونزود منها بوصف البحترى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديد :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رأتى الدر حسناً ولاقطه
فن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديد تساقطه

إلى أبى تمام حيث يمثل مذهب الغموض فى الصور ، والإغراق فى
التصوير ، والشروء فى الخيال ، وحيث تطالعنا فى شعره تلك الأشباح
المتجهمه والصور القائمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهاويل خيال .

ولا بدع فابو تمام يتنفس الدم فى معانيه ، لأنه غرق فى الفلسفة إلى
أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . وإن كان البحترى قد تتلمذ عليه فإن
طبيعته البدوية لم تسخ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند

الجوانب الظاهرة لشد برع الشعراء العباسيون في التصوير وتجسيم الخيال،
وإلباس المعنويات ثوب الحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى ترى
الروض يتحدث ؛ والجماد يتحرك . ولكن أباتمام أوغل في ذلك التجسيم ،
ولم يكتف بذلك ، بل ركب في الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة
تعتمد على صورة ، والاستعارة تتكىء على استعارة ، وكل ذلك يلتف على
ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان التصنيع ، حتى جمل
الغموض معظم صوره .

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألقى على خلفه الصبا يدأ قالت الدنيا أنى قاتل المحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى له تبعاً أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضاً :

ومعرس للغيث تخفق فوقه رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفاً لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء

فقد عبر عن السحب التي يتلألأ البرق في أطرافها بالرايات المطرزة التي
تخفق بالريح . ولكن ماهذه الصورة المركبة في الشطر الأول من البيت
الثالث ؟ أما مسك الطل فهو رائحة الروض العطرية التي تكون بعد الطل ،
وأما كافور الندى فهو الرشاش الذي يكون على أوراق الروض كالـكافور ،
إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألواناً حسية ملبوسة :

كان سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لها كفف خضر
، لا تبعدن أبدأ وإن تبعد فما أخلافك الخضر الربى بأبعاد

، نضى ضوءها صبغ الدجنة فانطوى
، راحت غواني الحى عنك غوانيا
لهم جنتها ثوب الظلام المجزع
يلبسن نأيا تارة وصدودا

واقرا هذا التشخيص :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا
، لدى ملك من أيكة الجود لم يزل
، سلوت إن كنت أدري ما تقول إذن
، تطل الطلول الدمع في كل موقف
، درارس لم يحف الربيع ربوعها
، ولا مر في أغفائها وهو غافل
فيه فغودر وهو فيهم أبلق
على كبد المعروف من فعله برد
جملت أنمله الأحزان في أذنى
وتمثل بالصبر الديار الموائل

وأخيرا يقول في وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكك حواشى خده الترب
فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل في ضحى شحب

فاذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير الشعري يستكمل كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه ما يناسبه من المراتى المتعددة والمجاهد المتتابعة ، التى تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد صقلت حسه ، وفتقت ذهنه ، والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير ، حتى نرى فنه قد استوى واستكمل عناصره . وهذا ابن الرومى يسلط عدسة تصويره على أحذب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لوناً أو ظلاً ، وإنما يستوفى كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة ، فعنق الأحذب قصير لقصر أخدعه أى عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائص بين كتفيه ، وهو متوقع أن يصفع ، وذلك بما يزيد فى انكاشه خوفاً من الصفع بل كأنه صفع قبل ذلك ، فذاق ألم الصفع فهو لذلك أشد انكاشاً :

فصرت أخدعه وغاب قداله فكأنه متربص أن يصفعنا

وكأنما صفت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا
أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة ؟ . . . إنه فن التصوير عند ابن الرومي ،
اقرأ تصويره لمن قبيح الصوت :
وتحسب العين فكيف إذا اختلفا عند التنخم فكى بغل طحان
وتصويره للبخيل :

يقتر عيسى على نفسه وليس يباقي ولا خاله
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

هـ - التأثر بالفلسفة والثقافات المختلفة : ومن الظواهر التي نلاحظها
في الشعر العباسي تأثره في معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات
المتنوعة التي اصطبح بها هذا العصر ، ولو ذهبنا نتتبع هذه الظواهر لطال
بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن :
يقول أبو تمام :

فلوصح قول الجعفرية في الذي تنص من الإلهام خلناك ملهما
والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام .
ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التي عمادها النجوم والرياضة ،
في وصف الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار
يريد أنها تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم
يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج ، ثم
سيرها من هناك . ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فانت مهذار
سختت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار

والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحاً في الحكم الكشيرة التي كانت تنقل عن الفرس ، حتى لينقال إنه اجتمع في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، كما كان تأثيرها جلياً في الصور والأخيلة الدقيقة ، إذ كان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكروا من أن كسرى كان يقول في وصف الزرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسي ، وقال :

وياقوتة صفراء في رأس درة مركبة في قائم من زبرجد
كأن بقايا العطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

ويقول أبو العتاهية في الزهد والحكم :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
لا نخر إلا نخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر
عجبت للإنسان في نخره وهو غداً في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أما الثقافة اليونانية فهي أعمق أثراً ، وأوسع مدى في معاني الشعر . لما امتازت به من الدقة والعمق والتحليل : فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ، وتظهر فيه الصياغة الذهبية :

إن من لا أرى وليس يراني نصب عيني بمثل بالأمان
بأبي من ضميره وضميري أبدأ بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرنا وروحا ن إذا ما اخترت يتمزجان
فإذا ما هممت بالأمر أو هم بشيء بدأته وبداني

كان وفقاً لما كان منه ومنى فكأنى حكيمته وحكائى
ويقول أبو نواس فى الخمر :
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهب الشك
ويقول :

صفت وصفتم زجاجتها عليها كعنى دق فى ذهن لطيف
ولقد حكى الأمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف :
وصالكموهجر وحبكمو قلى وعطفكمو صد وسلككمو حرب
وأتم بحمد الله فىكم فظاظه وكل ذلول من مراكم صعب
فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس (١) : ويقسم بشار العى
على هذا النحو :

وعى الفععال كى المقال وفى الصمت عى كى السكلم
وتستمر فى هذا التتابع ، فتجد الفلسفة بغموضها وعمقها وتناقضها
تسرى إلى المعانى ، فتجتمع بين المتنافر ، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتى
بالغريب العجيب . كيف يهلك الشئ نفسه ؟ . يقول أبو تمام :
صيغت له شيمة غراء من ذهب لكانها أهلك الأشياء للذهب
وماذا تنتظر من أبى تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ،
والصحو مطراً . والمطر صحواً :
بيضاء تسرى فى الظلام فى كمتسى نوراً وتسرب فى الضياء فى ظلم
مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يطر

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتنافرات ، ويأتى بالمعنى الغريب غير
المألوف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلد طعم العطاء
فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطاء
بدون غاية مألوفة .

٦ — استخدام البراهين العقلية وحسن التعليل : وكأنهم أحسوا بهذه
الغرابية غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يمجج بالحوار والنقاش ، فاحتاجوا
إلى البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية ، يدعمون بها المعنى الغريب العميق ،
ويقرّبونه إلى المألوف .

قال بشار يشرح الإغضاء عن هفوات الصديق ، ويبرهن على خطأ تتبعها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فغش واحداً أوصل أذاك فإنه مقارف ذنب تارة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفوه شاربه
ومن ذا الذى ترضى بجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمر فى سباحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس
فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام
هذا الدليل :

لاتتكروا ضرى له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والبأس
فألقه قد ضرب الأفل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وأبو تمام هو الذى يقول :

وطول مقام المرء في الحى مخلق
فانى رأيت الشمس زيدت محبة
لديباجتية فاخترت تتجدد
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد
ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحتجب
ويقول البحترى :

ذنوت تواضعا وعلوت مجدا
كذلك الشمس تبعد أن تسمى
فشأنك انحدار وارتفاع
ويدنو الضوء منها والشعاع
ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها
وحسن درارى الكواكب أن ترى
خلائق أصفار من الحسن خيب
طوالح في داج من الليل غيب
ولهذا شاع في شعرهم حسن التعليل ، وكثر في أدهم كثرة ظاهرة .
قال أبو تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ
فلهدا يجف بعد اخضرار
دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
قبل روض الوهادروض الروابي
ويقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسبيل حرب للمكان العالى

وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكلفون بها تبعاً لكلفهم
بتحليل المعاني وشرحها ، فنجد ابن الرومى يطالع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل
الإسهاب فى الثناء والمدح هجاء للممدوح ويعمل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن
المادح يرى أنه لا ينزع عطاء ممدوحه بسموثة ابخله ، بل لابد من أن يطيل
الأسباب ليصل إليه ، كما يطيل الخليل إذا استقى من نثر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله وأطال فيه فقد أطال شجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه
ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يسقيه منها وإنها لاوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد

٧ - كثرة الحكم والأمثال : وقد شاعت الحكم والأمثال في شعرهم ،
اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً
واستنباطاً ، وقد كان في شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها
للعجم كما قلنا ، وكان لأبي العتاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .
قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوام
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجساهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يده

٨ - المبالغة والتهويل : وهي ظاهرة تشيع في شعر المولدين ممن خالطوا
الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالمبالغة وولع بالتهويل
والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالهم في هذا العصر مقام كبير لدى

الخلفاء ونفوذ عظيم ؛ دفعا الشعراء الآخرين إلى محاكاتهم والتأثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها في المدح بنوع خاص ، طمعاً في جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغي ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والغلو ، ذلك هو تزاخم المعاني وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحى التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ؛ وتسابق الشعراء وتنافسهم في ميدان الحظوة والعتاء .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشيء من التعقل والاتزان ، حتى كان العصر التالي ، فجاءت كل إمكان ، وجاءت كل مألوف ، واندفع في تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطربهم إلا التهويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المعتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النرى في الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع . الخ
فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبولسحق والقمر
وفيها يقول :

فالخلق جسم له رأس يدبره وأنت جارحتاه : السمع والبصر

واقرا رصف أبي تمام للمعتصم يوم عمورية ، وأعجب واظرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفرعهم ، ونفسه وحدها جيش يخفيه عن قيادة الجيوش :

لم ينز قوماً ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفاً يوم الوغى لغداً من نفسه وحدها في جحفل لجب

ولكنها مبالغة معقولة ، فكم من بطل نصر بالعرب ، وغزا بقوة الروح
وبسالة العزيمة ، ويقول البحترى في المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
فتجد مبالغة ولكنها في حدود الإمكان ، ويقول أبو نواس
في الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى	وقدر الرفاشيين زهراء كالبدر
يليتها المعتنى بفنائهم	ثلاث كمنقط الثاء من نقط الخبر (١)
إذا ماتنادوا بالرحيل سعى بها	أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جثتها ملا عبيطاً جزورها	لاخرجت ما فيها على طرف الظفر

ويقول بشار الضخم :

إن في بردى جسماً ناحلاً لو توكت عليه لانهم
ومهما يكن من شيء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التي
ظهرت فيما بعد في شعر المتنبي وغيره .

٩ - تمحيص الأفكار وترتيبها: وأخيراً لقد تهيأ لشعراء هذا العصر من
أسباب الحضارة والوان الثقافة وعمق الفلاسفة ودقة المنطق ، ما نمت أذواقهم
ورقى إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم
محصنة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة مرتبة . نقرأ تصانيفهم إلا نجد
نبوا في الفكرة ، ولا خللاً في المعنى ، ولا اقتضاباً في الغرض ، ولا
اضطراباً في السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحداً وهيكلها سليماً ، وموضوعها
متلاحم النسيج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيراً من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الثلاث كمنقط الثاء .

المعاني لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . كما يتجلى لك فيها التحيص والتهديب من شغفهم بالغوص على المعاني واستيفاء عناصرها وترتيب نتائجها على مقدماتها . وهنا تتجلى براعتهم في الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى «حسن التخلص» وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما في رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شرود أو تقطع أو اقتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته في مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الأمام وهديه المنتشر
وكان أبواس يقول :

تقول التي من بيتها خف مركبي يعز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب؟ بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواذر جرت فجري من جريهن غدير
دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الخصيب أمير
قى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن الثائبات تدور
وقال مسلم في يحيى وجعفر :

أجدك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر
وقال البحرى :

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحتها مزنة بسكرت لها شآبيب مجتاز عليها وقاصد
كان يدالفتح بن خاقان أقبلت عليها بتلك البارقات الرواعد

وكان من مظاهر ذلك : العناية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً للمقام ،
مشيراً للمقصود ، كما في قصيدة « عمورية » ، لأبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والاهتمام كذلك بختامها ؛ وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متمماً
للبنى ، على نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل
وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذي يكتنفه ، والأفق الذي
يظله ، والبيئة التي تنشئه ، والعصر الذي يعيش فيه . ولا شك في أن لكل
بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع
حياته ، ونظام تقاليد وعاداته ، ولكل عصر تأثيره في حياة الناس وأذواقهم
وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتقارب بتقارب
الأزمان ، وتتطور بتطور المجتمع ، وتتأثر بالحضارة أو البداوة ، بالجمل
أو العرفان .

وفي العصر العباسي تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ،
وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت في المجتمع
تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه اتجاهاً جديداً ، وتتخذ طابعاً يلائم
ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ - فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تنسق مع

مدنيتهم ، وقد وجدوا في مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يغنيهم عنها ولذلك هجروها ، بل سخروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض : بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتتبع الآثار ، و نعت الناقة ، و وصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول في هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربي ، وحفظ لعمود القصيد .

ولقد رأينا حملة أبي نواس على هذه الموضوعات ، وسخريته منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً في نشوته وتعمره ، حتى حبسه الرشيد فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعت القفار ، ولكنها صحوة مخور يهذى ويسخر ، حيث يقول :

أعرش عرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

٢ - وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحى بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . وذلك كالغزل بالماذكر ، و وصف العذار ، والخوض في الدعابة والمجون ، والرمي بالأبنة والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتعصب لبعض أنواع الزهر . . . ثم نظم القصص (١) والحكايات ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

(١) ومنها نظم أبان اللاحق (٥٢٠٠ هـ) لكليمة ودمنة ، وبعد كليمة ودمنة من أدب القصص على لسان الحيوان وقد ترجم الكتاب ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ويذكر الجاحظ في الحيوان الجزء السابع ماورد في كليمة ودمنة من أمثال عن الفيل (٧ : ٩٢ الحيوان) .

٣ - أما الأغراض القديمة الأخرى كالمديح والهجاء والرثاء والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسية والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتهويل . وسوف نعرض لمختلف أغراض الشعر في هذا العصر ...

الغزل

أما الغزل بالمؤنث فيكاد - مع أنه عرض قديم - يكون كله إباحياً في هذا العصر ، وماذا تنتظر من مجتمع تشيع فيه مفان المدنية ، ومفاسد الحضارة ، وتنتشر بحالي اللهو والعبث والمجون ، إلا أن تستعر فيه الشموات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغالق الميول والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل العذري يوت إلا على بعض الألسنة كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبدلوا في وصف المرأة ، وتعبروا في الحديث عنها ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، وأخشوا في تناول العورة ، وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سواة . ألم يقل بشار :

أمتى بدد هذا نقي وشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتا علناً في خلوة نقض الوطر
أقبلت مغضبة تضربها واعتراها بجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

والغزل من أهم أبواب الشعر ، وكان يفتتح به القصيد ، اللهم إلا في القليل ، كعمرو بن كلثوم في معلقته التي بدأها بوصف الراح ، وكأبي نواس الذي دعا إلى افتتاح القصائد بذكر الراح :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة السكرم

وتبعه في ذلك ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بمكافئ غومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمال

شهر امرؤ القيس في العصر الجاهلي بغزله واستمثاره وديبته ، وفي
العصر الأموي عاش شعراء وقفوا حياتهم وشعرهم على الغزل وحده ، فهم
موكلون بالجمال يتبعونه ويصفونه ويتغزلون به ، كعمر (٢٣ - ٩٣) ، وهجبل
وقيس بن ذريح وسواهم . وفي العصر العباسي اشتهر بشار بالغزل ، وكذلك
العباس بن الأحنف (١) ، ولحمدان بن أبان اللاحق قصيدة طويلة في وصف
الحب (٢) ، وكان البحترى أرق الناس نسيباً وأملحهم طريقة لاسيما إن ذكر
الطيف وهو الباب الذي اشتهر به ، ولم يكن لأبي تمام حلاوة توجب له حسن
التغزل وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد (٣) .

وأسلوب الغزل يمتاز بجماله وسلامته وعذوبته مما لا يصلح شيء منه في
مواقف الجدل وأوصاف الحرب ، وإن كان المتنبي يستعمل ألقاظ النسيب
والغزل في ذلك وهو مما لم يسبق إليه وتفرّد به (٤) . . . ويشيع في الغزل
التهاك وإظهار الصباية .

(١) قصر شعره على الغزل من بين فنون الشعر (١١٧ : ٣ الراجعي) ، وكان
شاعراً ظريفاً مفوهاً منطيقاً مطبوعاً ، وكان صاحب غزل رقيق ولم يكن يمدح
ولا يهجو إنما كان همه كله في الغزل والوصف (١١٩ طبقات ابن المعتز) ويشبهه
بابن أبي ربيعة (١١٩ المرجع ، ٨٣ : ٤ زهر ، ٣٣٥ الشعر والشعراء ، ٦٧ : ١
العمدة) وكان شاعراً مجيداً غزلاً (٩٢ خاص الخاص) وأشاد به بشار وأبو
نواس والعلاف (٨٣ : ٤ زهر) ، وهو من أوائل الشعراء المجيدين (٦٧ المثل
الساثر) ونوه دهبل بقوله : هي الشمس مسكنها في السماء (٢٦٩ : ١ ديوان المعاني) .
(٢) ٥٧ - ٦٢ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

(٣) ١١٣ : ٢ العمدة .

(٤) ١٦٤ : ١ اليتيمة .

ولابن المعتز مجال كبير في الغزل، والغزل في شعره فن تسرى الجودة والحياة
والدمائة والرقّة والعذوبة في أعطافه، وهو فيه مجيد صاحب طبع مطبوع
وملكة موهوبة، ولا بدع في ذلك فقد أفعمت نفسه بألوان الجمال، وأشربت
حبه، وغذيت بمتعه وصباياته ولهوه ولذاذاته، وكان لطيف الحس رقيق
العاطفة ملتهب الإحساس والشعور يسقى شباابه الظاهىء من ينبوع الحب
المتفجر، ويجد من يئته وعصره حرية تسمح له بالهيام بالجمال والتبتل في
معابد السحر والفتنة، فشدأ بألحانه الساحرة أناشيد ناطقة بما في نفسه
وعواطفه من حب ووفاء وما امتزج بروحه وسرى في دمه من هيام وشغف
بألوان الجمال، وفن ابن المعتز في الغزل يقف بجانب فن امرىء القيس وابن
أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وسواهم من المجيدين في هذا الباب .
ويقول الصولى : وهو متقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا
في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم قليلون وخاصة من
عمل في المذكر والمؤنث، وهو أول من حصل هذا وجعله فنين، وأضاف
إليه فنا ثالثاً سماه مجونا وكثره حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس، (١)،
ومن شعره في الغزل قوله :

يا هند حسبك من مصارمتى لا تحكى في الحب بالظن

وقول في شريرة محبوبته :

وقلت تعالى يا شريرة نمتزج كئل امتزاج الماء والخمر نصفين

ومن غزله قوله :

بان الخليط ولم تطق صبرا ووجدت طعم فراقهم هرا
وكانما الأمطار بدم كست الطلول غلاتلا خضرا

(١) ١١٤ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكم سرا
إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العذرا
فطن يؤدي ما يقال له ويزيد بعض حديثنا سحرا
قالت لأتزاب خلون بها وبكت فبلل دمعها النحرا
ما باله قطع الوصال ولم يسمح زيارة بيتنا شهرا
حتى طرقت على مخاطرة أطأ الصوارم والقنا الحرا
يا ليلة ما كان أقصرها لازلت أشكو بعدها الدهرا

فتجد روح ابن أبي ربيعة في الغزل والحوار ، والتهاك من المرأة على حبه ، وإن كان ذلك مما يذمه النقاد في فن الغزل ، فالعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغازل المتمازت (١) ، وإنما توصف المرأة بالحياة (٢) ، ولكنك مع ذلك تجد في القطعة جمالا لا يعدله جمال في وصف الرسول .

ويقول :

لاتلوموني على حب هند سحرتني إنما الحب سحر
ومن غزله قصيدته :
ياغزال الوادي بنفسى أنتا لا كما بت ليلة الهجر بتا
ومنه قوله :

تعاهدتك العهد ياطلل حدث عن الظاعنين ما فعلوا
فقال لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
فلا تحليت بالرياض ولا النور ومغناى منهم هطل

(١) ١١٨ : ٢ العمدة .

(٢) ٢٥٤ ديوان ابن أبي ربيعة والنقاد كثيرا ما نقدوا ابن أبي ربيعة في وصفه لتهاك المرأة على حبه (١١١ : ٢ عمدة ، ٢٥٢ ديوان ابن أبي ربيعة) .

على هذا فما عليك لهم ؟ قلت زفير ودمعة همهل
وأنتى مقفل الضمائر من حب سواهم ما حنت الإبل
فقال هلا تبغتهم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا
هيات إن المحب ليس له هم بغير الهوى ولا شغل
تركت أيدي النوى تعودهم وجئتني عن حديثهم تسلا !
فقلت للركب لا قرار لنا من دون سلمى وإن أبي العذل
حتى تبدى في الفجر ظنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والد مع كلام لنا ولا رسل

وتجد هنا رقة الأسلوب وجمال الحوار المبشكر وسحر المعاني ولطافتها
نما يسمو بفن ابن المعنز في الغزل إلى منزلة عالية .

ومن روائع بشار في الغزل ، قوله وقد نهاه الخليفة المهدي عن الغزل :

يا منظر حسنا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني ثوب الشباب وقد طويته (١)
والله - رب محمد - ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبي وإذا أبي شيئا أبيته
ومخضب رخص البنسا ن بكى على وما بكيته
ويشوهني بيت الحبيد ب إذا ادكرت ، وأين بيته ؟
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلبيته (٢)

(١) تسومني ، من سام يسوم ، إذا أخذ في الحديث في البيع أو الشراء ،
الشباب استعارة بالكناية ، والمراد به نصارته وبهجته وقوته ، وذلك كله
كناية عن رغبتها في مغازاته .

(٢) من القلى وهو الهجر ، الإغراض .

وتنهاني - الملك الهما م (١) عن النساء وما عصيته
لابل وفيت فلم أضع عهداً (٢) ولا وأيا وأيته
وأنا المظل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته (٣)
أصني الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيته (٤)
وأميل في أنس الندي م من الحياء وما اشتيته (٥)

وهذا النص من شعر بشار يصور عذوبة أسلوبه ، وافتتانه في معانيه ، وانتعاه جانبا خاصا في شعره يشبه الجانب القصصي الذي اشتهر به في عصرنا إيليا أبو ماضي وكان بشار شديد الذكاء ، واسع الخيال ، ذا ملك قوية في الشعر يعد من أكبر شعراء عصره ، وزعيم المحدثين كافة ، ومن أصحاب المعاني المخترعة في الشعر العربي ، وقد تصرف في كثير من فنون الشعر ومعانيه .

وكان فارسي الأصل وأبوه فيما يقال من سبي المهلب بن أبي صفرة ، وكان ولاؤه في بني عقيل من قيس عيلان ، ونشأ بشار في البصرة نشأة عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع في الأدب ، وكان شاعراً محاوراً وخطيباً ، واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفي غيره من مجالس المتكلمين

(١) الهام : العظيم الهمة .

(٢) لم أضع العهد : أي لم أحدث به .

(٣) المظل على العدا : المستمر في إيذائهم . الحمد : الثناء .

(٤) من الدنو وهو القرب . وأصفا الصديق يصفيه مودته : أخلص ووفى

لسهد أخوته . والخليل : الصديق . ونأى : من التأى وهو البعد والمراد به الهجر

وقطع المودة .

(٥) النديم : الرفيق والمصاحب ، والمشارك في الشراب والميل في أنس النديم :

القيام بمؤانسته ، اشتيته : رغبت فيه ، والضمير يعود إلى الكأس أو الراح وهو

مضمر للعلم به من المقام .

وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد فتن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجأهم واستطار الشريينه وبين واصل .

ولقد كان شاعراً مجيداً تأثر بالشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريراً ويؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة رغبة في أن ينوه به جرير فيرتفع أمره ولكن جريراً أعرض عنه . وكان بشار عربى النزعة في الشعر ، حريصاً على متانة اللفظ ورصانته ، فلما يميل إلى تجاوز المألوف في الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسي قد ترك في شعره أثراً ظاهراً ، فسنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخالص ، ولا سيما حين كان يتغزل ، فقد مال في غزله إلى نحو من الفتون والمجون لم يعرفه الغزلون من شعراء الحجاز سواء منهم العذريون وأصحاب المجون ، كان بشار صريحاً في غزله قبيح الصراحة أحياناً .

وكان مسرفاً في الرقة إذا تغزل فذمه الوعاظ والقصاص في وعظهم وقصصهم وشكاه أشرف الناس إلى السلطان فنهاه المهدي عن الغزل فأنهى على كره ونفاق . ومع ذلك كان يعاود الكلام في الغزل كما ترى في هذه القصيدة ، وما زال به إسرافه في الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتى كاد له بعض خصومه عند المهدي فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ هـ .

وفي شعر بشار قوة اللفظ ومتانته إذا جد ، واللين والفتور إذا تغزل أو هول ، وفيه جودة المعاني ودقتها وحسن الاستقصاء لها ، والرواة يجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة .

ومن شعر ابن المعتز العباسي في موقف وداع قصيدته :

تعادتك العباد ياطلل خبر عن الظاعنين ما فعلوا

فقال : لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
وقال : هلا تبعتم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا
وقدمضت أنفا ، ومنها قوله :

كأنما طار من تحتنا قزع على أكف الرياح ينتقل
حتى تبدى في الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والـ سدمع كلام لنا ولا رسل
كم من عداة أبارهم غضبي فلم أقل أين هم وما فعلوا

وأما الغزل بالمدكر فهو غرض جديد من أغراض الشعر العباسي ،
وقد سرى إليهم من الفارسيين ، وأول من نظم فيه : حماد عجرد ، ووالبة
ابن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ، ومطيع
ابن إلياس ، وغيرهم من الشعراء الإباضيين ، ممن كانوا يلتقون على مواعد
الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان ، فلا يتورعون عن حرام ؛ وسرت
هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين ، فطغى الغزل بالمدكر على شعرهم ، وتقدم
غيرهم حتى شعراء الغزل بالمؤنث فقلبوا ضمير الأنثى إلى ضمير الذكر ؛
وبتأثير ذلك أكثروا من وصف العذار والافتنان فيه ، وقذف الناس
بالمرد ، ونبذهم بالابنة ، وغير ذلك من مجالات الكلام ..

وينكر الجاحظ أن يكون العرب قد عشقوا الغلمان ، أو تغزلوا بالمدكر ،
فيقول في رسالته في « النساء » ، (١) :

لوتعشق العرب الغلمان ، لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب النسب ، ولنهاجوا
به وتفاخروا ، ولتنافسوا في الغلمان ، ولجری في ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت

(١) راجعها في رسائل الجاحظ نشر السندوبي .

فيه أشعار وأخبار ؛ والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني ، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق (١) .

ومن الغزل بالمدح أشعار كثيرة عباسية تروى في كتب الأدب العربي وفي دواوين الشعراء العباسيين .

يقول الشاعر سعيد بن هاشم الخالد في غلام له (٢) :

ما هو عبد لكنه ولد	خولنيه المهمين الصمد
شد أزرى بحسن خدمته	فهو يدي والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة	تمازج الضعف فيه والجلد
في سن بدر الدجى وطلعته	فشله يصطفى ويعتمد
ممشق الطرف كاله كحل	مغزل الجيد حليه الجيد
أنسى وهوى وكل مارتبى	مجتمع لى فيه ومنفرد
مسامرى إن دجى الظلام فى	منه حديث كأنه الشهد
ظريف مزح مليح نادرة	جوهر حسن شراره يقدر
خازن ماني دارى وحافظه	فليس شيء لدى يفترق
ويعرف الشعر مثل معرفتى	وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرنى القريض وزان	دنانير المعاني الرقاق منتقد
وواجد بى من المحبة والرأفة	أضعاف ما به أجد
إذا تبسمت فهو مبتهج	وإن تمررت فهو مرتعد
ذا بعض أوصافه وقد بقيت	له صفات لم يحوها أحد

(١) والنص موجود أيضا في ٢ : ٤١٧ و ٤١٨ أمراء البيان لمحمد كره على .

(٢) معاهد التنصيص للعباسي مخطوطة برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥ ب .

ويقول شاعر آخر (١) :

ألا يا جامع البصر ة لاخربك الله
وسقى صحنك الغيث من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك يرى ما يبتناه
وكم ظبي من الإنس ملبح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصدناه
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه

يقول أبو نواس :

يا بدعة في مشال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بعين ظبي فسلاة
والقد قد غلام والغنج خنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الضحاك في غلام يستحم :

وابأبي أبيض في صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بفضه
غصن تبدى يثنى على مأكمة مثقلة النهضه (٢)
كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها فبعضها يذكرني بعضه

(١) ٢ : ١٣٠ اليتيمة ، ٦ : ٣١٧ باقوت الارشاد ، معجم الأدباء .

(٢) المأكمة : اللحم على رأس الودك وللانسان مأكمتان .

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر في المؤنث فقال :

يا قرا أبصرت في ماتم يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدمع من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه الماتم لي كارها برغم دايات وحجاب (١)
لاتبك ميتاً حل في قبره وابك قتيلاً لك بالباب

المسح

رأينا فيما سبق كيف كان الخلفاء في هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كلهم باظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراء مجدهم ، فقرّبوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلنوا مفاخرهم على الناس ، ويزيدوا من هيبتهم في نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون في التجديد ، ويتسابقون في التعظيم ، ليحظروا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد انتهى بهم ذلك إلى المبالغة في المدح حتى قاربوا الكفر ، والتهويل في الثناء حتى خرجوا عن المعقول .

ولإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة ، رغبتهم في إرضاء غرور الممدوحين وطمعهم في أن ينالوا أكبر الجوائز وأسنهاها ، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون في العطاء ، ويسرفون في المنج ، حتى أثرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح النمرى للرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذي قال في مدح الحسن بن سهل .

تعظمه الأوهام قبل عيانه ويصدر عنه الطرف وهو محاذر

(١) الماتم : مجتمع الناس في الخير والشر .

به تُجتدى النعمى وتستدرك المنى وتستكمل الحسنى وترعى الأواهر
قسمت صروف الدهر بأسا وناثلا
فمالك موتور وسيفك واتر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا لما انتسبت إلا إليك المفاخر

حتى طرب الحسن ونزل عن سريره إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله
وأجملت ، ولو لم تقل فى ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتجت إلى
القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه لنفسه . كما رأينا أن جلساء
المعتصم لم يقنعوا بثشيبه أبى تمام له بجاتم فى الكرم ، وعمرو بن معد يكرب
فى الشجاعة ، وإياس فى الذكاء ، فانتقدوه ، حتى اضطر للاعتذار .

ومن صور المدح تصيدة أبى نواس فى مدح الأدين ويقول منها :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربنا من خير من وطىء الحصا فلما علينا حرمة وذمام
ملك إذا عقلت يداك بجبله

لايعتريك البؤس والإعدام

قالبو مشتمل بيدر خلافة لبس اشباب بنوره الإسلام (١)
سبط البنان إذا احتبى بنجاده فرع الجاجم والسماط قيام (٢)
إن الذى يرضى الإله بهديه ملك تردى المملك وهو غلام (٣)

(١) يريد بالبو هنا البيت ، ومشتمل : مزدان : ومعنى الشطر الثانى أنه
أعاد للدين سلطانة .

(٢) السبط : السهل الذى لاخشوة فيه ، والبنان أطراف الأصابع
واحدتها بنانة . وسبط البنان : الكريم . والنجاد : حائل السيف التى يتعلق بها .
احتبى بنجاده : لبسه ، وفرع الجاجم : علاها . سماط القوم صفرهم .
(٣) تردى : لبس الرداء والمراد أنه ولى الخلافة فى .

ملك إذا اعتسر الأمور معنى به رأى يفل السيف وهو حسام (١)
داوى به الله القلوب من العمى حتى أفقن وما بين سقام (٢)
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر أملا لعقد حباله استحكام (٣)
فسليت للأمر الذي ترجى له وتفاعست عن يومك الأيام (٤)

والبيت الأول والثاني شبيهان بقول الشاعر :

إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فاشترقى بدم الوتين
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر
وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتني وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورأى
وقال الفرزدق فى هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلمهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

-
- (١) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يفل السيف : يثله . والحسام :
السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى نافذ شديد .
(٢) عمى القلوب : زيغها . السقام بفتح السين المرض .
(٣) زبيدة أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد وهى بنت جعفر
ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحكام : قوة . يقول :
صرت أملا يعلق الناس حاجاتهم بك فلا يخيب رجاؤهم ، وقوله (لعقد) إلى
آخر الجملة صفة لقوله أملا .
(٤) تفاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشماخ وذى الرمة ، سمع عبد الملك قول الأول فقال : بدت المسكافة حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكافاتها نحرها وقد قال رسول الله للأنصارية التي نجت من الأسر على ناقته صلى الله عليه وسلم فنذرت أن تنحرها : لبئس ما جزيتها . وهما إلى جانب الخطأ في المعنى رديئاً الأسلوب يتخذهما النحاة مجالاً لكثير من سخر التأويل . فأما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغنائها عنها ، دعا لها بأن تعيش ناعمة طليقة خالية من الظم لأنها بلغت ما يأمله من الاستشهاد في سبيل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخى في ساحة أمير المؤمنين تراخى من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداء ما نعيش به أغنياء ، وزاد أبو نواس فأعتق ظمورها من الحمل وحماها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية وديننا واجب الأداء ، وكلمة الرجال في بيته تسيء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقيّد الإطلاق كما أن حملتي وحملت رحلي في الأبيات السابقة حشو جيء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام في بيت أبي نواس ، وبيت ابن رواحة الأول فيه إطناب ، وكان يقنى عنه أن يقول إذا بلغتني الغاية .

وأبو نواس هو الحسن بن هاني (١٤٥ - ١٩٨ هـ) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ في البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب وكان والبة شاعراً ماجناً شراً بالخمير وصافاً لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره في وصف الخمر ، وكان مستهتراً كأستاذه ، همه الانبعاث في الشهوات وقرض الشعر في أبواب الخلاعة ، ولقد أجاد في جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرين على التصرف في الشعر ، مع متانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها ، وتوفي سنة ١٩٨ هجرية .

وهذه هي رائية أبي نواس المشهورة في المدح ، قال أبو نواس بمدح
العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

أيها المتنساب من عفره لست من لبلى ولا سمرة (١)
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره (٢)
قد لبست الدهر لبس قتي آخذ الآداب من غيره (٣)
فاتصل إن كنت متصلا بقوى من أنت من وطره (٤)
خفت مآثور الحديث غداً وغداً أدنى لمنتظره (٥)
خاب من أسرى إلى بلد غير معلوم مدى سفره (٦)
وسدته ثنى ساعده سنة حلت إلى شفره (٧)

(١) المتناب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول
العهد ، والسمر : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . . والمعنى : أيها الزائر بعد
زمان طويل لست من سمارى فى لبلى .

(٢) يقول : لا أمنعك من الاتصال بهذه المرأة التى خانتنى وستلقى هذا
المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(٣) أى صاحبت الدهر حتى تعلبت من حوادثه ، وغير الدهر : أحداثه .

(٤) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والحوال ، أى اتصل بمن
تحب الاتصال به غيرى فليس بيننا سبب .

(٥) المآثور : المروى . أى خفت ما يرويه الناس من الأحاديث السيئة
فى غد ، وإن غداً قريب .

(٦) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير اميلاً . والمدى : الغاية ، والمعنى
خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر فى العواقب .

(٧) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والسنة : النوم الخفيف ، وهذا
تكميل لما قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوسد
ساعده المثنى .

فامض لا تمنن على يدأ منك المعروف من كدره (١)
رب فتیان ربأتهم مسقط العيوق من سحره (٢)
فاتقوا بي ما يريهم إن تقوى الشر من حذره (٣)
وابن عم لا يكاشفنا قد لبسناه على غمره (٤)
كنن الشنان فيه لنا ككفون النار في حجره (٥)
ورضاب بت أرشفه ينقع الظمان من خصره (٦)
علنيه خوط إسحلة لان متناه المهتمصره (٧)

(١) المن : ذكر المنعم إحسانه ؛ وذلك مفسد للاحسان ، ومن كلام العرب : المنة تفسد الصنعة .

(٢) ربأتهم : حرستهم مخافة أن يدهمهم العدو ، مسقط : وقت سقوط (العيوق) ، وهو نجم يتلو الثريا ؛ يظهر سحراً ، يفتنخر بأنه يحرس إخوانه في الشدائد .

(٣) يريهم : يفزهم ، يقول : اعتمدوا على في دفع ما يحذرون فكنت عند ظنهم .

(٤) كاشفه بالعداوة : أظهره عليها ، والغمر : الحقد ، يقول : أدارى ابن عمي الذي يكمن لي العداوة والبغضاء وأعاشره وكأني لا أعلم بشيء من أمره .

(٥) كمن : استتر ، والشنان : البغض ، أي توارت البغضاء في نفسه كتوارى النار في الحجر .

(٦) الرضاب : الريق ، والظمان : العطشان ، والخصر : البرد ، وينقع : يروي .

(٧) علنيه : سقانيه مرة بعد أخرى ، والخوط : النصن التاعم تشبه به المرأة ، والإسحلة : مفرد اسحلت شجر عظيم ينبت بأعلى نجد ، والمهتمصر : جاذب النصن ، يقول : سقاني هذا الريق امرأة لينة كأنها النصن في تثنها طبيعة لجاذبها إليه .

ثم أدناني إلى ملك يأمن الجاني إلى حجره (١)
تأخذ الأيدي مظالمها ثم تستدري إلى عصره (٢)
كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره (٣)
فاسل عن نوء تؤمله حسبك العباس من مطره (٤)
ملك قل الشيبه له لم تقع عين على خطره (٥)
لا تغطي عنه مكرمة بربا واد ولا خمره (٦)

(١) الضمير المرفوع عائد إلى الحصان الذي قطع الطريق به إلى المدوح .
يقول : بلغني هذا الحصان ملكا يحى اللاجيء إليه ، والحجر : حضن
الانسان .

(٢) تستدري : تلتحيء ، والمصر : الملجأ ، أى ينصف الذين يقصدونه
شاكين ، لأنه عادل وسطان محكم .

(٣) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه
لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول من هو من نفر رسول الله ،
فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٤) النوء : النجم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعينها .
والمعنى : لا تؤمل في خصب يأتيك به مطر السماء فندى العباس خلف من كل
مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٥) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أى مثله ، وقل هنا : معناه فقد
وعدم ، أى لا شبيه لهذا المدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٦) لا تغطي : لا تتوارى ولا تستتر ، والربي ما ارتفع من الأرض واحدها
ربوة ، والخمر : ما وراك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لا يترك مكرمة إلا فعلها
ولا هنيئة إلا أتمها وأحسنها .

سبق التفريط رائده	وكفاه العين من أثره (١)
وإذا حج القنا علقا	وتراعى الموت في صورته (٢)
راح في ثنبي مفاضته	أسد يدمى شبا ظفروه (٣)
تتأبي الطير غدوته	ثقة بالشبع من جزره (٤)
وترى السادات مائلة	لسليل الشمس من قره (٥)
وكريم الخال من يمن	وكريم العم من مضره (٦)
فهم شتى ظنونهم	حذر المسكتون من فكره (٧)

(١) التفريط : مصدر فرط رسوله : قدمه وأرسله ، والرائد : الرجل يرسله أهله يلتمس لهم منزلا خصباً ، يقول : إن العباس رائده - أى الرائد منه - يسبق الرسول ويعرف ببصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثاني أنه لقوة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التي تعينه في المعرفة .

(٢) حج : لفظ ورمى ، والقنا . الرماح ، المفرد قناة ، العلق : الدم ، وتراعى الموت الخ : أى ظهر الموت في أشكاله المتباينة ، فطعين بالرح ومضروب بالسيف وصريح .

(٣) الثنيان : مثنى ثنى بكسر فسكون وهو ما كلف من طرف الثوب . والمفاضة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شبةا وهي حد السيف أو السنان في طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مددعا كالأسد وقد احمرت ثيابه من دماء الأعداء .

(٤) تتأبي : تعتمد وتنتظر . والجور : قطع اللحم .

(٥) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التي هي كالشمس عن أيه الذي هو كالقمر ، وضميره (قره) للمدوح أو لوالده .

(٦) المدوح خاله يمنى وعمه مضرى .

(٧) شتى : متفرقة منوعة ، يقول : إن السادات متنوعو الأفكار عما يضمره هو بالنسبة لهم وما يقضى في شئونهم ، عفاة منه وإجلاله .

ومن دراسة هذه القصيدة نجد أبا نواس يؤثر فيها الغريب ، وكأنه أراد أن يرضى أبا عبيدة والأصمعي وأضراهما من اللذين يحفلون بغرابة اللفظ أو يظهر لهم أنه لا يقل عنهم علماً باللغة وحفظاً لها وهي على ذلك حاملة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعاني النادرة . يبرز ذلك كله في أسلوب جيد ولفظ جزل ووزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تتأني الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طيري تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف الممدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجاً بالدماء ، طعاماً لا كلات اللحم من الطير . وأن الطير قد علمت ذلك فهي تتبعه في غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطاناً من لحوم أعدائه الذين قتلهم . وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة الممدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للمدوح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكفى عن طعمها في اتساع رزقها عليها بصحبتها له في غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فنص على هذه الثقة ، ودل على قهره لمن ناواه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبهماً فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفة وزنه وباختيار ألفاظه فكلمة (تأني) تدل على الترقب والانتظار وأنها مستشفرة لذلك متشوقة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها في كلام النابغة ما يدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند الحملة يهبر بمنزله الإبل تنهر والشياه تذبج قد استسلمت للقضاء المحتوم

والقدر النازل ، وكلمة « أول غالب » ، في كلام النابغة أضعفت المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الحملة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابغة وإن كان قد سبق فإن أبا نواس قد أحسن في الاتباع وزاد .

ومما عيب على أبي نواس في هذه القصيدة قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

يروى أن راوية أبي نواس قال عندما سمعه ينشد هذا البيت : إنه كلام ردىء موضوع في غير موضعه لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويملك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذى هو منه ، كما قال حسان :

وما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عز لاترام ومفخر
بهايل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

وركب كأطراف الأسننة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهمبه (١)
لأمر عليهم أن تم صدوره وليس عليهم أن تم عواقبه (٢)
على كل موارد الملاط تهدمت عريكته العليا وانضم حاله (٣)
رعته الفيافي بعد ما كان حقة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

(١) أطراف الأسننة : أسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهي كور الجمال التي تشبه الأسننة في الصلابة والمضاء .

(٢) أى هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من الممدوح .

(٣) الملاط : عضد البعير والموار : المتحرك . والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن وهو كنية عن الضمور .

إليك جزعنا مغرب الملك كلما

- هبطنا ملا صلت عليك سباسبه (١)
إلى سائب الجبار بيضة ملسكه وآمله غاد عليه فسالبه (٢)
وقد قرب المرمى البعيد رجاؤه وسهلت الأرض العزاز كتائبه
سما للعلا من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه (٣)
فقول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه
وأين بوجه الحزم عنه وإنما مرأتى الأمور المشكلات تجاربه (٤)
أرى الناس منهاج الندى بعد ما عفت
مهايعه المثلى ومحت لواحيه (٥)
ففى كل نجد فى البلاد وغار مواهب ليست منه وهى مواهبه (٦)
إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبتة بالنجاح مطالبه (٧)

(١) جزعنا الأرض . قطعناها عرضا ، ومغرب الملك . الشام ، وكان أبو تمام بها وكان بمدوحه بخراسان ، والملا . الصحراء ، وصلت عليه . أثنت عليه ، والسباسب جمع سبب . الأرض للمستوية .

(٢) بيضة الملك . حوزته وأصله ، وآمله طالب العطاء منه ، يقول : إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله ، فهو سائب ملك الجبار ومسلوب المال من الطالبين .

(٣) يريد بجانبي العلا الشجاعة فى الحرب والكرم ، والعجاب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعلى أمواجه .

(٤) أين بوجه الحزم أى كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة للمشكلات ومرأتى جمع مرآة .

(٥) المهايع واللواحب الطرق الواضحة .

(٦) لما علم الناس الكرم كانت هباتهم ليست منه وهى فى الحقيقة منه لأنه هو الذى عليهم .

(٧) أى من زل عندك وألقى رحله بعك حين ليج مطلبه .

وهكذا كان المدح يبرز أعطافهم ، ويشير أريحياتهم ، ويستدر عطاءهم
وهكذا كان الشعراء يمعنون في المبالغة ، ويهللون في تصوير الممدوح ،
لأنهم يرون ذلك السحر الذى يخلب العقول ، والرقى التى تختلب الصلوات ،
وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ويهون
عليهم أمر الدين ، فيدنون من الشرك أويقعون فيه كما قال أبو نواس :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وكما يقول :

حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لنؤاده من خوفه خفقان

وقد ظل الشعراء يبالغون فى المدح ، ويفرقون فى الثناء ، وينافس بعضهم
بعضاً فى ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتتسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها
فى الغلو والتحويل ، ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشعرائه : لا أقبل
إلا بمن قال مثل قول البحرى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسمى إليك المنبر

فقال البلاذرى : قد قلت فىك أحسن مما قال البحرى ، فقال هات ،

فأنشده :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن اظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما أمرك به ، فرجع ، فبعث
إليه سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر السيادة والعصية

١ - ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموى من إحياء العصيات
بين الجانية والمضرية ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطربة ، لا ينجو لها ضرام

ولا تهدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يترشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضربة الحكم بن قنبر ، قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخر - ر قريش ونفراها مستعار
ذكرت عزها ، وما كان فيها - قبل أن تستجبرنا - مستنجا
إنما كان عزها في جبال ترتقيها كما ترقى الوبار (١)
أيها الفاخرون بالعز والعز لقوم سواهمو والفتخار
أخبرونا عن الأعر : ألمذ - صور حين اعتلى أم الأنصار؟
قلنا العز قبل عز قريش وقريش تلك الدهور تجار

٢ - وكان الموالي في العصر الأموي يكونون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والإشادة بمفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجزىء على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تنسموا نسيم الحرية ذ. العصر العباسي ؛ واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتراف الذي عرفناه ، بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر . وكان من شعراء الموالي الشعوبيين : بشار وديك الجن والخرمي والمتوكلي .

٣ - وكان الشعر السياسي يأخذ مكانه بين هذه العصبية ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبني العباس شعراء يعتمدون عليهم في إذاعة محامدهم ، والاحتجاج

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهي دويبة كالسنور .

لهم في استحقاق الخلافة ، وأولويتهم بها دون بنى علي . ومنهم : مروان
ابن أبي حفصة وعلي بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد . وكذلك كان للعلويين
شعراؤهم الذين يذودون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ،
ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الحميري ودعبل الخزاعي ،
ومسلم بن الوليد . قال مروان بن أبي حفصة يخاطب بنى علي :

خلو الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به ودعوا وراثته كل أصيد سامي
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثته الأعمام ؟
وقال الحميري وكان علويّاً :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ولا عمده يوم الغدير المؤكدا
فإني كمن يشرى الضلالة بالهدى تنصر من بعد التقي وتهودا
ومالى وتيم أو هدى وإنما أولو نعمتي في الله من آل أحدا
وإن امرأ يلحى على صدق ردم أحق وأولى فيهمو أن يفندا

ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع
عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغنيات تغنى من شعره :

أين الشباب وأية سلكا لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحكك المشيب برأسه فبكي
يأليت شعري كيف يومكما يا صاحبي إذا دمي سقكا ؟
لا تأخذوا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتراكا

فلم يخفف هذا من عصبية دعبل للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخية
حقده على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجوهم :

وليس حي من الأحياء نعلمهم من ذى يمان ولا بكر ولا مضر

إلا وهم شركاء في دماهمو
قتل وأسر وتحريق ومنهبة
أرى أمية معذورين إن قتلوا
أربع بطوس على القبر الزكي إذا
قبران في طوس خير الناس كلهمو
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
هيات كل امرئ رهن بما كسبت

كما تشارك أيسار على جزر^(١)
فعل الغزاة بأرض الروم والخزور^(٢)
ولا أرى لبني العباس من عذر
ما كنت تربح من دين علي وطر
وقبر شرمو ؛ هذا من العبر^(٣)
على الزكي بقرب الرجس من ضرر
له يداه نخذ ماشئت أو فذر

الوصف :

الوصف (٤) تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية (٥) ، أو هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات (٦) ، وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا (٧) ، وما استوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصوره لك (٨) .

والوصف أكثر أبواب الشعر العربي ، وكثير من النقاد يرى أن الشعر

-
- (١) الأيسار : لاهبو الميسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها .
 - (٢) الخزور بفتح الخاء والزاي جيل من الناس ضيقو الميون .
 - (٣) يريد قبر موسى السكاظم .
 - (٤) ويعد ابن رشيق الطرد والخريات من باب الوصف (٢٨٠ : ٢ : العمدة) ويتابعه في ذلك كثير من النقاد ، ويعدون أيضا شعر الطبيعة من باب الوصف (٢٥٢ التوجيه الأدبي) .
 - (٥) الأسلوب للشايب .
 - (٦) ٧٠ قد الشعر .
 - (٧) ٢٧٨ : ٢ : العمدة .
 - (٨) ١٢٣ صناعتين .

إلا أقله راجع إلى باب الوصف (١) ، وقد وصف شعراء الجاهلية كل ما وقعت عليه أعينهم من شتى ألوان يبتهم التي عاشوا فيها ومظاهر الحياة التي ألفوها في هذه البيئة ، وكان امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوي والنابغة الجعدي من وصاف الخيل (٢) كما كان طرفة وأرس بن حجر وكعب ابن زهير ٥٢٤ هـ ، والشماخ من وصاف الإبل (٣) وكان عبيد بن الأبرص مجيدا في وصف المطر (٤) ، واستمر الأمر كذلك في العصر الإسلامي ، وانفرد بعض الشعراء بالتفوق في بعض الأوصاف ، فكان الشماخ من أوصف الناس للقوس والخمر (٥) ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لومل وهاجرة وفلاة وقرادوحية (٦) وأحسن الناس وصفا للمطر (٧) ، ويذكر بعض الباحثين أنه يكاد يكون أكبر شعراء الوصف في العصر المتقدم كله (٨) ، وكان ابن أحر وهو إسلامي قديم وشاعر مجيد وصافا للحيات وعلى قوله احتذت الشعراء (٩) وللتغلي أجود قصيدة قيلت في وصف القط (١٠) ،

-
- (١) ٢٧٨ : ٢ العمدة : ٢٥١ التوجيه الأدبي .
(٢) اقرأ وصف الجوارى الخمس لخيل آباتهن (١٧٨ : ١ الأماي) ،
ومقصودة أبي صفوان الأسدي في وصف الخيل (٢٤٠ : ٢ الأماي) .
(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة . ١٢٥ : ٣ الرافعي .
(٤) راجع قصيدتيه الخائية والقافية في وصف المطر (١٧٣ : ١ الأماي :
١٧٨ : ١ الأماي أيضا) واجع وصف الأعراب للمطر (١٧١ و ١٧٣ :
١ الأماي) .
(٥) ١٠٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢٨٠ : ٢ العمدة .
(٦) ٢٧ الشعر والشعراء (٧) ٣٥ المرجع .
(٨) ٢٥٢ التوجيه الأدبي .
(٩) ٣٧ المؤلف .
(١٠) راجع ١٦٩ : ٥ الحيوان .

ولعبيد بن أيوب العنبري إجادته وشهرة في وصف الصحارى والمجاهل
وما فيها من حياة وكائنات (١) ، وكان مزاحم العقيلي ينعت الفلوات فيجيد
وشهد له بذلك الفرزدق وجريرو والأخطل عند عبد الملك (٢) ، وكان الراعي
أوصف الناس للإبل (٣) ، كما كان الفرزدق والخطيبه يجيدان صفات الخيل
والقسي والنبيل (٤) ... وفي العصر الجبالي هجر الشعراء الأوصاف التقليدية
في الشعر العربي فدعا مطيع إلى وصف الجمال لا إلى وصف المهامه والقفار:

لأحسن من يدي تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

ودعا أبو نواس إلى أن تفتح القصائد بأوصاف الراح :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال :

ياربع شغلك إني عنك في شغل لاناقي ميك لو تدرى ولا جلى

وتابعه في ذلك ابن المعتز فقال :

أحسن من وقفة على طلل ومن بكاء في أثر محتمل
كأس مدام أعطتك فضلها كف حبيب والنقل من قبل

وقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل

وكان أبو نواس شعوبيا في مذهبه كما يقول هو :

عاج الشقى على رسم يسائله وبعجت أسأل عن خمارة البلد
تبكى على طلل الماضين من أسد نكلت أمك قل لي من بنو أسد

(١) راجع ٥٠ : ٦ الحيوان .

(٢) راجع ١٥٥ : ٢ ديوان المعاني .

(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

(٤) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

ومن ثميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعراب عند الله من أحد

ولم يكن يدعو إلى فكرة أدبية جديدة بل إلى إدخال أنواع من المجون في الشعر^(١) ، ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث في الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما، وينادى بتحضر الشعر وترك روح البداوة فيه ، والنقاد يختلفون في هذه المناهج ، فابن قتيبة يدعو إلى المحافظة على سنن العرب في ابتداء القصائد بذكر الديار والنسيب ثم وصف الرحلة إلى المدوح وانتخاص إلى المدح^(٢) . ويرى ابن رشيق أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازا^(٣) ، وأن ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في الوقت عن ذلك الصنمات وعلهم بأن الشاعر إنما يتكلفها والأولى في هذا الوقت صفات الخمر والقيان^(٤) .

وقد أجاد الشعراء العباسيون في الأوصاف إجابة بالغة ، وجاءوا فيها بالتشبيه المفرط البعيد^(٥) ، على حين كان من قبلهم يحدون في أوصافهم على الصدق ويسيروا في ظل الحقائق القرينية ، وهذا مذهب من مذاهب العرب في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهده من غير اعتماد لإغراب ولا إبداع^(٦) ، وأشهر قصائد الوصف سيذية البحرى التي ليس للعرب مثلها كما يقول ابن المعتز^(٧) ، وبرع ابن الرومى في التصوير وخاصة فيما كان

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضييف .

(٢) ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء .

(٣) ١٩٩ : ١ العمدة . (٤) ١٧٩ : ٢ العمدة .

(٥) راجع ١٢٤ : ٣ الرافعى - والوصف مناسب للتشبيه ومشمول عليه

وايس به ، والفرق بينهما أن الوصف لإخبار عن حقيقة الشيء والتشبيه مجاز

وتمثيل (٢٧٨ : ٢ العمدة) .

(٦) ١٨٩ الموازنة .

(٧) ٢١٨ : ١ و ٦٤ : ٢ ديوان المعاني ، ٥٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ،

٣٣ رسائل ابن المعتز ، ٧ و ٨ مقدمة ديوان البحرى .

يرجع منه إلى باب التهكم والسخرية ، وكان الحدوني من أصلح الناس شعراً وأقدرهم على الوصف وكان عامة شعره في طيلسان ابن حرب^(١) ، واشتهر بجودة الوصف ابن المعتز^(٢) ثم كشاجم بعده^(٣) والصنوبري وهو وحيد جنسه في صفة الأزهار وأنواع الأنوار^(٤) ، وكذلك أبو طالب المأموني^(٥) (٣٨٣ هـ) وله شعر كثير في الأوصاف^(٥) ، وكذلك السري الرفاء وعلى ابن إسحاق الراجعي^(٦) (٣٥٢ هـ) ثم ابن خفاجة وابن حمديس^(٦) ، ولم يكن المتنبى من أهل الأوصاف كما يرى الواحدى^(٧) .

وقد اشتهر ابن المعتز بالإجادة في الأوصاف كلها كما مرء القيس في الجاهليين وأبي نواس والبحترى وابن الرومي^(٨) في المحدثين ، ورسم ضرراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة ، وفي وصفه رقة وسلاسة ودقة وتفصيل وابتداع في الأسلوب وتجديد في التشبيه والاستعارة وإكثار من الصور الحية الرائعة ، وقد نمي ملكته في نفسه

(١) ١٧٦ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٢) ٢٧٩ : ٢ العمدة .

(٣) اشتهر بوصف آلات المنادمة (١٢٦ : ٣ الراجعي) ، وكان يجيد الوصف ويحققه (٢٥٠ رسائل البلغاء) ، وله كثير من قصائد في الوصف (راجع ٢٨٢ - ٢٨٥ : ٢ العمدة ، ١٠٤ : ٢ وما بعدها زهر الآداب) .

(٤) ٢٥٠ رسائل البلغاء .

(٥) ١٤٩ : ٤ اليتيمة - وله ترجمة في اليتيمة (١٤٩ - ١٧٩ : ٤) .

(٦) ١٢٠ و ١٢٦ : ٢ الراجعي .

(٧) ويرد عليه العكبري ذاهباً إلى أنه كان يحسن الأوصاف في كل فن (١٦٥ :

٤ العكبري) .

(٨) ويحملهم ابن رشيق من الذين أجادوا في كل الأوصاف (٢٧٩ : ٢ العمدة) .

دقة حسه واطف شعوره وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ورواق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه مما صرفه إلى الإجابة في هذا الباب الذي تناول فيه وصف ألوان معيشته ومظاهر حياته وأنواع ترفه وهواه ، وأتى في ذلك بالرائع البليغ والجيد الممتاز وظهر فيه طابعه الخاص من أوصافه الملوكية التي تستمد صور الأوصاف من صور حياته التي كان يجيهاها أميراً وولي عهد وشخصية بارزة من شخصيات أسرة الخلافة العباسية التي أغرقها النرف في عصره إلى حد بلغ في ذلك مبلغ الأساطير .

وهكذا ظهرت براعة العباسيين في الوصف وقدرتهم على التصوير وقد ساعدتهم على الإجابة فيه واسمو بخياله ومعانيه ، مارددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أحكام الشعاعية ، وبنى الإحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد نضجت خواطرم بكثير من الأوصاف التي تناولت كل ما وقعت عليه عيونهم .

ومن نماذج الوصف قول هلي بن الجهم يصف الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه	حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها	وراحت الراح في أنوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده	إلى الترائب والأحشاء والسكد
كان فيه شفاء من صبابته	أو مانعاً جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه	وسيره من يد موصولة يسد
ما قابلت طلعة الريحان طلعتة	إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريج معطرة	تشقى القلوب من الأوصاب والكد
لا عذب الله إلا من يعذبه	بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومي يصف القيان العازفات على الأعراد :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بذبها حوائى
مطفلات وما حمان جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقحات أطفالهن ثديا	ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات	وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادی الغنى عن الترجمان

ومن أجل قصائد الوصف وصف البحترى لإيوان كسرى ، وفي هذه القصيدة الرائعة يصف البحترى الإيوان بالمداثن، ويرثى دولة الفرس قال :

صنت نفسي عما يدنس نفسي	وترفعت عن جدا بكل جبس (١)
وتماسكت حين زعزعى الدهر	ر التماساً منه لتعسى ونكسى (٢)
بلغ من صباية العيش عندي	طففتها الأيام تطفيف بجس (٣)
حضرت رحلى الهموم فوجم-	ت إلى أبيض المدائن عنسى (٤)
أتسلى عن الحظوظ وآسى	لمحل من آل ساسان درس (٥)

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان التميم .

(٢) تماسكت : ثبتت واعتصمت . زعزعى : حركتني بعنف أى حين نالتني خطوبه . التماسا : طلبا ومحاولة . التعس : الهلاك والشر . النكس : أن ينقلب الرجل على رأسه ، والمراد الهزيمة والسقوط .

(٣) بلغ : جمع بلغة وهي ما يكفي من العيش ولا يفضل . الصباية : البقية . طففتها : نقصتها . البنس : الغبن والظلم .

(٤) حضرت رحلى الهموم : طرأت على الأحزان . والعدس : الناقة القوية .

(٥) آسى : أحزن . وآل ساسان : أكاسرة الفرس . درس : دارس .

ذكر تذهب الخطوب التوالى
وهم خافضون فى ظل عال
حلل لم تكن كأطلال سعدى
ومساع لولا المحاباة منى
نقل الدهر عهدهن عن الجد
فكان الجرماز من عدم الأذ
لو تراه علمت أن الليالى
وهو ينيك عن عجائب قوم
فإذا مارأيت صورة أنطا
والمنايا موائل وأنوش
ولقد تذكر الخطوب وتنسى (١)
مشرف يحسر العيون ويخسى (٢)
فى قفار من البسابس ملس (٣)
لم تطلقها مسعاة عنس وعيس (٤)
ة حتى غدون أنضاء لبس (٥)
س وإخلاله بنية رمس (٦)
جعلت فيه مائما بعد عرس
لا يشاب البيان فيهم بلبس (٧)
كية ارتعت بين روم وفرس (٨)
وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (٩)

(١) التوالى : المتالفة .

(٢) هم : آل ساسان . خافضون : ناعمون . حال : أى قصر مرتفع وهو القصر الأبيض . يحسر العيون : يضعفها إذا نظرت تبين ارتفاعه . يخسى : يؤلم .
(٣) الحلل : جمع حلة طائفة من البيوت . والبسابس : القفار . ملس : خالية .
(٤) المساعى : المكارم . لم تطلقها : لم تقدر عليها . عنس وعيس : قبيلتان .
(٥) أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالى ، وليس : استعمال أى أبلاها الدهر .

(٦) الجرماز : بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بجوار القصر . والرمس : القبر .

(٧) البيان : المنطق الفصيح . اللبس . عدم الوضوح .

(٨) أنطا كية : بلد بالشام ضمت إلى تركيا إبان احتلال الفرنسيين اسوريا ، وفيها وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت فى الإيوان . ارتعت : فزعت .

(٩) موائل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد الأكامرة

يزجى : يسوق ، والدرفس : العلم الكبير .

- في اخضرار من اللباس على أصغر يختال في صبيغة ورس (١)
وعراك الرجال بين يديه
- في خفوت منهم وإغماض جرس (٢)
من مشيح يموى بحامل رخ ومليح من السنان بترس (٣)
تصف العين أنهم جد أحياء لهم بينهم إشارة خرس (٤)
يغتلى فيهم إرتيابى حتى تتقراهم يداى بلس (٥)
وكان الإيوان من عجب الصندمة جوب في جنب أرعن جامس (٦)
يتظنى من الكتابة أن يبدو لعينى مصبح أو ممسى (٧)
مزججا بالفراق عن أنس إلف عز ، أو مرهقا بتطبيق عرس (٨)
عكست حظه اللبالي وبات المش ترى فيه وهو كوكب نحس (٩)
فهو يبدى تجسداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى (١٠)

- (١) الورس نبات ذو صبغة حمراء .
(٢) خفوت : سكون صوت ، الجرس : الصوت .
(٣) المشيح : الحنجر ، المليح : الذى يخاف ويحذر أيضا ، والترس : الحجن .
(٤) تصف العين : يخيل إليها .
(٥) يغتلى : يزيد ، ارتياب : شك ، تتقري : تتبع .
(٦) الجوب الخرق ، والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل .
الجلس الجبل العالى فكان الإيوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذى
يشمل الإيوان وغيره من الغرف ، والمقاصير : خرق فى جانب جبل أرعن
وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والطنف ، والآيات الآتية توضح
هذا التشبيه .
- (٧، ٨) يتظنى : يظن ، أن يبدو : وقت أن يبدو ، ومزججا مفعول ثان ،
ليتظنى : أى أنه يظن وقت ظهوره للعين مزججا بفراقه أليفا أو عروسا .
(٩) المشتري : كوكب سعد .
(١٠) التجلد : تكلف الجلد والصبر ، الكلكل : الصدر أى نازلة ،
مرسى : من الإرساء والنزول .

لم يعبه أن يز من بسط الديار
مشمخر تعلو له شرفات
لابسات من البياض فسابت
ليس يدري أصنع إنس لجن
غير أنى أراه يشهد أن لم
عمرت للسرور دهرأ فصارت
فلما أن أعينها بدموع
ذلك عندي وليست الداردارى
غير نعمى لأهلها عند أهلى
أيدوا ملكنا وشدوا قواه
وأعانوا على كتاب أريا
وأراني من بعد أكلف بالأش

باج واستل من ستور الدمقس (١)
رفعت في رءوس رضوى وقدس (٢)
هر منها إلا غلائل برس (٣)
سكنوه أم صنع جن لإنس
يك بانيه في الملوك بنكس (٤)
للتعزى رباعهم والتأسى
موقفات على الصباية حبس
باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
غرموا من زكاتها خير غرس (٥)
بحماسة تحت السنور حمس (٦)
ط بطعن على النحور ودعس (٧)
راف طرا من كل سنخ وجنس (٨)

-
- (١) بز : سلب ، والديياج : الثوب سداه ولحمته حرير ، والدمقس :
الحرير الأبيض .
- (٢) مشمخر : عال ، ورضوى وقدس : جبلان ، شرفات : ما أشرف من
بناء القصر ، يشبه القصر في ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .
- (٣) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب ، والبرس : بكسر
الباء وضمها القطن أو ما يشبهه .
- (٤) النكس : الضعيف الدنى . (٥) زكاتها : نماؤها .
- (٦) السنور : كل سلاح من حديد ، وحمس : شجعان ، يشير إلى بلاء
الفرس في إقامة الدولة العباسية .
- (٧) أرياط : قائد حبشى فتح اليمن قديماً ، ثم خلفه القائد أبرهة صاحب
الفيل وأبنائه ، ثم طرد سيف بن ذى يزن الأحباش بمعاونة الفرس ،
الدعس : الذود والطعن .
- (٨) أكبج : أولع ، السنخ : الأصل والمنبت .

والشاعر أبو عبادة الوليد بن عبيد البحرى الطائى صاحب القصيدة تخرج على أبى تمام ، ولسكنه لم يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وإنما كان يتوسط بعض الشئ فقال إلى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهراً ، فجاء فى شعره شئ من البديع ، والحرص على الصنعة وعلى التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جليلة ، والبحرى وصف بارع فى الوصف ، ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيسيكك ، وعلى أن يستعطف فيعطفك ، ويبلغ الغاية فى ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غزل خفيف الروح إذا نزل ، مادح موفق إذا مدح .

وقد أحيا البحرى عمود الشعر العربى بعد أن زعوه تجديد بشار وأبى نواس وأبى تمام ، ويمثل فى شعره غاية الذوق والترف الفنى ، وأثر الحضارة فى الشعر وفى صناعته ، وموسيقاه وعذوبة ألفاظه ، وأسلوبه . مما يضرب به المثل ، ومن ثم قال النقاد : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحرى » .

والبحرى كما يقول عبد القاهر فى كتاب « أسرار البلاغة » : إنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحرى ، ويبلغ فى هذا مبلغه .

وهذه القصيدة فى جهاتها ترشد إلى البحرى وخصائص شعره ، وتدل على مكانته من البلاغة ومنزلته فى الشعر ، وطبقته بين الشعراء العباسيين ، وكفى البحرى مجداً أن يكون له مثل هذه القصيدة . فهى فريدة فى الشعر العربى ، وقد سبق بها البحرى إلى فن جديد فى الشعر العربى هو وصف الآثار والمدن البائدة .

فهى من أروع ما نظم من قصائد الوصف وراثاء الآثار والدول فى الشعر العربى .

ويبدو أن البحترى نظمها وهو فى قمة مجده الشعرى ، وقد ذكرها مرتين فى شعره ، مرة منهما وهو يمدح ابن ثوابة :

قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا نستثيب النعمى من ابن ثوابة
ولم يختر يافوت من كل شعر البحترى سوى هذه السينية .

ووحدة القصيدة ظاهرة ، فهى فى موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، وهى مرتبطة العناصر متصلة الأجزاء بعضها بالبعض الآخر . وقد وفق الشاعر فى وصف الإيوان ، ووصف إعجاب به وبينائه وبناته ، وفى رسم شعوره ، وهو واقف أمامه يتأمل هذا الأثر الكبير ، ويخشع لجلاله .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالثورة على الزمان ، والنقمة على الحظوظ وعلى رضاه بالإقامة فى العراق وتركه الشام وطنه ؛ فرأى أن يرحل إلى مدائن كسرى عساه يجد فيها ما يزيل همه .

ويأخذ الشاعر فى وصف القصر الذى به إيوان كسرى ، فنصوره عاليا شاهقا ، حتى لتضعف العين أن تدبى مدى ارتفاعه . وبين ما كان له من سلطان واسع ، وذكر مجد الفرس القديم ، وحضارتهم التى لا تساويها ما كان للعرب فى صحرائهم قبل الإسلام من مفاخر وآثار وأطلال دراسة ، ولا يصل إليها ما كان لقبائلهم من أعمال . . . لكن الدهر لم يبق على حظوظ هذه الآثار ، ولم يحافظ على عهدها ، فصارت هذه القصور وكأنها قبور .

ورقف الشاعر أمام صورة فى هذا القصر ملكت عليه قلبه ، وهى صورة معركة حرية دارت عند مدينة أنطاكية بين الفرس والروم ، وقد

أجاد المصور تمثيل الرهبة التي تسيطر على المعركة حتى ليخيل لرائها أن الموت مائل فيها ، يريد أن يختطف نفوس ، بينما كان أنو شروان واقفا تحت علمه الكبير يحرض الجيش على القتال ، ولم ينس المصور أن يلون ثوب كسرى وجواده ، وأن يجيد تصوير المتحاربين حتى لكانهم أحياء حقا ، فيندفع الشاعر إلى الصورة يتحسسها بيده ليرى الصورة هي أم حقيقة .

ويعنى الشاعر بعد ذلك في وصف الإيوان ، فيصوره كأنما هو من عمل الطبيعة ، لامن صنع الإنسان ، ويتخيله كشيء أزججه فراق صاحب يؤنسه أو زوج أرهقه طلاقها ، فانقلبت سعادته شقاء ، ومع ذلك فهو يكافح أحداث الدهر ، والدهر يريد تحطيمه . . إنه جليل في العين لم ينقص من جلاله خلوه من البسط والستور .

ويتساءل البحترى في دهشة مما أحاط به ، وتملكه من جلال روعة صنع هذا الصرح : أهو من صنع الإنس للجن ، أم من صنع الجن للإنس ؟ .

ويعنى البحترى متخيلا ما كان عليه القصر من ازدحام الوفود ببابه وامتلائه بالمغنيات يخطرون في أرجائه ، وكأنما كان ذلك من وقت قريب وكأنما قد فارقه السكان أمس أو أول أمس .

ويختم القصيدة بدمعة يذرفها على هذا القصر الذي عمر بالسرور دهرأ ثم صار موطن عزاء وتأس .

وهنا يذكر الشاعر البحترى أسباب تمجيده لهذا الأثر العظيم ، وهي : أيادى الفرس على العرب في إقامة الدولة العباسية وتثبيت أركانها ، وأياديهم كذلك في القديم في طرد الحبشة من أرض اليمن ، وسبب آخر كذلك هو أن الشعاع رجل يحب الماجدين من أى شعب وأية أمة .

وصف الطبيعة :

ويتصل بشعر الوصف شعر الطبيعة ووصفها اتصالا وثيقا .

فالتبيعة توحى للشعراء في كل عصر بكثير من المعاني والآثار الأدبية الرائعة ، وقد اثن بها الشعراء وصوروها في مختلف مظاهرها ورسومها لها صوراً تجمع غالباً بين صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس .

صورها شعراء الإغريق وخاصة هوميروس في إلباذته (١) ، كما صورها الشعراء الجاهليون في قصائدهم وآثارهم التي تشابهت رغم تعددها وخلت من مظاهر التنوع والكثرة وخصوصية التصوير ، ولكنها على أى حال صورة صادقة لتلك البيئة ، فامرؤ القيس في معلقته يذكر المطر والبرق كما يذكر يوم الخدير ولذاته في نظرة عابرة ، والأعشى يصف روضة من الرياض في لاميته ؛ وعنتره يصف الذباب وهو يغنى بها في معلقته كما يصف فرسه والمعارك التي خاضها ، وهكذا نجد في الشعر الجاهلي والإسلامي صوراً كثيرة لمظاهر الطبيعة القريبة من نجوم وسماء وأنهار وأماكن وقفار ورمال .

وفي العصر العباسي أخذ الشعراء يهتمون بأوصاف الطبيعة من ربيع ورياض وأزهار وأنهار وبرك ، ومن سماء ونجوم وكواكب ، ورواية أبي تمام في الربيع ، وهائية البحتري في وصف بركة المتوكل وجيميته في الربيع

(١) ويرى بعض الباحثين أن شعر الطبيعة شعر حديث ليس له صلة بالأدب اليوناني القديم (راجع ٩٨ الفن ومذاهبه في الشعر العربي) .
ملاحظة : شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه ، والطبيعة : الحى مما عدا الإنسان ، والصامت كالحدايق والحقول والغابات والجبال وما إليها (ص ١ ؛ شعر الطبيعة في الأدب العربي تأليف السيد نوفل ط ١٩٤٥)

مثل جيدة لشعر الطبيعة في هذا العهد . وللغزال يحيى بن الحكم البكري
الشاعر الأندلسي المشهور لامية مشهورة^(١) وصف فيها البحر ورحلته إلى
قسطنطينية موقداً من قبل عبد الرحمن بن الحكم بن هشام عام ٢٢٥ هـ إلى
امبراطور الروم في مهمة سياسية ومنها :

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولت لنا رياح من دبور وشمال
فأرأينا الموت رأى العين حالا بعد حال

ولعبد الصمة بن المعذل قصيدة طويلة في روضة جميلة^(٢) ، واشتهر
السرى والصنوبرى م ٣٣٤ هـ ، والتنوخي م ٣٨٤ هـ بالروضيات^(٣) ، ولابن
وكيع م ٣١٣ هـ قصائد في الرياض^(٤) .

وفي الحق أن العباسيين قبل أبي تمام والبحترى وابن الرومي وابن المعتز
كانوا قلباً يلجأون إلى تصوير الطبيعة التي عاشوا فيها ، وقد ألم بها البحترى
وأبو تمام إماماً دون أن يتصل حبها بأعماق قلوبهما ، وأقبل ابن الرومي عليها
يصورها تصوير العاشق المفتون حيث أروع بالطبيعة وتصويرها وكان يحبها
حبا جما فلا فرق عنده بين الطبيعة والشعور ولا يكاد ينظر إلى إنسان إلا
تذكر الروضة والبستان^(٥) ، وقد علل العقاد ذلك يونانيته^(٦) .

(١) ١ : ١٤٤ نفع الطيب .

(٢) ١٥ : ٢ ديوان المعاني ، وراجع . ٤ : ٢ المرجع نفسه .

(٣) ٣١ : ٢ المرجع .

(٤) راجع ٣٢٩ - ٣٣١ : ١ اليتيمة .

(٥) راجع ٢٨٢ - ٢٨٨ ابن الرومي للعقاد .

(٦) ٢٨٢ المرجع ، وينقد ذلك الرأي صاحب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ،

(٩٩٥٩١) .

ورائته اليونانية أصل فنّه الأدبي عند العقاد، ويضيف إليها طابع حسين الثقافة اليونانية الإسلامية التي كان يتشققها الشعراء في القرن الثالث (١) ، ففيه يونانية أصلية ويونانية مكتسبة أهم من الأولى ، وفيه أيضا إسلامية مكتسبة ففي فنّه عناصر ثلاثة تؤثر فيه لعنصر واحد (٢) :

وكان ابن المعتز شاعر الطبيعة (٣) ووصافها الممتاز ، وله كثير من الآثار في وصف شتى مظاهرها من رياض وأزهار وقصور وطيور وبرك وميادين ومن نجوم وكواكب وأفلاك وسوى ذلك من شتى أوصاف الطبيعة ، كان يعيش مع الطبيعة عيشة الهائم المتبذل والفنان الشادي والمصور المفتون ؛ منحها شعوره وشعره وهيامه وفنّه أكثر من أي شاعر آخر سبقه وأولع بتصوير كثير من مظاهرها المتعددة .

وإن شئت فانظر إلى تصويره للربيع ، حدث جعفر بن قدامة قال : كنت أسرح مع ابن المعتز في يوم من أيام الربيع بالعباسية والدنيا كالجنة المخرقة فقال :

حبذا آذار شهر فيه للنور انتشار
ينقص الليل إذا جا ، ويمتد النهار
نقشه آس ونسر ين وورد وبهار^(٤)
وعلى الأرض اخضرار واصفرار واحمرار

(١) ٢٣٧ من حديث الشعر والثر .

(٢) ٩٣ الفن ومذاهبه .

(٣) ويقول أحد الباحثين عنه : كان يحب الطبيعة ويفتن بها لكنه تستهويه الصورة قبل كل شيء ، وهو في إخراجه للصور والأشكال يحتمل ويتأق ويكتفي بالإشارة ويستخدم براعة عجيبة (١٨٢ شعر الطبيعة في الأدب) ، فهو مفتون بالطبيعة يرى فيها صوراً جذابة (١٨٨ المرجع) .

(٤) ١٤٥ : ٩ الأغاني .

فكان الروض وشى بالغت فيه التجار
وانظر إليه يصف الروض والأزهار والطبيعة :

والروض مغسول بليل بمطر جلالتنا وجهه اثرى عن منظر
كالعصب أو كالوشى أو كالجوهر من أبيض واحمر واصفر
والشمس في اضواء جوا أخضر كدمعة حائرة في محجر
نسقى عقارا كالسراج الأزهر يديرها كف غزال أحور
تخبر عيناه بفسق مضمهر يعلم الفجور من لم يفجر

وأبو هلال يعجب بهذه الأوصاف (١) ؛ ومن شعره كذلك في
وصف روضة :

تضاحك الشمس أنوار الرياض بها كأنما نثرت فيها الدنانير
ويأخذ الريح من دخانها عنقا كان تربتها من مسك كافور (٢)
ويقول :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل النساء تهرجت لزناة
والريح قد باحت بأسرار الندى وتنفس الريحان بالجنات
وهو من قول ابن الرومي :

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جملاء للبصر
تهرجت بعد حياء وخفر تهرج الأثى تصدت للذكر

ومن روائع شعر الطبيعة قصيدة أبي تمام في وصف الربيع ، ومنها :

(١) ديوان المعاني . ٢ : ١٦

(٢) ٢١٤ : ١ فوات .

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر	وغدا الثرى في حليه يتكسر (١)
بذلت مقدمة المصيف حميدة	ويد الشتاء جديدة لا تكفر (٢)
لولا الذي غرس الشتاء بكفه	قاسى المصيف هشاً مما لا تثمر (٣)
كم ليلة آسى البلاد بنفسه	فيها ويوم وبسه مثنجبر (٤)
مطر يذوب الصحو منه وبعده	صحو يكاد من الغضارة يقطر (٥)
غيثان فالأنواء غيث ظاهر	لك وجهه والصحو غيث مضمهر (٦)
وندى إذا دهنت به لمم الثرى	خلت السحاب أتاه وهو معذر (٧)
أربعنا في تسع عشرة حجة	حقاً فإنك للربيع الأزهر (٨)
ما كانت الأيام تسلب بهجة	لو أن حسن الروض كان يعمر (٩)
أولا ترى الأشياء إن هي غيرت	سمجت وحسن الأرض حين تغير (١٠)
يا صاحبي تقصيا نظريكما	تريا وجوه الأرض كيف أهور (١١)

(١) تمرمر : تتأيل ، الثرى : التراب ، الحلى : الزيتة ، يتكسر : يثنى .

(٢) بذلت : امتنت .

(٣) الهشائم جمع هشيم وهو النبات اليابس المتكسر .

(٤) آسىء ؛ مساوى أو أنال ، الوبل : المطر ، المثنجبر : السائل

من المطر .

(٥) الغضارة : الخصب والسعة ، يقطر : يسكب الماء .

(٦) الغيث : المطر ، الأنواء : تجمع الأمطار .

(٧) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن أضافها للثرى وهي الأرض مجازاً .

خلت : ظننت ، المعنر : الذى نبت له عذار وهو الشعر النازل على اللحيين .

(٨) الحججة : المرة والسنة .

(٩) يعمر : يعيش كثيراً .

(١٠) سمجت : قبحت .

(١١) تقصيا : تتبعاً آخره .

ثريا نهاراً مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر (١)
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فأينما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنور (٢)
من كل زاهرة تفرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر (٣)
تبدو ويحجبها الجيم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر (٤)
حتى غدت وهداتها ونجادها فتمين في حلل الربيع تبخر (٥)

إن الربيع سحر وشباب ، وروعة وجمال ، ونور ونور ، وورد وزهر ،
وطبيعة طلقة متفتحة ، وحياة فتية متجددة ؛ والربيع دائماً قد ألهم الشعر
روائع القصائد ، وغرر الفرائد والقلائد فلا بدع أن يلهم الشاعر
العربي الكبير الخالد أبا تمام فينطق بهذا الوصف الرائع الجميل .

يقول أبو تمام : إن الدهر بمقدم الربيع رقت حواشيه فهمى تمايل ،
والثرى امتلاً زهوراً ونباتاً فهو يتمايل بتمايلها .

والربيع قد اشترك في ميلاده مقدمة المصيف الجميدة ويد الشتاء
الجديدة التي لا تكفر . فلولا غراس الشتاء الذي قدم بكفه له بالماء
والنماء لمسا أثمر الربيع زهراً وروحاً وربحاناً ، ولرعى الناس في الصيف
هشاماً لا تنبت ولا تتمر .

وكم ليلة أعطى الربيع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على

(١) شابه : خالطه ، الربى : التلال . (٢) النور الزهر .
(٣) تفرق : تجرى جرياً سهلاً ، تحدر : تسكب الدمع .
(٤) الجيم : النبات المغطى الأرض ، العذراء : البكر ، تخفر : تستحي .
(٥) الوهدات : المتخفضات . النجاد : المرتفعات ، الفتة : الطائفة ،
الحلل : الثياب ، تبخر : تمايل .

الحياة والناس المطر والماء فتقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر،
ومن مطر إلى صحو مشرق فتان نضر يكاد من خصبه يسيل الماء، فالأرض
بالربيع في غيثن : غيث ظاهر هو المطر المنسكب ، وغيث خفي هو الصحو
غب المطر الذي تمتلئ الأرض فيه بالنبات والزهور ، وفي الربيع يتساقط
الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب مطرها مطرا خفيفا .

ثم يخاطب الشاعر الربيع الذي صادف بدؤه في التاسع عشر من
ذي الحجة أو في عام ٢١٩ هـ . فيقول له : إنك حقا للربيع الأزهر
المشرق الجميل .

ويذكر الشاعر أن الربيع سوف ينهى وحسنه سوف يتبدد ، وجماله
سوف ينقص . فيقول في أسف : إن الدهر ما كان يسلب بهجته لو أن حسن
الرياض كان دائما أبدا لا يزول ولا يحول .

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميما
ولكن حسن الأرض وجمالها في تغيير الفصول من شتاء إلى ربيع إلى
صيف فخريف ، والفصول تسير حتى تكتمل بالربيع ، الذي تكتمل به
الأرض بهجة وجمالا .

ثم يخاطب صديقيه المتخيلين فيقول لهما : لو أنكما أمعنتما النظر لرأيتما
كيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد ،
والذي يمعن النظر للطبيعة في الربيع يعجبه : نظر شعاع الشمس الذي
يتساقط بالنهار على الزروع وعلى زهور الربيع ، فيبدو النهار وكأنما هو ليل
مقمر منير .

وما أروع منظر الدنيا في الربيع ، إنها قبله دنيا معاش وسمى للناس ،
فإذا حل الربيع فإنها تنقلب فتصبح دنيا جمال وبهجة وسرور
ومتعة خالصة .

وما أروع منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تبدو تارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر محاسن وجهها تارة ، ثم تختفي تارة أخرى ، وما أبدع ما اكتست به هضاب الأرض ووهادها من نبات وحشائش حتى تبدو وكأنها فئتان وجماعتان تمايلان في حلال الربيع . حيث تأخذ بطونها تخرج على ظهرها الزهر والزرع والنبات الذي تسكاد القلوب تنور به ، وأعجب لما تخرجه الأرض في الربيع من زهرة تترقق بالندى فتفتح ويتساقط من فوقها حتى لتظنها عينا تطل عليك وترنو إليك . وهكذا يصف أبو تمام الربيع وأثره في إيقاظ الطبيعة ، وإحياء الأرض وما تمتلئ به الدنيا فيه من جمال ونضرة وحسن ساحر .

وفي أسلوب أبي تمام كثير من ألوان الصناعة الشعرية ، وكثير من صنعة البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواها ، وذلك فن اشتهر به أبو تمام ، وتفوق فيه . ولغة أبي تمام هنا حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة : ومن بين ألفاظه لفظة « مشعجر » .

ورصفه للربيع في جملة وصف مظاهره المادية الخارجية .

وللصنوبري (٥٣٣٤ : ٩٤٥ م) (١) في الربيع :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة	والأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن في الخريف النخل محترقا	فالأرض عريانة والجو مقرر
وإن يكن في الشتاء الغيث متصلا	فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا	جاء الربيع أتاك النور والنور
تبارك الله ما أحلى الربيع فلا	تغرر فقائسه بالصيف مغرور

والصنوبري من كبار شعراء الطبيعة في الأدب العربي ، يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسما والفضياء والهواء ، مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، وكان كشاجم صديقا له .

(١) ٦١ : ١ فوات الوفيات لابن شاعر .

الصيد والطرْد :

من باب الوصف شعر الطرد والصيد ، وقد كثر في العصر العباسي الصيد ووصف اقتراسه ، وكان مألوفاً ببساطة في الشعر الجاهلي لأنه كان مألوفاً في الحياة الجاهلية الساذجة ، وفي شعر النابغة مثل كثيرة له ، وكذلك عند بعض الشعراء سواء : وفي العصر الإسلامي هجر الناس اللحم وعاشوا حياة كلها جد وإقدام ونشاط وعمل ، فانصرفوا عن الصيد إلا قليلاً منهم كالشمر دل ابن شريك^(١) فله في الصيد والطرْد أراجيز حسان^(٢) .

وفي العصر العباسي نبغ أبو نواس في الطرد وكاد أن يخلق هذا الباب خلقاً جديداً ، فنظم الأراجيز في وصف كلاب الصيد وآلاته واقتراسه ووصف الرحلات التي كان يقوم بها للصيد واشتهر بالإجادة في هذا الباب وعكف عليه تجويداً وتجديداً ولم يتابعه أحد من الشعراء بعده فيه إلا ابن المعتز الذي اشتهر بالصيد والطرْد شهرة أبي نواس^(٣) ، ويشيد بطردهما الخاتمي في مناظرته للمتنبّي^(٤) ، وللناشي^(٥) م ٢٩٣ هـ طرديات على أسلوب أبي نواس^(٥) .

وقد وصف "شعراء الصيد ورحلاته وآلاته من كلاب وفهود وبزاة وغربان وصقور وسواها من أساحة ، ووصف لذاته به وطموه فيه ، كل ذلك في قصائد يغلب أن تكون من الرجز ويغلب عليها صبغة الغريب ، وهي مع ذلك

(١) شاعر إسلامي من بني غطفان وكان شاعر فصيحاً وفارساً شجاعاً (٣٦٦ :

١ شرح الحماسة) .

(٢) ١٣٩ المؤلف . (٣) ٢٨٠ : ٢ : العمدة ، ١٢٥ : ٢ : الرافعي .

(٤) ٥٠٩ : ٦ : معجم الأدباء .

(٥) ٤٧١ : ١ : وفيات الأعيان .

جميلة ساحرة دقيقة الوصف والتصوير والتشبيه ، وطرديات ابن المعتز هي
الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشبيه
الساحرة البديعة مما يرفع من مكانته في هذا الفن الذي لا ينطق فيه إلا القليل
من الشعراء ، يقول يصف كلبة الصيد :

لما تعرى أفق الضياء مثل ابتسام الشفة اللبياء
وشمطت ذرائب الظلماء قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء تحملها أجنحة الهواء
أسرع من جفن إلى إغضاء ومخطفنا موثق الأعضاء
كأثر الشهاب في السماء ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء كوردة السوسنة الشهباء
ذا برثن كثقب الحذاء ومقلة قليلة الأفذاء
صافية كقطرة من ماء

ويقول :

لما غدونا بسحر نأخذ أرضا ونذر
وقام رام فابتدر أوتر قوسا وحسر
إذا رمى الصف انتثر فارتاح من حسن الظفر

ويصف كلاب الصيد فيقول :

عواصف مشابهات للأمد لما عدون وعدت خيل الطرد

فبلغ نهاية الجودة في تشبيهها بالعاصفة ، ويشبهها بزوبعة
الرياح فيقول :

وزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شدا عجب

لها مجلس في مكان الرديف كتركبة قد سبها العرب

وقال في البازي :

يحز أعناق الرياح حزا
ومامها قبضا ونقدا وخزا
يطلب في رؤوسهن كنزا

والبيت الأخير في نهاية الروعة والجودة ، ويقول في كلبة صيد :

وكلبة غدا بها فتیان أطبقهم من يده الزمان
كانها إذا تمطت جان والنجم في مغربه وسنان
والصبح في مشرقه حيران كأنه مصبح عريان

فستجد روعة لا يماثلها روعة في التصوير والوصف .

الخريات :

ومن الوصف شعر الخريات ، وهو كثير في العصر العباسي ووصف
الخمر ومجالسها قديم في الشعر العربي ، وكان الأعرابي هذه الصناعة
في الجاهلية ^(١) ، ومن ألموا بوصفها عمرو بن كلثوم في معلقته ، وبعد عهد
الجاهلية اشتهر بوصفها أبو محجن الثقفي ^(٢) وعمرو بن حسان بن هاني ^(٣)
ويزيد بن معاوية ^(٤) والوليد بن يزيد ^(٥) وقد ذهب به الشراب كل

(١) ٢٤ حلبة الكميث للنواجي . (٢) ١٦٢ الشعر والشعراء .

(٣) ٢٣٢ معجم الشعراء .

(٤) ٣٤٢ و ٩٧ حلبة الكميث ، وله فيها أشعار (٣٠ و ٤٠ و ٤٨ و ١٢٢ و ١٣٩

حلبة الكميث) وربما كان ذلك من دعاية خصومه السياسيين .

(٥) ٩٨ حلبة الكميث ، والأغاني .

مذهب (١) ، ثم أبو الهندي (٢) . وجاء العصر العباسي وأغرق الشعراء في وصف الخمر ، وبالغوا في ذمها وأسرفوا في الحديث عنها ، والدعوة إليها ، وجعلوا القصيدة وقفا على هذا الفن أو استهلوها بتحسين شربها ، بدلا من وصف الأطلال . أما قبل هذا العصر فلم يكن واصف الخمر فناً مستقلاً من فنون الشعر . وكان الشعراء يلمون بها إلاماً ، ويتحدثون عنها في غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي من مخضرمي الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخاق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يحمدها ويحضى عليها ويزينها للناس ، كما في قوله :

قل للسرى أبى قيس أنهجرنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حماها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندماؤه ، فقدموها في المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا في نعتها ما وسعهم الإمعان ، وأغرقوا في مدحها ما وجدوا السبيل إلى الإغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الآيات .

ومن فرائده الخمرية :

ياشقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم (٣)
فاسقني البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرحم (٤)

(١) ٣٢٨ : ٤ المقدم ، وراجع ترجمته في مذهب الأغاني (٥٧ - ٩٢ : ٧) ، والوليد هو الذي جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها وأخبارها ونجاتها (١٣٤ فهرست) .

(٢) ٢٢ و ٩٦ حلبة الكميث ، ٤١ : ٢ الكامل ، ٣٢٢ : ٤ العقد ، ٥٨ - ٦١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٣) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس .

(٤) خمار الخمر ما يعلوها من الزبد .

تمت انصات الشباب لها
فمى لليوم الذى بزلت
عتقت حتى لو اتصلت
لاحتبت فى القوم مائلة
فرعتها بالمزاج يد
فى ندامى سادة زهر
فتمشت فى مفاصلهم
فعلت فى البيت إذ مزجت
فاهتدى سارى الظلام بها

بعد ماجازت مدى الهرم (١)
وهى ترب الدهر فى القدم (٢)
بلسان ناطق وفم
ثم قصت قصة الأمم
خلقت لاسيف والقلم
أخذوا اللذات من أمم
كتمشى البرء فى السقم
مثل فعل الصبح فى الظلم
كاهتداء السفر بالعلم

ولابن طباطبا (٥٣٥٢) :

أترك الشرب والأنوار دائمة
والغصن يهتز كالنشوان من طرب
لا ، والتي تركتني يوم فرقتها
وهذه هى سيفية أبى نواس المشهورة فى وصف الخمر، قال أبو نواس فى الخمر:
ودار ندامى عطلوها وأدلجوا
مساحب من جر الزقاق على الثرى

والطل منها على الأشجار منشور
والورد فى العود مطوى ومنشور
كأئما الرمل فى عيني منشور (٣)
بها أثر منهم جديد ودارس (٤)
وأضغاث ريحان : جنى ويابس (٥)

(١) انصات أجاب . (٢) بزلت بالمجهول صبت وسالت .

(٣) ٤٩ المغرب لابن سعيد .

(٤) الندامى جمع ندمان جليتك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاج السير أول الليل، والدارس البالى . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحبه وشربوا فيها الخمر ثم تركوها وتركوا فيها آثاراً جديدة وقديمة بالية .

(٥) الزقاق جمع زق وعاء الخمر . الثرى التراب النسدى أراد الأرض ، والأضغاث جمع ضغث الحزمة من العشب ، والجنى الحديث العهد باقطع . وهذا البيت يبان الأثر الذى تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزقاق ومن حزم الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التى قطعت لوقتها .

حبست بها صحبي وجددت عهدهم وإني على أمثال تلك الحابس (١)
تدور علينا الراح في عسجدية جنبها بأنواع التصاوير فارس (٢)
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مها تديرها بالقسي الفوارس (٣)
فللخمر مازرت عليه جيوبهم وللإساء ما دارت عليه القلائس (٤)

دراسة لهذه القصيدة :

أقام أبو نواس أياما في رفقة كريمة عليه يتمتعون في ظل عيش رخي ،
وحياة خالية من الهموم ، تدار عليهم الخمر في كئوس ذهبية فأراك صورة
الشرب يتساقون الكئوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقي بعضها
غضا جديدا كعهد الشارين به ، وأراك الكئوس الفارسية وقد تأق
صانعوها فزينوها بصورتها جمالا ، فهذه صورة كسرى في قرارة الكأس
وفي جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر في الكئوس
وكية الماء فيها .

(١) يريد أنه ألزم من صحبه هذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب
وأعادوا العهد على مثل هذا العيث ، وهو حريص على أمثال هذه شديدا لاهتمامها .
(٢) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى العسجد أى الذهب ، والمراد أن
الكأس منبهة ، وحبابها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٣) قراراتها أسفلها ، والمها جمع مائة البقرة الوحشية . وادري الصيد ختله .
والقسي جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس - والمعنى أن الكأس
محلاة بصورة كسرى في أسفلها ، أما جوانبها فمحلاة بصور فرسان ينتهزون غفلة
المها ليروها بسهام أقواسهم .

(٤) الجيب طوق القميص . والقلائس جمع قلنسوة ، يقول : إنهم كانوا
يشربون الخمر موزجة ، يصبون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يمزجونها
بالماء حتى تغطي رؤسهم .

وهذه القصيدة تصور لك ثورة أبي نواس على القديم فهو فيها لا يبكي
طللا ولا يقف على رسم ، إنما يبكي داراً للهو والمجون قضى فيها أياماً ثم زكها
وفي نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادة مثلها . وقد كان أبو نواس ينمى
على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البادية وهم يعيشون في حياة حضرية
بلغت الذروة في الرقى الاجتماعى والثقافى .

وشاعرية أبي نواس كما أبدوا في هذه القصيدة قوية فياضة متأججة
الشعور مضطربة العاطفة ، متهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد
حريص عليه يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها في شعره في كل
شئ ؛ إلا فى عرض قصيدته ، الذى كان جله فى وصف الخمر ، والدعوة إلى
ترك مسالة الأطلال .

وقد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وآدابها ، وكان شعره
من أقوى مظاهر التجديد فى الشعر العباسى ، لذلك عد رأس مدرسة من
مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية . وقد جمع أبو نواس فى
شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ،
وأضاف إليها صوراً جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم
من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى ،
وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من
تباين فى الجذ والهزل ، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب
معانيه : بشار بن برد . وقد كانت أكثر معانى أبي نواس المبتكرة وتشبيهاته
البديعة فى الخمريات التى فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل
والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات إن صدقا أو كذبا ؛ ثم فى الغزل
بالمذكر ، ولاغرابة فى ذلك فعنه وعن شيطانه والبته شاع هذا النوع وذاع ،
ومن معانيه استمد شعراء المولدين بعده . على أن له فى الأغراض الجديدة
معانى لم يحم حولها شاعر ، كما أن له فيها وفى غيرها معانى مبتكرة .

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها
بجذف الردىء والمكرر ، وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيوناً .
فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة
قصيرة . وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة راعى أسلوب الحضريين
في دمايته ولينه ورقة نسجه . ومهد للديح بدم الديار والأطلال والنوق
والجمال ، ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغاني ومباكرة
الرياض ونحو ذلك ، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد . وكذلك
كان يرقق القول في المقطعات والخمریات ، ويسف إلى أن يقارب .

الحكمة :

الحكمة هي آثار التفكير في الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق
والأشياء وهي ثمرات العقل الإنساني والإحساس الفكري بالحياة .
والحكمة قديمة في الشعر العربي تجدها في الجاهلية في شعر زهير وأضرابه
وفي الإسلام في شعر كعب الغنوي (١) وكثير من الشعراء ، وكان الحارث
بن كلدة طبيب العرب المشهور شاعراً إذا حكمة في شعره (٢) .

وكان عمران بن حطان أشعر الناس في الزهد (٣) ، وكان القمامي كثير
الأمثال في شعره (٤) وكان أبو بكر بن محمد بن عبيد الله الكوفي جل أشعاره
آداب وأمثال وأدرك الدولتين (٥) . ثم جاء عصر المحدثين ،

(١) كان يقال له كعب الأمثال لكثرة ما في شعره من الأمثال (٢٤١ معجم
الشعراء) . (٢) ١٧٢ المؤلف للأمدى .

(٣) ٩١ المرجع .

(٤) ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٥) ٤١ المرجع .

فأكثرها من الحكمة كصالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية ومحمود الوراق ،
كان صالح من الشعراء الفلاسفة وجميع شعره في الحكمة والأمثال ، وكان
مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها وله كتاب
سماه المشكوك^(١) وكان أبو العتاهية لا يكاد يخلى شعره عما تقدم من الأخبار
والآثار^(٢) ، وأكثر شعره في الزهد والأمثال^(٣) ، وكان أكثر شعر محمود
الوراق أمثالا وحكما وهو واعظ ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبد
القدوس^(٤) . ولأبي تمام كثير من الحكم الاجتماعية في شعره .

وكانت الحكمة في العصر الجاهلي مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه
الخاصة في الحياة ، وفي العصر الإسلامي كثرت الحكمة وتنوعت بما دخلها
فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما في التفكير والأخلاق
والاجتماع ، وفي بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية
التي احتذاها الشعراء ونظموا كثيرا من معانيها ، ثم جاءت الفلسفة والحكمة
اليونانية ، فلقحت العقول بلفاح جديد ظهر أثره في هذا الفن في العصر
الثاني على يد أبي تمام م ٢٣١ هـ ، وابن الرومي م ٢٨٣ هـ ، والناشي الأكبر م ٢٩٣ هـ
ثم المتنبي والمعري .

ويصف المتنبي الحياة والناس فيقول في حكمة عالية^(٥) .

(١) ١٣٢ و ١٣٣ ج ٣ الرافعي .

(٢) ٢٣٨ ج ١ الكامل للمبرد .

(٣) ١٢٢ ج ٤ الأغاني .

(٤) ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٥) المتنبي شاهد أواخر العصر العباسي الأول وأوائل العصر العباسي الثاني

فهو مخضرم .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لبياليه وإمكن تكدر الإحسانا
وكأننا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن تتعادي فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

الزهد :

وهو فن جديد نشأ في الشعر العباسي بتأثير كثرة الترف ، والدعوة إلى الرجوع إلى البساطة ، وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ، ونقد المجتمع ، على أن في شعر الزهد جانبا من جوانب الدين الذي يوجب البساطة في كل شيء ، ومن شعراء الزهد في هذا العصر : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبان بن عبد الحميد الكاتب ، الذي نظم كتاب كليله ودمنة للسمر والموعة ، وقد أخذ الشعراء ينظمون في هذا الباب وإن لم يكن لهم فيه معيار ، كأبي نواس وغيره .

ونماذجه في ديوان أبي العتاهية كثيرة ، فقد أكثر أبو العتاهية في شعره من الدعوة إلى الزهد والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ، فهو يقول في شعره :

رغيف خبز يابس تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد تشربه من صافية
وغرفة ضيقة نتمسك فيها خالية
أو مسجد بم عزل عن الورى في ناحية

تدرس فيه دفترًا مستندا بسارية
خير من الساعات في فيء القصور العالية

ومع ذلك فقد كان في ثراء عريض (١).

ويقول أبو العتاهية يخاطب الخليفة ، مصورا في شعره للغلاء

في بغداد :

من مبلغ عنى الإمام ناصحا متوالية
إنى أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نذرة وأرى الضرورة فاشية
وأرى غيوم الدهر را ثمة تمر وحادية
يرجون رفدك كى يروا مما لقوه العافية
من يرتجى للناس غير ك للعيون الباكية ؟
من مصيات جوع تسمى وتصبح طارية
من يرتجى لدفاع كرب ملية هى ماهية ؟
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية ؟
يا ابن الخلائف لا فقد ت ولا عدت العافية
إن الأصول الطيبا ت لها فروع زاكية
أقيت أخبارا إلب ك من الرعية شافية (٢)

(١) راجع ١٣٩ و ١٥٣ ج ١ ضمنى الإسلام .

(٢) ٣٠٤ ديوان أبي العتاهية .

الفخر:

١ - يرى ابن رشيقي أن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه (١) ، ويراها أديب محدث تاريخيا لفضيلة الفرد والجماعة (٢) ، وفي الحق أن الفخر إشادة لشاعر بنفسه أو قومه وتنويهه بأدبه أو حسبته ، ولا يدعو إليه عاطفة الأثرة والأناية في كل وقت ، بل قد يكون الشاعر مضطرا لأن يساجل خصومه ويسجل على أعدائه ما خفي عنهم من صفاته وآدابه ، أو ما جحدوه من مآثره وفضائله ، وليس من شك في أن حب النفس عاطفة من العواطف ، وأن الشعر مجال للعواطف الشخصية والإنسانية جميعا ، والذي يطالب به الشاعر حين يفتخر هو الصدق والتجرد عن مظاهر الكبرياء وتمثيل الحقائق الواقعة التي لا تركز إلى الخيال بل إلى الواقع نفسه في تصويرها وتصويرها .

وللشعراء المحدثين ، ولا بن المعتر من بين المحدثين مجال كبير في الفخر ، وشعره فيه كثير ، ويشيد بفخره الأدباء والنقاد جميعا ، فيذكره ابن شرف منوها بافتخاراته الملكية وهماته العلوية (٣) ، ويقول الباقلائي : وتجد لابن المعتر في مواقع شعره من القلب في الفخر وغيره ما لا تجد لغيره لأنه إذا قال :
إذا شئت أو قرت البلاد حوافرا وسارت ورائي هاشم ونزار
أوقال :

قد ترديت بالمكارم دهرا وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش إذا غدوت وحيدا ووحيد في الجحفل الجرار
أوقال :

أيها السائل عن الحسب ألا طيب ما فوقه لخلق مزيد

(٢) ٩٩ ج ٢ الرافعي .

(١) ١٣٦ ج ٢ العمدة .

(٣) ٢٤٩ رسائل البلاغ .

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى فماذا تريد؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود
ويقول من قصيدة له :

وأسهر للمجد والمكرمات إذا اكتحلت أعين بالسكرى

فانظره في هذه القصيدة كلها ، ثم في جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ،
وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم ما يتبعه مما يتعاطاه ما لا يليق بغيره بل ينفر
عن سواه (١) .

ولأبي نواس (٢) في عزة النفس وهو من المعاني القريبة من الفخر ،
والآيات عالية الطبقة في البلاغة ، ويصف فيها أبو نواس انفعالاته النفسية
وصفاراتها :

ومستعبد لإخوانه بثرائه لبست له كبرا - أبر - (٣) على كبر
إذا ضمنى يوما وإباه محفل يرى جانبي وعزاً (٤) يزيد على الوعر
أخاله في شكله ، وأجره (٥)

على المنطق المنزور (٦) والنظر الشرز (٧)

(١) ٢٠٩ و ٢١٠ إيجاز القرآن .

(٢) من شعراء الدولة العباسية (١٤٥ - ١٩٨ هـ) .

(٣) أبر (فعل ماض) فيكون معناها غلب وقهر ، ويصح أن تكون أنعل
تفضيل فيكون معناها أعظم قهراً وغلبة . والمعنى من يتخذ غناه وسيلة لاستعباد
إخوانه ، وتكبره عليهم - فإني ألبس له كبرا يغلب كبره ويقهره ، أو كبرا أعظم
قهراً وغلبة من كبره .

(٤) صعباً .
(٥) أظعته ، أو أقطع لسانه .
(٦) القليل .

(٧) النظر الشرز ما يكون بجانب العين ، بغضا وإعراضا ، ومعنى البيت
أني أخالف الغنى المتحرف في كل ما يكون منه ، وأقطع لسانه وأذبه ، لما يتكلفه
من قلة الكلام والنظر الشرز .

وقد زادني تيمًا^(١) على الناس أني فوالله لا يبدي لساني حاجة ولو لم أنل فضلا لكانت صيانتني
أراني أغناهم ، وإن كنت ذا فقر إلى أحد حتى أغيب في القبر
فمى عن جميع الناس - حسبي من الفخر

العتاب :

ومن نماذجه قول ابن الرومي يعاتب صديقه أبا القاسم الشطرنجي :
يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ابن ما كان بيننا من صفاء
كشفت منك حاجتي هنوات غطيت برهة بحسن اللقاء
تركنتي ولم أكن سيء الظن أسىء الظنون بالأصدقاء
يا أخى هبك لم تهب لي من سه يك حظا كساتر البخلاء
أفلا كان منك رد جميل فيه للنفس راحة من عناء
يا أبا القاسم الذى كنت أرجو له لدهرى قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك إيا ي غرورا وقبت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عيني وليس من حق عيني غض أجفانها على الأقداء
ما بأمثال ما أتيت من الأمر يحل الفتى ذرى العلياء
بذل الوعد للأخلاء سمحا وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف^(٢) يورق للعين ويأبى الإثم كل الإباء

وفي أبيات ابن الرومي السالفة صورة لصناعته الشعرية ومذهبه في نظم القصيدة ، فهو يعتمد على الحجاج العقلي وكثرة التوليد للبعاني

(١) كبرا .

(٢) هو شجر الصفصاف .

والاشتقاق لها والزيادة فيها والدخول إلى مغالقتها . . وهو لا يترك منطقاً معقولاً في عتاب صديقه إلا ذكره ، ولا باباً من الأبواب يدخل منه لتأييد حجته إلا دخل منه ، وعتاب ابن الرومي هنا عتاب كله حجج وأدلة وأقيسة ، وهذا من باب المذهب الكلامي الذي ذكره علماء البديع في المحسنات المعنوية للأسلوب .

وألفاظ ابن الرومي عذبة سهلة وأساليبه تلمس فيها بساطة التعبير ، وصدق العاطفة وعمق التجربة ودقته في تناوله الفن لأسلوب الصياغة الشعرية ، والتشبيه التمثيلي في آخر هذه الأبيات تشبيه دبق بليغ ، إذ شبه وعد صديقه الخلاب الخادع بمظهر شجرة الصفصاف الجميل الموثق ، الذي ليس وراءه ثمرة ولا فائدة .

وابن الرومي شاعر مجيد . وعلم من أعلام القريض في القرن الثالث الهجري ، ويعد في الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التي كان من أبطالها : أبو تمام والبحرئى وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبي نواس ، وكان لها منهجها الأدبي الخاص ، الذي يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعاني وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفين الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسي ، وأبوه ينحدر من عنصر رومي ، كان يحتفظ بطبيعته الشاعر ويعتز به طول حياته ، كان مولى الخفيد من أحفاد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وولد في بغداد في دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده في طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومي في ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره . فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونمغ في الشعر ، ونظم القريض وطارت شهرته في سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنمعه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجاءها

يريد أن يأكل ، وظمان يريد أن يروي ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ،
وقصد بشعره رجالات الدولة في عصره مادحا لخرمويه العطاء ، فعاش ساخطا
على الحياة والأحياء :

في درلتي أنا مغصوب وفي زمني عودي ظمى بلارى ولا بلل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه
ذلك شيئا في حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التي يجيهاها في عصره
كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب
الذي ذاق ألم اليتيم والشاعر المرهف الإحساس ، فاشتد سخطه على الناس
وأطرمه وابلا من أهاجيه ، التي بغضته إلى الكثير وزادت من آلامه
في الحياة . تزوج فأعقب ثلاثة أولاد فقدهم جميعاً . وفقد بعدهم أخاه ثم زوجته
وأمه ؛ فعاش حزينا مهموما .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سببا في هذه الطيرة التي لازمت
ابن الرومي طول حياته ؛ عاصر المعتصم والواثق والمتوكل المنتصر والمستعين
والمعتز ، والمهتدي والمعتمد ، وتوفي في عهد المعتضد سنة ٢٨٣ ، أو ٢٨٤ هـ
كما يقول ابن خلكان .

وكان للدم الرومي وأثر الوراثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، وثقافته وبيئته ،
ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد في شاعرية
الشاعر وفنه الأدبي ، الذي كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ،
اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات في
نفسه وفي زمنه ، فولدت في نفسه روح السخرية ، وأشاعت في فنه هذا
اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء ، الذي امتاز به
الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذ به بشيء ، كما يقول يهجو مغنيا من
قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقته فإنها نعمة من النعم
بجلسه مأمم اللذاذات والقصف وعرس المهوم والسدم
كأننى من طول ما أشاهده أشرب كأسى مزوجة بدمى
إذا الندامى دعوه آونة تادموا كأسهم على الندم
وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيرا من الأجزاء ، أثر واضح فى إجادته
فن الرثاء ، وداليتة فى رثاء ابنه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :
بكاؤك يا يشفى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وكذلك جيميته فى رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته
فى رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) . وشغف قلب ابن الرومى
بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت
تغمر عصره ، وأثر الوراثة فى نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين فى
العصر العربى ، وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجابة ،
ويقول منها :

يا خليلي تيمنى وحيد	ففوادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد	ومن الظبي مقلتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها	فشقى بحسنا وسعيد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الأوصال وهى تيمد
مد فى شأوصوتها نفس كاف	كأنفاس عاشقها مديد
فتراه يموت طورا ويحيا	مستلذ بسيطه والنشيد
خلقت فتنة : غناء وحسنا	ما لها فيهما جميعا نديد
هى شىء لا تسأم العين منه	ولها كل ساعة تجديد

(١) زاد عن مقتل لذيذ المنام
، أمامك فانظر أى نهجيك تنهج
شغلها عنه بالدموع السجام
طريقان شتى مستقيم وأهوج

منظر ، مسمع ، معان من اللهو ، هتاد لما يجب عشيده
وكذلك نونيته في يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومي الجليل
ومنها في وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتي يحملنها :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بنها حواني
مطفلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عته	وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير ، كما أجاد في
وصف الخمر وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغاية في
الجودة ، كما في قصيدته في عتاب أبي القاسم الشطرنجي ، التي مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات في المدح نحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبي
الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان فيهن نوحان تقاح ورمان
ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو يطلب
صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن
رشيق (١) . كان بديع المعاني بعيدا ، كثير الاختراع والتوليد فيها ،
والاستقصاء لها ، لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشويق المعاني
وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق

فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني ، أما أسلوبه لجمع بين الجيد والردى وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعره أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديته لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كابن الرومي وأبي تمام ، فلما تهض ألقاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول انفس ، بما لا يجاريه فيه إلا ابن هاني الأندلسي ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص في تناول كل معنى من معانيه بالإضافة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها ، حتى لكانها قطعة واحدة ، وثلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا استطراد .

وخياله خيال يقظ ، حسي في غالب شعره ، يترك الحبس إلى عالم العقل أحيانا ، أوتى مملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي ، أهمله صاحب الأغانى إجمالا ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش ، أستاذ أبي الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومي كان شيعيا وأبا الفرج كان أمويا . وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة اللهب ، لأهاجيه في رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي في الشعر ، ونهجه في نظم القريض . يقول القاضى الجرجاني عنه في وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويغلو في تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثرفيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين . ثم قد نسلخ قصائد منه ، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ

(١) الرسل : التؤدة .

منها (١) ، ويقول ابن رشيق في عمدته : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء (٢) ، . ويقول ابن شرف القيرواني فيه : « وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرتها الابتداع ، وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطراء ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٣) ، . ويقول المعري عنه في رسالة الغفران : « وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٤) ، . ويقول فيه ابن خلسكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يخصص على المعاني النادرة فيستخرجها من مسكاتها ، ويرزها في أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية ، . ويقول المسعودي فيه : « كان من مختلفي معاني الشعر ، والمجودين في القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته ، ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : « إنما جنى عليه وغر به عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرد ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطر بواله ، طريقتهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم (٥) ، وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدته التي يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه	أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء (٦) والخشب	اليابس والشوك دونه الثر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق	رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن	قصر في الشعر ، إنه بشر

(١) ٥٤ وساطة .

(٢) ٢٢٥ : ١ العمدة .

(٣) رسائل الانتقاد .

(٤) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران .

(٥) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد . (٦) قشر الشجر .

الهجاء والمجون :

كان الهجاء يباعث العصبية والخصومات السياسية مألوفاً في هذا العصر، يظهر في باب الشعر السياسي، ويتجلى في ثوب التعصب القبلي، ويستعلن في الأحقاد الشعبية.. وهناك لون جديد من الهجاء لم تدع إليه عصبية، ولم تثره خصومة سياسية؛ وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتنادر والتهكم، لإزاء الفراغ وإظهاراً للبراعة في التقييح وتوليد المعاني فيه.

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد، وذيوع المثالب، وكثرة الفجور؛ كما كان من آثارها ارتفاع الأذواق، حتى لم تعد تسبخ كثيراً من المناظر المألوفة من قبل، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك.

فلما ضعف الوازع الديني. وتوفرت أسباب الراحة، واتسعت أوقات الفراغ، ولان جانب العيش. وجد الشعراء في هذه السوءات والمثالب والمفاسد، وفي تلك المناظر الشاذة، والعادات القديمة، مادة واسعة للهجاء، ومنبعاً فياً يستمدون منه ما يتندرون به في مجالسهم، ويتفككون في أسماهم وما يتسابقون فيه من إظهار البراعة في الوصف والإبداع في السخرية والإضحاك.

ولقد راحوا يتتبعون العورات، ويتقصون العثرات، ويترصدون للعيوب، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك، كما راحوا يذمون اللعي، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة، ويستهبجون أصوات المغنين، ويسخرون من عادات المتزمتين، وصاغوا ذلك كله في شعر مقذع مضحك، يغريك بالضحك من التصوير قبل أن يغريك بالإشفاق على من قيل فيه.

وهكذا شاع المجون وانتشرت سمومه، بسبب المدنية والإباحية وضعف وازع الدين، قالوا إن مطيع بن إلياس مر يحيى بن زياد وحماة

ابن اسحق ، فقال لها : فيم تتحدان ؟ قالا : في قذف المحصنات ، فقال : أفي الأرض محصنة تقذفانها .

ومن شعر بشار يهجو بخيلا :

كأن عبيد الله لم يلق ماجداً ولم يدرك أن المكرمات تكون
إذا جنته في حاجة سد بابها ولم تلقه إلا وأنت كمين
وقال يهجو المهدي مشيراً إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :
بنى أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن دارد
صاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خلافة الله بين الزق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخيلا :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقبله طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كفه فيشمله ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه
ويقول كذلك في قدر بخيل :

ينص بملقوم الجرادة صدرها وينضج ما فيها بعود خلال
وتظلي بذكر النار من غير حرها

وتنزلها عفواً بغير جمال

ويهجو البحتري الخثعمي بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخثعمي يقل أنفاً يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعداً فقصر كل سام لهيبته وخص به الهواء
هو الجبل الذي لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء

ولقد قرأنا لابن الرومي بعض صورته (الكاريكاتورية) البارعة .

رأينا تصويره الأحذب ، فلنشهد هذه الصورة لجحظة المغنى :

رأيت جحظة يخشى الناس كلمه و إذا هو عاينوه الفالج الذكرا
تخاله أبدأ من قبسح منظره مجاذباً وترأ أو بالماً حجرا
كأنه ضفدع فى لجة هرم إذا شدا نغماً أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدر مع قربه ما أردنا ذلك القدرا

ويقول فى صلعة أبى حفص :

يا صلعة لأبى حفص بمرده كان ساحتها مرآة فولاذ
زن تحت الأكف الواقعات بها حتى زن بها أكناف بغداد
ويهجو عمراً فيقول :

وجهك يا عمرو فيه طول وفى وجوه الكلاب طول
والكلب واف وفيك غدر ففبك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى وما تحامى ولا تصول
وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قصة تطول
وجوهمم للورى عظمات لكن أقصاهم طبول
مستفعلن فاعلن فعولن مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمنك ليس فيه معنى سوى أنه فضول
ويقول :

لو أن قصرك يا ابن يوسف كله إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة لينحيط قد قبصه لم تفعل

وهذه ليلة من ليالى أبى نواس الماجنة :

وأحور ذمى طرقت فناءه بفتيان صدق مازى منهمو نكرا
فلما قرعنا بابه هب عاتفاً وبادر نحو الباب ممتكناً ذعرا
وقال : من الطراق ليلا فناءنا؟ فقلت له افتح ، فنية طلبوا خمرا

فأطلق عن أبوابه غير هائب
ومر أمام القوم يسحب ذيله
فقلت له : ما الاسم حيث قالى
فكفنا جميعاً من حلاوة لفظه
فقلت له جتناك نبتاع قموة
فقال اربعوا عندى الذى تطلبونه
فقلت فماذا مهرها قال مهرها
فقلت له خذها وهات نعاطها
فحكك بأشفاء له بطن مسند
وجاء بها والليل ملق سدوله
ريبة خدر راضها الخدر أعصرا
إذا أخذتها الكأس كادت بريجها
وما زال يسقينا ويشرب دائبها

ومن مجونه قوله في تفضيل الغلمان :

وعاذلة تلوم على اصطفائى
فقلت لها جهلت فليس مثلى
بذا أوصى كتاب الله فينا
غلاما واضحا مثل المياة
يخادع نفسه بالزهاة
بتفضيل البنين على البنات

الثناء :

قال أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجل الخطب، وليفدح الأمر
توفيت الآمال بعد محمد
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وأصبح في شغل عن السفر السفر (١)

(١) السفر : المسافرون ، يقول : إنه بموته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يأملون إلا فيه ، وشغلت الناس الرزية فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم.

وما كان إلا مال من قل ماله
وما كان يدري مجتدى جود كفه
ألا في سبيل الله من عطالت له
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه :
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
ونفس تعاف العار حتى كأنما
فأثبت في مستنقع الموت رجله
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
تردى ثياب الموت حمراً ، فادجا
كان بنى نيهان يوم وفاته
يعزون عن ثاو تعزى به العلا
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حى لها

وذخر لمن أمسى ، وليس له ذخرك
إذا ما استهلت أنه خالق العسر
فجأج سبيل الله ، وانثغر انثغر
دما ضحكك عنه الأحاديث والذكر (١)
فتى بأسه شطر ، وفي جوده شطر
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمير
إليه الحفاظ المر والخلق والوعر
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر
وقال لها : من تحت إخمصك الحشر (٢)
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
لها الليل إلا وهى من سندس خضر
نجوم سماء خر من يذنها البدر
ويسكى عليه البأس والجود والشعر
إلى الموت حتى اشتشهدا هو والصبر
ولكن كبرا أن يقال : به كبر
وبزته نار الحرب وهو لها جمر (٣)

(١) يقول : إنه ما من قبيلة دحرت في الحرب حتى فاض الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها .

(٢) يريد أنه قد ثبت الموت فلا يتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها .

(٣) بزته ، يقال بزّه ثوبه وابتزّه ، سلبه .

وقد كانت البيض المآثير في الوغى
أمن بعد طل الحادثات محمداً
إذا شجرات العرف جذت أصولها
لئن أبغض الدهر الختون لفقده
لئن غدرت في الووع أيامه به
لئن ألبت فيه المصيبة طيناً
كذلك ما ننتفك نفقد مالكا
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
وكيف احتمالى للغيوث صنيعه
يا سقائها قبرا ، وفي لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبقر روضة
غداة ثوى إلا اشتت أنها قبر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفا فيانى
رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وأبو تمام رأس مدرسة من مدارس المحدثين ؛ وهو أبو تمام حبيب
ابن أوس الطائي ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة
التي تؤثر المعنى وتحتفل به وتتعمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة
الشعر في عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه في ميدان
وحسبك أن البحترى سئل عن نفسه وعن أبي تمام فقال : إنما أكلت
العيش به .

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين ومائة من
الهجرة ثم انتقل إلى مصر صغيرا فسكن يسقى الماء بجامع عمرو وكان المسجد

(١) المآثير : جمع مآثور ، والسيب المآثور القديم المتوارث ، وبواتر :
جمع باتر وهو القاطع . وبتر ؛ جمع أبت ، أى مقطوعة .

إذ ذاك معهدا تدرس فيه العلوم والآداب فعكف على العربية يروها
ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر العرب ، ونبغ في قرض الشعر ،
ثم خرج إلى بغداد فمدح المعتمد ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب
صاحب ديوان الرسائل ، ثم ولاء الحسن بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات
سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

وقصيدته هي في الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالاً وأحفل أبواب
الأدب بالحكمة ، وأحرى أن تجد فيه الخبر النادر والمثل السائر والموعظة
البالغة ، والمرثي قائد عظيم طالما خرج إلى القتال حميداً ورجع مظفراً
منصوراً ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسي من بني نبهان قبيلة من طيء
التي ينسب إليها الشاعر .

خرج هذا القائد لمحاربة بابك الخرمي رئيس الطائفة المنسوبة إليه
الخارجة على الخلفاء ، والتي ملأت الأرض فساداً ، وامتدت ثورتها من
عهد المأمون إلى عهد المعتمد ، ولم يحالف الحظ القائد في هذه المعركة فقتل
سنة ٢٢٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

وقد بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطب ووصف العيون التي لا تفي ماء
شئونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس في كل ناحية
وموضع آمال العفاة والبائسين ، وذكر أنه مات مجاهداً فسهل موته السيل
إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفراً منصوراً فأطلق السنة
الشعراء بالثناء عليه وترك وراه عيوناً دامية تبكي قتلاها وتنعى موتها ،
وأن هذا المرثي قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن
فيه إلى الفقراء :

فيوم لإلحاق الفقير بذي الغنى ويوم رقاب بوكرت لحصاد

ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبلى بلاء حسنا ، وحتى تعطلت آلات

القتال فتثلت السيوف وتكسرت الرماح ، وكانت السبيل إلى النجاة ميسورة
والهرب من الموت ممكنا ، ولسكنه أثر جميل الذكر وحسين الأحدث
ما بق الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة في ساحة
الموت تعقب حمداً وتورث مجداً :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً

أقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حميداً ، وسقط في ساحة
المجد شهيداً ، فما أتى الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء في دار الخلود . ثم
أقبل على عشيرته الأفرينين بواسيمهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى
إن الفضائل تندبه وتبكي عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذهابه
ومثله لا ينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يفضى حياه
وتواضعا .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعراً ، ومن الفوارس كيف تقتك
بحاميا ، وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر في الحروب
مزيتها ، وأن السكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذبلت أوراقه ،
ومص الثرى بقية الماء من العود فأصبح هشياً تذروه الرياح ، ثم وصف العيش
بعده بأنه مر لا يطاق . والحياة بغيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ،
وقد كانت في أيامه كريمة سعيدة ينعم الناس في ظلها ويتساقون كؤوس
السعادة في جنباتها . لسكنها الأيام لا تؤمن لجعتها ولا تدوم حبرتها . ثم ذكر
أن الفجيرة عمت العرب هيما فهم ما جورون فيه ومعزون به ، ولا تزال المنايا
تختار من يعم رزؤه ويحل مصابه . ثم سأل الغيث أن يتعهد قبره بالسقيا ،
ولسكنه عاد فانكر ذلك على نفسه لأن في القبر البحر الذى تنشأ عنه هذه
الأمطار ، وسأل الله في ختامها أن ينزل زحماته عليه ، وتأس بأن عادة الموت
أن ينزل بالسكرام ، ويكلف بكل شريف .

ولقد أخذ نقاد الأدب على أبي تمام ما أخذ كثيرون : منها رداءة مطلعها
وأنه سرق جل معانيها ، وحذا حذو كثير من الشعراء في خيالها . ذكروا
أنه أخذ قوله :

كان نبي نهبان يوم وفاته

من قول صفيية الباهلية :

كنا كأنجم ليل يبينها قمر

وقوله :

أمن بعد طي الحادثات محمدا

من قول أبي نواس : « طوى الموت ما بيني وبين محمد ،

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طيء

من قول عبد الله بن أيوب :

جلت رزيتة فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنف السلمي يرثي ذفافة :

روى الأغانى قال قال محمد بن موسى كنى عند دهب فذكرنا أبا تمام
فثلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم أخرج دقترأ فإذا فيه : قال مكنف
السلمي يرثي ذفافة العيسى :

ألا أيها الناعي ذفافة ذا الندى	تعست وشلت من أناملك العشر
إذا ما أبو العباس خلى مكانه	فلا حملت أثى ولا مسها طهر
ولأمطرت أرضاً سماً ولا جرت	نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر

كأن بنى القعقاع يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح في شغل عن السفر السفر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكي عليه المجد والبأس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخرا

وذلك إسراف منهم في النقد ، وتحامل لا يقوم في بعضه على أساس ،
فإن هذه المعاني مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غيره ،
ولا نفسى أن دعبلا كان منافساً لأبي تمام معاصراً له وبينهما من الخصومة
ما يدعونا إلى الشك في خبره ، وأبو تمام شاعر وراوية سن للناس طريق
اختيار الشعر وحفظ منه ما لم يحفظه أحد ، فإذا جرى في شعره على معاني
المتقدمين وأساليبهم وأخيلتهم فذلك راجع إلى كثرة محفوظه وانطباع
الصور في شعوره ، لا إلى سرقة متعمدة ألجأ إليها جديب في تفكيره أو إملاق
في لغته . . وأبو تمام الرجل الذى يخضع اللغة لمعانيه العميقة وأخيلته
المبتكرة ويأنى بالنأى البعيد فيدنيه منك ويقربه إليك وقد تجد عسرا في
بلوغ مراده لكنه على كل حال لا تعوزه المادة ولا تشعر باستجدائه
وقصور باعه لكن ذلك لا يعفيه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفية ونقله
إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن اللحاق به مع احتذائه له وأخذه
منه ، وكذلك أيضاً تقصيره عن سبقه من الشعراء في قوله : رأيت الكريم
الحر ليس له عمر .

قال طرقة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتبدد

وقال الحماسى :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا كذاك الرمح يكلف بالكريم

وقال الخارجى : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو في قصيدة أخرى فبلغ الغاية :

إن تبتخل حدثان الموت أنفسكم
ويسلم الناس بين الحوض والعطن
فالماء ليس عجيباً أن أعذبه يفنى ويمتد عمر الأجن الأسن
فرفع التمثيل من شأن المعنى وبواه من النفوس موضعاً مرضياً ،
واحتج لذلك احتجاجاً مقبولاً . وكم كان من الحرى بأبي تمام أن
يتحدث في قصائد الرثاء إلى الناس في سهولة ويسر ، وأن يعدد
مناقب المرثى ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف في التماس وجوه البديع ،
وكان ينبغي أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن
تجد بيتاً من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة
فائقة وحذق عجيب . انظر إلى هذه الاستعارات الجميلة : توفيت الآمال .
فاضت العيون دماً . ضحكت الأحاديث . مات مضرب سيفه . ثياب الموت .
يبكى عليه البأس . استشهد الصبر . طى الحادثات محمداً . شجرات العرف .
سقى الغيث غيثاً . في لحده البحر . يحيا به الثرى . والطباق في مثل : بكت ،
وضحكت ، وطى ، ونشر ، وأبغض ، ويجب ، وألبست ، وعريت ، وبدو ،
وحضر ، وحر ، وخضر .

والجناس في مثل : انثر الثغر ، مضرب سيفه من الضرب . بواتر وبت .
إلى غير ذلك من ضروب البديع الذي كان معنياً به ومتوافراً عليه ، وكان
يخرجه أحياناً إلى التسكف : كأنثر الثغر مثلاً ، أراد أن يجانس فوقع
في هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشرت

بالأشترين عيون الشرك - فاصطالما

وفي القصيدة يقول أبو تمام :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
ونفس تعاف العار حتى كأنما
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر

وهو شبيه بقول الحماسية :

أبو أن يفروا والقنا في نحورهم
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة
وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولكن رأوا صبزا على الموت أكرما

وبما لا ريب فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محصول كلامه أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزمه العار فأبت نفسه الدنية ، فردها إلى الموت ، ومحصول كلامها أنهم أبوا الفرار والموت يهجم عليهم ويأخذ بنفوسهم وعلم النجاة بأيديهم والفرار لا عار فيه لأنهم أعذروا بل هو بقاء وحياة .

ومن صور الرثاء قول ابن الرومي يرثى ابنه محمداً :

بكاؤكما يشقى وإن كان لا يجدى
ألا قاتل الله المنايا ورميها
فجودا فقد أودى نظيركما عندي (١)
من القوم حبات القلوب على عمد
فله كيف اختار واسطة العقد
وآنست من أفعاله آية الرشد
بعيداً على قرب قريباً على بعد
وأخلفت الآمال ما كان من عهد
فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد
إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد (٢)

(١) بكاؤكما : الخطاب امينيه ، ولا يجدى : لا ينفع ، وأودى : هلك .

(٢) الجادى : الزعفران ، وهو أصفر .

وظل على الأيدي تساقط نفسه

ويزوى كما يزوى القضيبي من الرند (١)
عجبت لقلبي كيف لم ينظر له
ولو أنه أفسى من الحجر الصلد
وما سرني أن بعته بثوابه
ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته
وإني وإن تمتع بابني بعده
ليس على ظلم الحوادث من معد (٢)
لذا كره ما حنت النيب في نجد (٣)
وأولادنا مثل الجوارح أيها
لقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله
مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه
أم السمع بعد العين يهدي كاتهدى
لعمري لقد حالت بي الحال بعده
فيا ليت شعري كيف حالت به بعدى
ثكلت سروري كله إذ ثكلكته
وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد
أر بحانة العينين والأنف والحشا

ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدى
ماسقيك ماء العين ما أسعدت به
وإن كانت السقيما من الدمع لا تجدى
أعيني جوردا لي فقد جدت للثرى
بأنفس مما تسألان من الرند
كأنى ما استمعت منك بضممة
ولا شمة في ملعب لك أو مهد
وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدى
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
يكونان للأحزان أوري من الرند
فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
إذا لعبا في ملعب لك لذعا

(١) الرند : نبت طيب الرائحة له زهر أصفر يسمى الزينب ، وقد يسمى به الأس وهو نوع من الريحان .

(٢) معد من أعدى : بمعنى نصر وأعان .

(٣) النيب : جمع ناب وهو الناقة المستنة .

والرثاء من أهم موضوعات الشعر ، واشتهر بالإجادة فيه أوس (١) والأهشي وأبو زيد الطائي وليبدم (٤١ هـ ، متمم بن نويرة وأبو ذؤيب ومالك بن الرب وكعب بن معد (٢) ، وانفردت به الخنساء ، ثم اشتهر بعد ذلك حسين بن مطير والسكيت في مرثية للعلويين ودعبل في مرثية معاهد العلويين ، ثم أبو تمام وهو من المعدودين في ذلك ، (٣) ، ومثله ديك الجن وهو في هذا أشهر من حبيب (٣) ، وللبحتري في الرثاء آيات رائعة ومنها مرثيته في المتوكل ، وكذلك ابن الرومي كما في مرثيته لولديه « بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي » .

الشعر الحماسي :

ومن روائعه قصيدة أبي تمام في فتح عمورية .

وكان أبو تمام صاحب مذهب في الشعر ، وأميرا في دولته منذ مطلع القرن الثالث الهجري حتى وفاته ، كان يتخير الفاظه تخيرا شديدا ، ويجتهد في الصناعة البديعية ويدقق فيها غاية التدقيق وخاصة في الجناس والطباق وبالغ في تجويد صياغته مبالغة شديدة ، دقق في معانيه أشد التدقيق ، وتكاف تجويدها أشد التكاف ، وأهمل اللفظ أحيانا حتى يفتر وأحيانا حتى أفسدته العناية ، وتكاف البديع إلى حد شديد ، حتى كاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع ، ويجعله صناعة فنية عتيبة ، وقد أكثر في شعره من ضرب المثل ، ومن الحكمة ، وأغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها .

(١) ومرثيته : « أيتها النفس أجلى جزعا ، عند الأصمعي لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتدائها (٣٤ : ٣ الآمال) .

(٢) وقالوا ليس للعرب مرثية أجود من بائيتها في أخيه أبي المغوار (١٧٨ : ٢ ديوان المعاني) .

(٣) ١٤١ : ٢ العمدة .

وعمورية إحدى مدن الروم في آسيا الصغرى ، وكانت قلعة عسكرية
حصينة ، ففتحها المعتصم ودك حصونها ، فقال أبو تمام هذه القصيدة :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب (١)
بيض الصحائف لاسود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب (٢)

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أوثر من الخطب (٣)

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أنوابها القشب (٤)

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب (٥)

أبقيت جد بنى الإسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صيب (٦)

تديير معتصم بالله منتقم لله مرتعب في الله مرتقب (٧)

(١) الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر . المعنى : السيف أصدق بما تضمنته الكتب ،
وكان المنجمون يحذرون المعتصم من فتح عمورية في هذا الأوان ، وقالوا له : إنا
نجد في الكتب أنها لا تفتح إلا في وقت نضج التين والعنب فلم يستمع المعتصم لهم .
(٢) الصفائح : جمع صفيحة : السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة :
القرطاس المكتوب ، والمعنى : إن السيوف البيض هي التي تجلو الشك وتزيل
الريب لا الصحائف المكتوبة .

(٣) فتح الفتوح : هو فتح عمورية ، وكانت عزيزة على الروم ، محصنة غاية
التحصين ، ودافع عنها جيش الروم دفاع الأبطال . وكانت ذات موقع استراتيجي عظيم .

(٤) تبرز : تظهر القشب : جمع قشيب أى جديد .

(٥) المنى : ما يتمناه الإنسان . حفل جمع حافل وهي الناقة التي امتلأ ضرعها .

الحلب : الحلبية من اللبن . معسولة : حلوة ، والمعنى : إن أمانينا عادت وهي حافلة
بالسرور لتتحقق ما أملت .

(٦) الجد : الحظ صعد : صعود . صيب : انحدار .

(٧) التديير : تقدير الشيء على الوجه السليم المأمول الفوز .

لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب (١)
لولم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب (٢)

وهذه القصيدة من عيون الشعر العربي ، وهي طويلة اخترنا منها هذه الأبيات وتمثل الجزالة غاية التمثيل ، وتمتاز بوحدة القصيدة ، وبصدق عاطفة الشاعر فيها ، وبقوة التصوير . وروعة النسيج ، ودقة معاني الشاعر فيها .

وأبو تمام فيها ينوه بالاعتصم الخليفة وبجيشه وبالانتصار الذي أحرزه في هذه المعركة الخالدة باستيلائه على عمورية ودك حصونها ، وتشديت شمل المدافعين عنها ، وبالتحكيم بعد ذلك في آسيا الصغرى مركز التخطيط العسكري الروماني ضد العالم العربي الإسلامي آنذاك .

أبو تمام يشيد بهمة المعتصم وعزيمته ، ويقول : إن سينمه وهو الذي يحل المشكلات ؟ لانبوءات المنجمين ، وإن فيه الفصل بين الجد واللهم ، ثم يتحدث عن عظمة هذا النتج وأهميته وأنه أكبر من خطب الخطباء ومن نثر النثرين . ثم يذكر الفتح وأنه أرضى الأمانى فهى به في عيد جديد ، وأنه جعل حظ المسلمين في صعود حظ والكافرين في هبوط .

وأنه كذلك أثر لحنكة المعتصم وتدير وشجاعة هذا الخليفة العظيم الذي نصر بالرعب يتقدم جيشه وكأنه معه جيش آخر غير الجيش المحارب ، والذي يغنى هو بنفسه وشجاعته عن الجيوش الكثيفة والجنود الباسلين .

وهنا نجد التجربة الشعرية قوية ، والعاطفة الفرحية بانتصار المسلمين ملتهبة ، وخيال الشاعر يقظا مشبوبا ، ومعانيه كثيرة عليها مسحة من ثقافة عالية وذهن خصب ، مع المبالغة في المعاني ، ومع الحرص على صناعة البديع ؛ من بجمع وطباق وجناس ومقابلة ومبالغة وسواها .

(١) نهد الرجل : نهض . الرعب بسكون العين أى الفزع والخوف .
(٢) الجحفل : الجيش العظيم . الوغى : الحرب . اللجب : الكشيف .

نماذج أخرى من الشعر

١ - لأحمد بن محمد الإفريقي الشاعر المعروف بالمتيم وكان في بخارى في أواخر القرن الرابع الهجري (١) .

تلم على ترك الصلاة حليلتي
لماذا أصلى وأين باعى ومنزلى؟
وأين عبيد كالبدور وجوهم؟
أصلى، ولاقر من الأرض بحتوى
فقلت: اعزبى عن ناظرى، أنت طالق
وأين خيولى والحلى والمناطق؟
وأين جوارى الحسان العواتق؟
عليه يمىنى ا إتنى لمنافق ا
أصلى له ملاح فى الجو بارق
مخارق ليست تحتمن حقائق

٢ - ويقول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلت حدود الورد من تفضيله
لم يخجل الورد المورد لونه
للنرجس الفضل المبين وإن أبى
فصل القضية أن هذا قائد
شمتان بين اثنين هذا موعد
ينهى التديم عن القبيح بلحظة
اطلب بعقلك فى الملاح سميه
والورد إن فكرت فرد فى اسمه
هذى النجوم هى التى ربتها
فانظر إلى الأخوين من أدناهما
أين الحدود من العيون نفاسة

خجلا توردها عليه شاهد
إلا وناحله الفضيلة عاند
آب وحاد عن الطريقة حاند
زهر الرياض وأن هذا طارد
بتسلب الدنيا وهذا واعد
وعلى المدامة والسماع مساعد
أبد فإنك لا محالة واجد
ما فى الملاح له سمى واحد
بحيا السحاب كما يربى الوالد
شها بوالده فذاك الماجد
ورياسة لولا القياس الفاسد

(١) ٢ : ٨١ الإرشاد لياقوت ، ٢ : ١٢ اليتيمة :

وفي هذه القصيدة صنعة لطيفة يقول فيها عبد القاهر: عمل ابن الرومي على قلب طرفي التشبيه فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل، ثم تناسى ذلك وخذع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ثم لما اطمأن ذلك في قلبه واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة فجعل علة أن فضل النرجس ووضعه في منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها، فصار يتوب من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزيء. ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ويفرط حتى تصير كالمزء بمن قصد بها، ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المشرع في سحر البيان، ما رأيت من وضع حجاج في شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له وما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة، ويأحق بها في لطف الصنعة قول أبي هلال العسكري:

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به فلشد مارفع البنفسج شأنه

٣ - علي بن الجهم يتحدث عن الورد:

لم يضحك الورد إلا حين أهجبه حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها وراحت الراح في أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته أو مانعا جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة ييد
ما قابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تيننت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة تشفي القلوب من الأوصاب والكمد
لا عذب الله إلا من يعذبه بسمع بارد أو صاحب نكد

٤ - مروان بن أبي حفصة يحتج للعباسيين بأنهم عصبة النبي فهم ورثته،

وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، وذلك من قصيدة له في مدح المهدي :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم	قطع الخصام ، فلات حين خصام
أنى يسكون وليس ذلك بكائن	لبني البنات وراثة الأعمام (١)
ما للنساء مع الرجال فريضة	زلت بذلك سورة الأنعام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم	حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم	ودعوا وراثة كل أصد حامى

٥ - مسلم بن الوليد يفاخر قريشا ، وكان من شعراء الجمانية :

فاخرتنا بما بسطنا لها العذ	ر قريش ونفخها مستعار
ذكرت عزمها ، وما كان فيها	قبل أن تستجيرنا مستجار
إنما كانت عزمها في جبال	ترتقيها كما ترقى الوبار (١)
أيها الفاخرون بالعز والعز	لقوم سواهمو والفاخر
أخبرونا عن الأعز : أألمنة	صور حين اعتلى أم الأنصار؟
فلنا العز قبل عز قريش	وقريش تلك الدهور تجار

٦ - دهل الخزاعي في رثاء الشباب :

أين الشباب وأية سلسكا ؟	لا أين يطلب ؟ ضل ، بل هللكا
لا تعجبي ياسلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكي
ياليت شعري كيف يومسكا	يا صاحبي إذا دمي سفكا
لا تأخذا ظللتي أحدا	قلبي وطرفي في دمي اشتركا

(١) أى وراثة مثل وراثة الأعمام .

(٢) جمع وبرة : دويبة كالسنور .

رواية الشعر

في العصر الأموي نشطت حركة إحياء الشعر الجاهلي وروايته وتلقيه شفاها من أفواه الأعراب والمعجز وشيوخ القبائل وحكاتها ومعمرها . وقد اشتدت حركة الرواية في العصر العباسي عصر التدوين والتأليف ، وضاعف الاهتمام بها كثرة ما دس على الشعراء من شعر ، وما نحلوا من قصائد ، لذلك اتسمت حركة الرواية بسمة نقدية غالبية .

وقد كانت العرب أمة بدوية ، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذي يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى العلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليراع ، ولذلك كانوا يعتمدون على الذاكرة يخبزون فيها ما عرفوا ، ويحتقبون بين ثناياها ما يتردد بينهم من ألوان المعارف . ففي ذاكرة العربي ما يعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومآثور وقائعها ، كأنه مسطور في كتاب ومدون في صحائف ، لا يند عنه شيء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الكثير من الغرائب عن رواة العرب وسعة حفظهم مما يعدة بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالاً من الآخيلة . ولكنها القدرة البارعة التي لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربي كان يعرف سلسلة نسبه ، ويعرف كذلك أنساب القبائل ، فلا يغيب عنه شيء ولا يتسرب الخطأ إلى شيء مما روى .

وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مفاخرهم ، وديوان مآثرهم ، وجمع أحداثهم وقائعهم ، وعلمهم الذي لم يكن لهم علم

أجل منه ، وكان لكل شاعر راية خاصة يتلمذ عليه ويروى عنه ، ويحتج لقوله ، ويظهر محاسنه ويذيع أشعاره ، فامرؤ القيس كما يقولون راية أبي دؤاد الأيادي ، وزهير راية أوس بن حجر ، والأعشى راية المسيب بن علس . والخطيب راية زهير وابنه كعب .. وهكذا .

وفي عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتعش رجالها كما ذكرنا ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية معروفة وليستعينوا بما يرون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سموه وعظمته ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربي والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يعترفون بأحداثه ، ويفخرون بوقائعه ، ويتمجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر .

ومن ثم حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ، ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ، ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة في رواية غرائب الشعر تعدل القدرة في إنشائه ، والخفاوة بالرواية في قصور الخلفاء ومجالس الولاة لا تقل عن العناية بالشعراء المجودين ؛ والفحول المبرزين - وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث المجيد ، وكانوا متعرجين في روايتهم ، مثبتين في كل ما يوصل إليهم ، فلا يأخذون إلا من صحت عريتهم ، وبعثوا عن كل تأثير أجنبي ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل ، وبعض من كنانة ، وبعض من طى . أما القبائل التي جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً . وقيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لحم وجذام لأنهما جاوروا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ،

ولا عن ثقيف لمخالطتهم تجار البين ، ولا عن قضاة وغسان حلولهم بالشام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين مامعهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسنى الهبات ما شجعهم على الرواية والانتفاع لها .

ولقد جرت الرواية في عصر بني العباس على سنتها في عصر بني أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقي الأعراب الحافظون ينتقلون من البادية إلى الحاضرة لبيع ما عندهم من أشعار . وعرض ما يختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانث السنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، فقات الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

وكانت الرواية أول الأمر هواية نفوس ألفتها ورغبت قلبها أحببتها وسجبت عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ما راعهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد ، ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتعج يا حساسه ، الذي لا يسيره غرض ، ولا تطنى عليه منفعة ؛ أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع .

ولما وضحت شدة الرغبة في الرواية فيما عندهم ، وقوة الحرص عليها ، وكثر ما أصدق على الرواة من العطايا والمنح أخذوا يجعلون عليهم مهنة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح . وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغبة كسب ، فقل فيها بعض الشيء للاهتمام بالأمانة ، والحرص على الصدق ، والمبالغة في تحرى الصواب . وبذلك وجد الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا ، وإلى الواقع خيالا ، وإلى الحادثة أحداثا .

كل ذلك لأن مهمم الكسب ، ووكدتم أن يروج ما اخترعوه ، ويسير في الناس ما وضعوه ، فينالهم من وراء ذلك الأجر ، ويصيهم ما أملوا من كسب . وأسباب الانتحال في الرواية كثيرة ، فمنها :

١ - كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب ، وسبب الاجتلاب الرزق فيفدون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال . فإذا نفذ ما يحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع . ويحدثنا محمد بن سلام الجمحي أن ابن داود بن متمم بن نويرة ، قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الميرة . فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه ، وقام له بحاجته وكفياه مؤونته ، فلما نفذ شعر أبيه متمم جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، فإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهد بها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله . ويقول الأصمعي عن أعرابي اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرا . ويقول الأصمعي : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين .

٢ - حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ برواية ما تطرب له نفوسهم ، وتفتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها في القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال : ما أطرفتنى شيئاً . فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطية مدحا لأبي موسى الأشعري . فقال : ويحك ، يمدح الحطية أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى للحطية ولكن دعها تذهب في الناس .

وصاحب الأغانى يروى أن حمادا تقرب إلى خاله بن عبد الله القسري

باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الحداية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء — قال على لسان قيس :

وقد حللنا بقسرى أخى ثقة كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقنا
كم من ثناء عظيم قد تداركه وقد تقاوم فيه الأمر وانخرقا
يقول أبو عمرو والشيباني : إن حمادا أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله .
والتوليد فيها بين جداً .

٣ — عدم تخرج بعض الرواة من الكذب والاختلاق ، لشهوة تحسبها
أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل في صدورهم ، ورغبة في إظهار السبق
والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين : حماد وخلف
الأحمر ؛ أما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من
حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أخطيء في روايته
أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك . فإن أهل العلم بردون من أخطأ إلى الصواب .
ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم .
فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ويحمل ذلك
عنه في الأفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم
ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدي وهو ولي للعهد بما زاده من
عنده في شعر زهير بن أبي سلمى ، حتى أمر حاجبه فأعلن في الناس أنه
يبطل رواية حماد .

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام ، أفرس الناس بيت شعر .

ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك في آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقه أحد . واعترف هو للأصمعي بأنه وضع أشعاراً . وقبل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على تأبط شرأ رويت في الحماسة .

٤ - على أن بعض الحفاظ من الرواة كانوا حين يتزاحم لديهم ما حفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ويلتبس لديهم المتقارب في المعنى أو في الوزن أو المتفق في الروى . فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى نسبوا الأبيات الآتية إلى ابن الدمينة وإلى نحو أربعين شاعراً وهي :

أنضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والمم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل شاقتنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥٥ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٨١ هـ ، وأبو عمرو الشيبانى ، وأبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، والأصمعي م ٢١٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى م ٢١٣ هـ ، وسوام ؛ وقد ختمت طبقة الرواة بالمبرد (٢٨٥ هـ) وتعلب (٢٩١ هـ) ، فإليهما انتهت الرواية ، وبهما ختمت ؛ وحركة رواية الشعر فى هذا العصر هى التى حفظت لنا أشهر القصائد القديمة ، وهى التى جعلت الرواة يقبلون على تدوين دواوين الشعراء ، وجمع شعر القبائل المختلفة كهمذيل وغيرها ، وقد خلقت لنا هذه الحركة أعمالاً جليلة فى البعث الأدبى وفى إحياء الشعر القديم ، وكانت مقدمة لحركة النقد والتحصيص التى تلت حركة الجمع والرواية والتدوين .

طبقات الشعراء

شعراء العصر العباسي الأول كثيرون ، ويختلفون باختلاف نزعاتهم السياسية والاجتماعية والفنية :

١ - فهناك شعراء لهم صبغة سياسية ومن بينهم مروان بن أبي حفصة وكان عباسي الهوى ، وكذلك أبو تمام وابن المعتز ، من حيث كان دعبلى شيعى الهوى والنزعة .

٢ - وهناك شعراء تغلب عليهم النزعة الاجتماعية ، وفي مقدمتهم أبو نواس شاعر اللذة ، وابن الرومى شاعر الهجاء فى عصره ، والبحترى شاعر المجتمع بأوسع ما تتصوره من دلالة .

٣ - وهناك شعراء شهروا بمذاهب فنية وهم شعراء الصنعة الذين سنتحدث عنهم بعد قليل ؛ وعلى الجملة فقد كان من أشهر شعراء هذا العصر :

١ - الطبقة الأولى من العباسيين وهم مخضرمو الدولتين كابن هرمة (١٥٠ هـ) ، وأبى دلامة (١٦١ هـ) ، والحسين بن مطير الأسدى ، وأبى حبة النيرى ، وسديف بن ميمون ، وأبو الهندى ، وبشار (١٦٧ هـ) وهو إمامهم ويعتد إمام المحدثين كذلك ، وصالح بن عبد القدوس (١٦٧ هـ) وحماد عجرد (١٦٨ هـ) ومطيع بن إياس (١٦٩ هـ) والسيد الخيرى (١٧٣ هـ) ، ومروان بن أبى حفصة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة المحدثين الذين نشأوا فى صدر الدولة العباسية ، ومنهم أبو نواس (١٩٨ هـ) وهو إمامهم ، ووالبة (١٧٥ هـ) ، وسلم (١٨٦ هـ) ، والعباس بن الأحنف (١٩٢ هـ) ، وأشجع السلى (١٩٥ هـ) وأبى العتاهية (٢١١ هـ) ، ودعبلى (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وسواهم .

٣ - والطبقة الثالثة طبقة أبى تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) وابن الرومى (٢٨٣ هـ) وابن المعتز (٢٩٦ هـ) وهى طبقة طارت شهرتها فى كل مكان .

الطبع والصنعة عند المحدثين

١ - بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الاولون أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة ، فالصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه ، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى في تحديد معناها أن نجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملمكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب و"صناعة" ؛ أما الصنعة فهي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحببه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه الفني بها ، وقصده إليها ، وتعتمده لها في شعره ، حتى يطلب الفن للنمى ويستأهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التي استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشجوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلي : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمعي الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والناطقة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الخطيئة - وهو شاعر إسلامي مشهور - عبد لشعره ،

قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستويًا لمسكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعدده العقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته في الشعر .

ولقد كان الشعر العربي أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتي به عفواً الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع ، فتنتال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسجراً وجمالاً ؛ كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنتال عليه الألفاظ انثيالاً .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبراً لحسن شعره ، وتتلذذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوي كذلك ، وكان النمر بن توبل من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه السكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبياني أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة : إن امرأ القيس أيضاً كان يتقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديته ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الأبادي ، وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ على

معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرئ القيس ينفي عنه الصنعة والتصنيع ،
و فرق بين أن يجيء عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون
مصنوعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد :
عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع
الحوليات على وجه التثقيف والتهديب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره
فيها - خوفاً من النقد والنقاد - بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة
أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها
الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة
أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار
تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتصنيع -
أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كهكاظ وسواه بالحكومة
الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما
كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذ وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين
على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سنى الهدايا والألطف من ممدوحهم ؛
وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد
والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار
أصحاب الطبع والبديهة كطرفه وامرئ القيس ومهامل وآثار الشعراء
المصنعين .

والمعلقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية
وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار

الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرئ القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولطوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحربي والسياسي لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنتره حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقه زهير دعوة للسلام وتنفير من الحرب ووصف لأهلها وويلاتها ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصناعة وآثارها الفنية ، وشتان بين هذه المعلقة وبين بائنة النابغة ، كئني لهم الخ ، أو بينها وبين قصيدة زهير « صحا القلب عن سلى » لبعد ما بين الأثر المطبوع والمصنوع .

واستمر مذهب الصناعة بعد العصر الجاهلي ، يظهر في شعر الخطيئة والراعي النخري وغيرهما حتى جاء العصر العباسي .

٢ - كان الشعراء المحدثون - وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية وفي ظلال الامتزاج الذي حدث بين العرب والأمم الأخرى - يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصناعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان ، التي يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها . وكان الراعي مقدمة لهذا اللون من الصناعة ، فكان كثير البديع في شعره (١) .

وأول من فتح البديع من المحدثين بشار وابن هرمة (٢) ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعا منهما (٣) ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابي والنخري ومسلم وأبو نواس (٤) ، فالعتابي يذهب شعره في البديع (٥) ،

(١) ٣٤٢ : البيان
(٢) ١١٠ : العمدة
(٣) ٥٥ : البيان
(٤) ١١٠ : العمدة
(٥) ٢٤٢ : البيان

وكان يحتذى حذو بشار في البديع (١) ، وكان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنفرى ومسلم وأشباههما (٢) ، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٣) ، وكانت تقباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٤) ، وكان أبو نواس ثانياً بشار في منزعه لفظاً ومعنى وكثيراً ما صب على قواله وجرى في مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : هما واحد والعدة اثنان ا بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولاً ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن ، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبي نواس (٥) ، وكان أبو نواس يشبهه بالنابغة (٦) ، وكان أمير المحدثين شعراً (٧) . والصنعة واضحة بشكل ملبوس في ميميته :

وذى رحم قلبت أظفار ضغنته بجلى عنه وهو ليس له حلم (٨)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهدياً أدبياً واسعاً للشعر ومذهباً جديداً ما ثورا إلا على يد المحدثين عامة (٩) وعلى أيدي مسلم وأبي تمام على الخصوص ، فسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن في الأشعار المحدثثة قبله إلا التبدد اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطل في صنعته ويجيدها (١٠) ، بل هو فيما زعموا

(١) ١ : ٥٥ البيان .

(٢) ١ : ٥٤ البيان .

(٣) راجع ٢٠ : ٣ الأغاني ، ١١٠ : ١ العمدة ، ١٣ : ٢ زهر ، ٢٥٠ : ٢ موشح

ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعي يقول هو خاتمة الشعراء (٣ : ٢٣ الأغاني)

(٤) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(٥) ١٦١ العصر العباسي للاسكندرى .

(٦) ١ : ١١٠ العمدة .

(٧) ١٧٣ : ٣ العمدة .

(٨) وهي في ديوانه ، وتنسب لعن بن أوس خطأ .

(٩) ١٧٣ : ١ العمدة .

(١٠) ١١٠ : ١ العمدة .

أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذا الجنس بالبديع واللطيف^(١) ، وأول من أفسد الشعر بالبديع^(٢) ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب^(٣) ، كان يتخذ الصنعة مذهباً يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا، فغنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام الفاضله وتعابيرها كما يقيم المثالون تماثيلهم ، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لاتعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان^(٤) .

٣ — وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى . فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتي الأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة^(٥) ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالمسابق إليه جميع الشعراء^(٦) ، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها^(٧) ، ولا يجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه^(٨) ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريح

(١) ٢٠ : ١ معاهد التنصيص .

(٢) ٨ الموازنة .

(٣) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨

رسائل البلغاء ، ١٣٢ : ٤ زهر الأدب .

(٤) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه . (٥) ١٠٩ : ١ العمدة .

(٦) ١٦٨ : ٧ مهذب الأغانى . (٧) ٩٦ إحصاء القرآن .

(٨) ٩٢ رسالة الغفران .

والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفة طرقا سابلة وأكثرها منها في أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً (٢) ، وكان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشئ التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكله ، وتصوير وأضاف إليها شيئاً آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صيغ التديب وقد استوعب الفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكله كل ذلك وسواه تجتمع في شعره فيجمله الغموض في كثير من جرائبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى آخذه به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصوراً جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد وجانب الغموض والمعاني العويصة في شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبرز من مذهب البرناسيين، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداماً معقداً يلوئه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة ، وكان البحرى يتشبه بأبي تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه في البديع (٤) .

وكان لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام (٥) ويقل التصنع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً وشيقاً، وتصنعه للطبائفة كثير حسن وعمقه في

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامه أبي تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى في ريحانته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صنفها الخالدى على لسان أبي تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره .
(٢) ١١٠ : ١ : العمدة . (٣) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١
الفن ومذاهبه في الشعر العربى . (٤) ١٨٣ ؛ ٧ مهذب الأغاني .
(٥) أى من إسرافه فيه .

وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة (١) والبحتري على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق ، كان بدويا أعرايا فضلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة (٢) ، كان يتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلاني ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر ، بل كانت كالعسل حلاوة (٣) .

أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته (٤) ، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع (٥) ، فهو حديث في ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرج به إلى مجال المصنعين (٦) ، وهو مع ذلك قد يأتي بألوان الزخرف الفنى في شعره ، ولكن دون أن يتخذها مذهباً ، وكان يستخدم الطباق والجناس في شعره ، وهو يشبه البحتري في ذلك إلا أن البحتري يكثر

(١) ٩٦ إيجاز القرآن .

(٢) ٩٠ الفن ومذاهبه .

(٣) ٣٥ طبقات ابن المعتز ، والآمدى يفضل ابتداءاته (١ : ٥٥ العمدة) وكان مقصرا في الخروج من النسيب إلى المدح (١ : ٤١ إيجاز القرآن) ، ويفضله الجرجاني بمجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (١ : ٢٠٥ العمدة) .

(٤) ١٠٦ : ١ : العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للعانى (٢٣٢ : ٢ : العمدة) ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ : رسالة الغفران) .

(٥) ٩٤ الفن ومذاهبه .

(٦) ٩٥ المرجع .

من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صبغ التدبيج (١) .

٤ - وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٢) ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به ، وكان في العباسيين كالوليد في الأمويين ، وكان متكلفا مجيدا في تكلفه كما كان الوليد مطبوعا مجيدا في طبعه . ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ولم يكن من المطبوعين (٣) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعرا أكل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندي ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا وأقربهم قوافي وأوزانا ولا أرى وراءه غاية لطالبا في هذا الباب (٤) ؛ ولقد صدق ابن رشيق في حكمه الأدبي على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصناعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة في صناعته ما يروع القارئ ويستبد بأعجاب المنصف من النقاد ، وكان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحتري وابن المعتز يجريان مع الطبع ، وكان مسلم ينهج نهجا وسطا ، (٥) . . ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال الساري في الحياة .

وقد استمر مذهب الصناعة بعد ابن المعتز منهجا فنيا لكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروي في أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم في القافية (١٣٧ و ١٣٨ : ١) العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروي (١٧٢ سر الفصاحة) . (٢) ١١٠ ج ١ العمدة .
(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة .
(٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب .

تراجم للشعراء :

ابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر

حياته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتز في شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، في بيت الخلافة ، وولي والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ . ومكث فيه ثلاث سنين ، قتل بعدها بيد الأتراك الذين كان ييدم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة، وكان لنسبة والده أثر عميق في حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته في الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأتمتها، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بالوان العلوم والثقافات والآداب، وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ، وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ، وسواهما من فحول العلماء .

وظهرت شاعريته في أول عهده بالشباب ، فامتلات بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الزايق على خصائص الأدب والبيان . وله مؤلفات كثيرة جيدة منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع في جزأين في مضر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين، هم: المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو في نفسه ناظم هل الحياة التي ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول في شعره :

من يشتري حسبي بأمن نخول من يشتري أدبي بمحظ جهول ؟
ولسامات ابن عمه الخليفة العباسي المكتفي بالله عام ٢٩٥ هـ ، ولي
الأزك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً ، فنار الناس في بغداد ،
وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام
٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تؤيده
القوة الحربية في الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن
الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء
العربية المعدودين .

بيئته :

عاش ابن المعتز في بغداد وسر من رأى ، في البيئة العامة التي امتاز بها
القرن الثالث ، والتي حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات
والآداب ، كما عاش في بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد ،
في قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح في شخصيته
وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

١ - أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره ووجدانه
وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ، ملهم الشاعرية ، قوى الملسكات (١) .
ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره ، وما يختلج في
صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة .
فشعره صورة لحياته الخاصة أولاً ، وحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللأجتماعات
العليا في السياسة والاجتماع والآداب أخيراً ، وهو فوق ذلك صورة صادقة

(١) ويروي عن ابن مجاهد (٨٢٢٤) : من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب للشافعي ،
وروي شعر ابن المعتز فقد كل ظرفه (٢ : ١٠٣ طبقات الشافعية للسبكي) .

للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ - وقد أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات ، والغزل . وخرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثير تشبيهات ، وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خرياته .

وكذلك كان فى الصيد والطرده مجيداً مبدعاً ، يقتفى فيه آثار امرئ القيس ، وأبى نواس والعتاب والشكوى من الغنون الشعرية التى تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والإبداع ، ورسم صوراً صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلاسة ، ومرح وطبع ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمت ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر إرضاء لنفسه ، وتصويراً لحسه ، بما صرفه إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأئس ، ومطارد الصيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلاً ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحتري ، وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) .

٣ - ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق

الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حيناً ، ومقلد أحياناً أخرى .

٤ - وخياله الشعري خيال وافق ، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعنى بمحسّات الأمور ؛ ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعدوية . في جولة تشيع في أعطافه حيناً ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحياناً ، مع جمال في ترف البيان وألوان البديع ، بما حدا فيه حذو بشار ومسلم وأبي تمام . وتشيع في أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحاً وحياة وموسيقى ووضوحاً ، في قرب ، أخذ ، وجودة قريحة ، وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلىء حاجة وأملا

منزلته الشعرية :

ابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبغت في القرن الثالث الهجري ، وهو أمير التشبيه في الشعر العربي القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهي الطبقة التي خلفت طبقة أبي نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه في طبقته أبا تمام والبحتري ؛ وبعض النقاد يجعل ابن الرومي وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أبا تمام والبحتري حامل راية الطبقة الثالثة في المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي

طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وخطوا على من سواهم من الشعراء (١) .
ويقول: وليس في المولدين أشهر اسما من أبي نواس ثم حبيب والبحترى
ثم تبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار
كأبي نواس في المحدثين ، وامرئ القيس في القدماء (٢) .

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز ، هي مدرسة المحدثين ، التي قاد
زمامها أبو تمام والبحترى ، والتي امتازت بميزتين :

الأولى : هي التحقق في المعاني واستنباطها ، مما يتجلى لك في شعر أبي
تمام وابن الرومي واضحا ملموساً .

والثانية : هي الصناعة الشعرية المتأنقة ، التي تطلب ألوان الجمال في الأداء ،
وتعتمد على النرف البياني في الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه
واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب - كما يقول ابن رشيق - لا تنظر في
أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفضة للفضة ،
أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها في فصاحة الكلام
وجزأته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا
النوع فمن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع
زهير الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين
بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم ، والعتابي ، والنري ، وأبو نواس ؛
واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فأنهى علم البديع والصنعة
إليه ، وختم به (٣) .

(١) ج ١ العمدة .

(٢) ج ١ العمدة .

(٣) ج ١ العمدة .

فابن المعتز إذاً هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكافئة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلموبه ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفاً جيداً فى تكلفه ، بقدر ما كان الوليد مطبوعاً جيداً فى طبعه ، ويصف ابن رشيقي صنعته فيقول : « وما أعلم شاعر أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز ، فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع ، إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى اللطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعاً وافتناناً ، وأقربهم أوزاناً وقوافي ، ولا أدرى وراه غاية لطالها فى هذا الباب ، ^(١) .

ويقول الجرجاني فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين ^(٢) ، وكان الجرجاني يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : « هو وإن كان فيه رقة الملوكة ، وغزل الظرفاء ، وهلملة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفاً لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك ، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبي والظليم ، والناقة والجمال ، والديار والقفار ، . والأصفهاني يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالباً ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالباً عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه .

(١) ١٠٩ ج ١ العمدة .

(٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

ويقول ابن شرف القيرواني في رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

فن ابن المعتز في التشبيه :

طارت شهرة ابن المعتز الأدبية والفنية في باب التشبيه ، وأتى في ذلك بما سحر الناس وخلد في صفحات الشعر والأدب . وسار المثل في القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصويره لفنه ، وفي الحق أننا لانجد التشبيه ملكة من الملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ، ولانجد هذه الكثرة مع تلك الجودة عند أحد سواه . وكان ابن المعتز يقول : إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله في (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة في باب التشبيه ، يقول الباقلائي : وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع من هذا ما لم يتتبع غيره ، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول الثعالبي : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل في الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه في شعره فقد جاءك الحسن والإحسان ولما كان غذى النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة

(١) ١٤٦ ج ١ مآهد التنخيص . ٦٩٣ ج ١ دائرة المعارف للبستاني ، ومقدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببيروت وينسبها الرافعي لذي الرمة (٢٥ ج ٢ آداب العرب للرافعي) ، وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباقلاني .

تهياً له من حسن التشبيه ما لم يتبها لغيره ممن لم يروا مارآه ، ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات (١) .

ويقول المطوعى : جل كلام ابن المعتز في التشبيه عن أن يمثل بنظير أو شبيه (٢) : ويقول العباسى : هو أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات (٣) ويقول ابن رشيق : قالت طائفة الشعراء ثلاثة ، جاهلى ، وإسلامى ، ومولد فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز ، قال ابن رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر (٤) ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كان المعتز في التشبيه (٥) ، ويقول الحصرى : وليس بعدذى الرمة أكثر افتناناً وأكبر تصرفاً في التشبيه من ابن المعتز (٦) ، ويقول الدميرى : هو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره (٧) . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين (٨) وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والتقد وأشاد بها فى الأسرار . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وخمريات أبى نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدائح

(١) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

(٢) ١٧٤ ج ١ زهر الآداب .

(٣) ١٤٦ ج ١ معاهد التنصيص .

(٤) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٥) ٢٥٥ ج ١ العمدة .

(٦) ٢١٩ ج ١ زهر .

(٧) ٨٣ ج ١ دميرى .

(٨) ٢٢٢ ج ٢ شذرات ، ٢٧٠ الوسيط . ٢٤ العصر العباسى السباعى ييوى

٢٤٩ رسائل البلغاء .

البحتري وتشبيهات ابن المعتز لم يخرج إلى الشعر فالماوت أولى به . ويقول
بعض المحدثين : فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس
بخمرياته (١) .

وقد قلده الشعراء في فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم
ابن المعز يحذو حذو ابن المعتز في التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على
قالبه (٢) . وكان العقيلي أبو الحسن علي بن الحسين من أئمة المدرسة التي تعنى
بالتشبيه وتجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبي نواس
وابن المعتز في الخمر وتوليد المعاني (٣) . وكذلك احتذاه في تشبيهاته :
ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ هـ وأبو نواس والوأراء (٤) ، وابن خفاجة ،
وسواهم .

ترجع بواعث هذه المأسكة المصورة في نفس ابن المعتز وأسباب تلك
القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيهه بعضها ببعض إلى ذهنه
الخصب ، وعقليته الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق
ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفني يتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى
مظاهر الحضارة وترف الحياة التي عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية
الذي آثره ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة .

ويمكننا أن نصور التشبيه في فن ابن المعتز ، تصويراً واضحاً ، على نمط
من التفصيل ، فنقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتي :

أولاً : كثرة التشبيهات في شعره كثرة هائلة ، حتى لا تخلو قصيدة من

-
- (١) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان . (٢) ١٨٣ ج ١ زهر .
(٣) ٢١٤ ج ١ ظهر الإسلام . (٤) راجع ١٥٢ المثل السائر
(٥) شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد
التشبيه (١٤٦ ج ٢ فوات الوفيات) .

قصائده ، ولاقطعة من مقطوعاته ، من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملسكة القوية ظاهرة ملووسة في فن ابن المعتز في سائر شعره ، وشتى أغراضه ، وإن كثرت ظهورها في أوصافه وخبرياته وغزله وطرده ، وهو في هذا يبذل جميع الشعراء ، الذين لم يكثروا التشبيه في شعرهم هذه الكثرة ، فقد عكف ابن المعتز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير .

ثانيا : تشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسّات ، ياخراجها في مظاهر حسية يستمدّها من بيئته ، هو يصور مظاهر الطبيعة وشتى ألوان الحضارة المادية ، في صور لها سحرها وجمالها الفني الرائع . ولما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادية ومجالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس في الحياة ، وفاضت صنعته - كما يقول بعض المحقّقين (١) - بأصباغ الزخرف الحسى ، الذى لم ينعص في بحار الفلسفة . وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها وأجلها . بما يفيض بالخيال الرائع ، ويبرز مكان هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وغالطها ابن المعتز ، بما فيها من مدامن التبر ، وأوانى الفضة وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللآلئ النادرة حتى ليخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ - مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف - قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد وذلك هو سر تفردّه في هذا اللون . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من المحسّات ، ولا ابن المعتز فن مستقل في تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والإحسان ، وسبأنى كثير من مثل

(١) ٨٧ و ٨٥ الصبغ البديعى في اللغة العربية - مخطوط .

ذلك في شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ،
استمد صورها من المظاهر الحسية في غالب الأحيان ، فيقول :

رددت إلى التقي نفسى فقرت كما رد الحسام إلى القراب
أو يقول :

اصبر على مهنض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تاكل بعضها إن لم تجد ما تأكله
أو يقول :

لا تجمعوا بالله ويحكمو غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز في تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة
شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هوقى في
تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذمته الخصب ، الذي يقدر الأشياء ، ويقدر
الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله في كل خصائصه التي
أرادها الشاعر ، وصوره من أجلها . ثم هو لم يجب أن يمثل عواطفه في
تشبيهاته ، لئلا تخرج عن حقائق الأمور التي تمثلها أمام العقل ، وفي رؤية
البصر ، ثم هو يظهر لك إصباغ صوره كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ،
أو يلوونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى في تشبيهات ابن المعتز هي دقة التصوير التي امتاز
بها وبلغ فيها منتهى الإجازة ، وتقدم بها على كثير من الشعراء الوصافين .
فإنه كان يوضح الشبه بين الشئيين توضيحا بالغاً مهما اختلفا في الجنس
وتباهدا في الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات في ربيعة .
ويعقد بين المتباينات معاهد النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف
النظر ونفاذ الخاطر ، ومما يعطيه الناقد في كثير منه منزلة الحاذق الصانع ،

والمصور الملمم الذى سبق إلى اخزاع نوع من الصنعة حتى صار إماما فيه ،
وأسمى من بعده عبالا عليه ، وتبعاً له .

فالبفسج زهر غض يرف ، تبصر فيه زرقة أوراقه وحررة ساقه ، يشبهه
ابن المعتز لآبزه ر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولكن يشبهه بلهب نار
لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق
فى التصوير ، ونظر نظرة خاصة غريبة ، فشبهه بزرقة النار، أول ما تشتعل
فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، ومملك زمام الإجابة ، حين يقول :

ولا زوردية تزهر بزرقتها بين الرياض على حمر اليراقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعا يشبهه ابن المعتز
بأشخاص الغربان ، ولكننه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل
الغربان ذاهبة فى الفضاء ، طائرة فى جو السماء ، يدفعها الخوف لا الرجاء ،
فيبدع فى ذلك كله غاية الإبداع حين يقول :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غربا با ذا قوادم جون^(١)

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه ، فى أن
جعل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى
ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم صور ذلك كله فى
قوله : نطير غربا با ، دون أن يقول غرباب أو غرباب يطير ، وذلك لأن
الغراب وكل طائر إذا كان هادئا واقفاً فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه
كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لا تراها العيون ، وليس كذلك
إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من
مكانه الأول .

(١) الجون : الأبيض والأسود من الأضداد ، والمراد به هنا الأسود .

والشمس في تموج شعاعها وفي إشراقها واستدارتها يشبهها ابن المعتز بتموج نور المرأة ، ولا يقنع بذلك بل يجعل المرأة في كف الأشل فيقول :
« والشمس كالمرآة في كف الأشل ، .. ويصور أشعة الشمس في تلالؤها وإشراقها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصبوب على الأرض فيقول في إجادة :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

خامساً : وابن المعتز يسبغ على صورته في التشبيه ظل حياته المترفة المغعمة بألوان النعيم . فيشبهه الأذريونة بكؤوس الذهب التي يحفظ فيها الطيب وفيها بقية منه ، ويشبهه النرجس بكؤوس الدر التي في حشوها العقيق ، ويشبه العنب بمخازن البلور .. إلى آخر هذه الأوصاف التي استمدها الشاعر من حياته وبيئته .

أثر حياة ابن المعتز وبيئته في شعره :

شعر ابن المعتز صور أدبية جميلة تمثل حياته المترفة أتم تمثيل ، ففيه صور كثيرة مستمدة من الأزهار والورد والجواهر الكريمة وحياة الملوك ومظاهرها المختلفة .

فهو مثلاً يصف العنب فيشبهه بمخازن البلور ، حين يقول في ابتداء وتجديد :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياء في ظروف نور

ويصف الهلال أول ظهوره ، حيث يرى قوساً من بياض ، محاطاً بالظلام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد أثقلته حمولة من عنبر ، والعنبر أسود والزورق حين يكون مثقلاً بما يحمل لا يبدو منه فوق سطح المساء إلا جزء صغير أشبه ما يكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتز الزورق من فضة ، ليسكون الجزء البادى منه فوق سطح الماء أبيض متألثا شبيها بالقوس الفضى الصغير الذى ينير من القمر حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطرافتها ، وذلك حيث يقول ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ويصف الهلال أيضا فيصوره بصورة منجل من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى ظلام الليل ، والمنجل شبيه بقوس الهلال ، والفضة تشير إلى ضوء الهلال ، والمنجل لا يستعمل إلا فى الحصد ، ولذلك تمم ابن المعتز هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يحصد من زهور الظلام النرجس وحده ، أى يحصد ما يمثل الظلام فى السكون ، فيقول ابن المعتز فى إجازة بارعة فى وصف الهلال :

كنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر المحروم لا يمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور فى شعره مثلما تحدث عنها ابن المعتز ، وقد سبق بيت ابن المعتز الذى يصور فيه أشعة الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها ، وهو :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

ويقول ابن المعتز يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

وموقدات بن يضر من اللهب

يشبعنه من لحم ومن حطب

يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

وهذه الصورة رائعة لآحد لجمالها ، وهى جديدة التصوير .

موازنات أدبية :

١ - يقول البحتري في وصفه العناق :

ولم أفس ليلتنا في العنا ق لب الصبا بقضيب قضيبا
أخذه ابن المعتز وزاد عليه في المعنى وفي جودة التصوير ، ودقة
التعبير ، فقال :

فلو ترانا في قيص الدجى حسبتنا في جسد واحد
وهنا نرى ابن المعتز يرق في الأسلوب والتعبير والوصف ، ويجيد في
التصوير إجازة بارعة .

٢ - وقال كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأهناق المطى الأباطح
أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير
فقوله : « سالت عليه شعاب الحى ، يقابل الشطر الثانى كله من بيت
كثير . فهو أوجز ، على أن « سالت عليه شعاب الحى ، أبلغ في التصوير
من قول كثير .

٣ - وقال أبو نواس في الراح :

كان صغرى وكبرى من فقايعها حصباء در على أرض من الذهب
أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كيت كأنها أرض تبر فى نواحيه لؤلؤ مغروس
ف نجد ابن المعتز يمدد الصورة تعقيداً فنياً واضحاً ، ويرسمها بإجازة دون
أن تهتز اللوحة التى رسمها ، ونجده مع ذلك مجدداً ، وإن كان لأبي نواس
شرف السبق وبساطة الأداء .

٤ — والعامّة تشبه الورد بالخند والخند بالورد . وهو من المبتذل ، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامى إلى الخاصى ، أوضم إليه معنى يشفع به ، كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بمضمن إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدج بها إبراهيم بن المهدي ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت ، زحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يا قتي شهبوا الخدود بالورود وأنت شبهت الورد بالخدود (١) . على أن فى بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابدال . وهو إضافة بمضمن إلى بعض .

وقال ابن المعتز فى هذا المعنى ، يصور بياض الورد وما فى جوانبه من احمرار :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

فأبدع فى التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجانى فى وساطته : ولو اتفق له أن يقول حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل (٢) ، قال عبد القاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الورد ، فشبه على طريق العكس ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كمذه الحمرة حولها البياض فى وجنة الخجل (٣) ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجانى غلطا فى التشبيه (٤) .

٥ — وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

(١) ١٥٨ ج ٢ زهر الآداب .
(٢) ١٥١ وساطة .
(٣) ١٧٢ أسرار .
(٤) ١٧ ج ٢ العمدة .

كأنما نصب كأسه قر يكرع في بعض أنجم الفلك
وقال ابن الرومي فيه ، وكان أحسن منهما :
فكأنها وكان شاربها قر يقبل عارض الشمس
وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :
وكانه وكان الكأس في فمه هلال أول شهر غاب في شفق
وهو أحسن ما رصف به كأس علي فم .

٦ - ولما كان ابن الرومي هو أقرب شاعر إلى ابن المعتز من طبقته ،
فسنوازن هنا في إيجاز بين قصيدتين للشاعرين في موضوع واحد ، نرى من
هذه الموازنة مدى فن كل من الشعارين ، ولكن هذه الموازنة لاتعطينا حكماً
حاسماً على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً ما يأتي أحد الشعارين بمعان في
موضوع القصيدة لا يأتي بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين ،
اللتين اخترتهما من شعر الشعارين لتقاربهما في الخيال ، ووحدتهما في
الموضوع ، فوق وحدتهما في الوزن . قال ابن الرومي من قصيدة في وصف
مجلس الراح :

شمس من الحسن في معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
في وجنات تحمر من خجل كأن ورد الريع حمرها
يسعى إليها بكأسه رشاً أنسه الله وذكرها
في كفه كالشهاب لاح على ظلياء ليل دجت فنورها
إن برزت للهواء غبرها أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز في مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه جن به مزهر ومزمار
وزانه من بنى العباد رشاً بالجيد والمقتلن سحار

قد ركبت كفه مشعشة إريقها في الكأس هدار
يلع فيها من كل ناحية كوكب نوره إليك نظار
فظلت في يوم لذة عجب وافي به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار .

١ - ففي هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفي قطعة ابن الرومي
زيادة وصف القينة التي تغنى في مجلس الراح .

٢ - وصف ابن الرومي الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ - شبه ابن الرومي نور الراح في الكأس ، بالشهاب في ظلام الليل ،
أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس
يأخذ من نورها ويمتار .

٤ - وصف ابن الرومي الراح بأنها أصفى من الماء والطف من الهواء ،
ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ - ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومي .

٦ - وابن الرومي في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات
ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ، لا يعتمد لمزج تلك الأصباغ
بعضها ببعض ، بل يزجها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ - وابن الرومي يفوته أحيانا ما هو أبلغ في الوصف . وأروع في
أداء الغرض . من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز . كما رأينا في وصف ابن
الرومي للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وابن المعتز يتفوق على ابن الرومي تفوقا ظاهرا حين يصف مظاهر
الترف والملوكية في حياته . . ويروى أن لأمثا لام ابن الرومي ، وقال له :
لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تشدني شيئا من
قوله ، الذي استعجزتني عن مثله ؟ فأشده قوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال زدني ، فأثقلته قوله في الأذريون (وهو زهر أصفر في
وسطه نخل أسود وليس بعطيب الرائحة) :

كان آذريونها والشمس فيها كالية
مبداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكاف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون
بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت
ما أعرف ، أين يقع قولي من الناس ، هل لأحد قط مثل قولي في
قوس الخمام :

يطرزا قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقولي في صانع الرقاق :

ما أنس لأنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللحم بالبحر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة المساء يلتقي فيه بالحجر
وقولك في قالي الزلاية :

رأيت سحرا يقلى زلاية في رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبايبكا من الذهب

نقد لشعر ابن المعتز :

أولا : يأخذ بعض الكتاب على ابن المعتز أنه لا يزيد في صورته الفنية
على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر في تصويره عن خلجات
نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الهلال بزورق من فضة أثقلته حمولة من

عبر ، لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ومع ذلك فلم يحسن في نقل نسخة تامة الشبه بالحلال ، ويكفي أن تتصور الهلال في خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك تصويره للهلال بمنجل الفضة الذي يحصد من زهر الدجى نرجسا ، ففضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا في الشكل الخارجى ولا صلة بينهما في الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة ، ثم يجعله يحصد النرجس ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر نابتا في الدجى ، وليس وراء ذلك كله شيء من العاطفة والإحساس أو إدراك شيء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا نقد لا يقوم على أساس ، ويتلخص فيما يلي :

١ - أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير .

٢ - أن التشبيه عند ابن المعتز فن غالص ولكن لا حياة فيه .

٣ - أنه في تشبيهه بعيد الفكرة ، بعيد عن الوضوح .

١ - وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا تاما سفسطة . ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبهه هوجو الشاعر الفرنسى الهلال بمنجل من ذهب راح أعلام الأدب الفرنسى ، فكيف يراعون لو كانوا يعلمون بما أتى به ابن المعتز .

٢ - وردنا على الثانى هو أن فن ابن المعتز في التشبيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يساير الفن الخالص ، لثلاث بعد الصور التى يرسمها عن حقائقها المرسومة ، وأى ضمير على الفنان في ذلك ، وهل اتفق النقاد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخالص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده

مهما سار في طريقه بعيدا عن العاطفة ، فهو وحده مظاهر يستثير
العاطفة والوجدان .

٣ - وردى على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء في الأدب ،
لا تزال محل بحث النقاد الآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين
كان ينادى بالوضوح والإفهام ، وبأن البليغ من الكلام ما كان معناه إلى
قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يجتهد المتكلم في
تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانتها من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون
الابانة ، ولم ير أن خير الكلام العامى المرذول . والقاضي الجرجاني لم
يحاسب المتنبي في وساطته على عمقه في التفكير والتصوير ، لأن ذلك سمة
عامة في شعر المحدثين ، وعبد القاهر في أسرارهم يقدم الغموض إلى ما سببه
التعقيد في الأداء فيرده ، وإلى ما سببه الدقة في المعنى فيشيد به ، ويرى أن
المعاني الشريفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، وردتال إلى ساق ، ورأى
بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض في فن المتنبي هو سر عبقريته
الشاعرة ، التي ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

ثانيا : ومن ردىء الشعر قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر على شمس من الناس

فالجمع بين الليل والناس ردىء ، وقد وقع هنا باردا ، كما يقول
أبو هلال (١) :

ثالثا : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله في وصف كتاب قد
شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

لأنه مدح الكتاب يجعل سطورَه شوكا ، وإن كان لاحظ أشبه التمام
في صورته ، لكنه بالذم أشبه (١) .
ويمكن أن يقال إن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل في الشبه دون ماسواه .

نماذج لشعر ابن المعتز

١ - من شعره في الغزل :

قف خليلي نسأل لشرة (٢) دارا أو محلا منها خلاء قفارا
ألبستني سقما أقام وسارت واستجابت قلبي إليها فطارا
لي حبيب مكذب بالأماني جعل الدهر موعدا وانتظارا
أيها الركب بلغوها سلامي واتقوا أخذ طرفها السحارا

٢ - وله في وصف الخمر .

يامن يفندني في اللهو والطرب دع ماتراه وخذ رأبي فحسبك بي
أفي المدامة تلحاني وتعذلي لقد جذبت جوحا غير منجذب
وقد يباكرني الساقى وأشربها راحا تريح من الأحزان والكرب
ما زال يقبض روح الدين مبرله (٣) حتى تغلغل سلك الدر في الثقب
وأمطر الكأس ماء من أبارقه وأنبت الدر في أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا هجبا نورا من الماء في نار من العنب
لم يبق فيها البلا شيئا سوى شبح يقيمه الظن بين الصدق والكذب

٣ - وقال في الفخر :

أيها السائل عن الحسب الأوطأ يب ، ما فوته الخلق مزيد

(١) طراز المجالس

(٢) اسم محبوبة كان يتغزل بها الشاعر ، ويتلاعب باسمها كثيرا

فينطق به : شر ، وشريرة

(٣) المبرل المثقب الذي يثقب به ختم العن ، والمصفاة أيضا

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربى فماذا تريد ؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته آيات ليل سود
وملكنا رق الإمامة ميرا نا ، فن ذا عنا بفخر يجيد ؟

ع - وله كذلك في الفخر والشكوى :

خليلي إن الدهر ماتريانه نصبرا، وإلا أى شيء سوى الهبر ؟
سألتك يا الله ما تعلماني ولا نكتنا شيئا فعندك خبري
أرفع نيران القرى لعفانها

وأضرب يوم الروع في ثغرة النحر ؟
وأسال نيلا لايجاد بمنله فيفتحه بشري ويختمه عذري ؟
ويارب يوم لا يزول ظلامه مددت إلى المظلوم فيه يد النهر
فسبحان ربى ما القومى أرى لهم كوامن اضغان عقاربها تسرى
إذا ما اجتمعنا في الندى تضاملوا

كما خفيت مرضى الكواكب في الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى
وأعوان دهرى إن تظلمت من دهرى

النثر الفني في العصر العباسي الأول

نهض النثر الفني في هذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك في عصر من العصور ، فقد رقت الأساليب ، وعذبت الألفاظ ، وعمقت المعاني ، وسمت الأخيلة ، وتعددت الأغراض ، واتسقت الأفكار . وذلك كله بما تهبأ للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد في صور الحياة ، ومظاهر العيش ، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف^(١) الأجنبية .

وقد كان ابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي ، وقد أسهم مع عبد الحميد السكاتب في دعم كيان هذا النثر ، وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع جانباً من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية ، ومنهم : يعقوب ابن داود وزير المهدي ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والهادي والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، ومسهل بن هرون^(٢) ، ويحيى بن برمك ، ثم ابنه : جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٨٧ هـ) وأخوه الفضل ، والحسن ابن مسهل^(٣) ، وأخوه الفضل^(٤) ، وأحمد بن يوسف^(٥) ٢١٢ م هـ ، وعمر

(١) راجع بلاغة بني العباس في البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٢٦٦ - ٢٨٧

ط الخانجي) .

(٢) راجع : ٥٥ : ١ البيان ، ٢٨٢ : ٢ زهر ، ٢٦٠ : ٣ زهر الآداب أيضاً .

(٣) يشيد به الجاحظ (١ : ٨٤ البيان) ، وله كلة يعرف بها أنواع الآداب

١٩٥ : ١ زهر .

(٤) تهبأه يحيى البرمكي وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشاد المصري

ببلاغته (١٦ - ١٩ : ٢ زهر) .

(٥) له ترجمة في الأوراق قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكان عالي =

ابن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابي م ٢٢٠ هـ (١) ، ومحمد بن يزيد وزير المأمون (٢) .

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفنى منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطنن فيما سواها مما شكاه منه النقاد (٣) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : «ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتب يزيد بن الوليد إلى مروان ، أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ ، لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبتدىء ويحذر وينذر ، (٤) . والإطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التاريخ ، يقول ابن الأثير : «والعجم يفضلون العرب في الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتابا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص

= الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر) ، وكان ممن نبأوا بالكتابة (١١ ج ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح الكتابة في التهانى بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعاني) .

(١) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٢) راجع ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٣) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : «والناشئ من الكتاب إذا وطئ مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفي رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٤) راجع مقدمة أدب الكاتب

وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١) ، ولم يحفل الكتاب في أوائل العصر العباسي الثاني بالبديع ، والتأنيق الكثير في الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ ، (٢) ، كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣) .

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ ، واقتدى به كتاب عصره ، كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابن وهب وسعيد ابن حميد وأحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر الأديب المشهور . وآخر من تأثر بالجاحظ هو التوحيدى (المتوفى عام ٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) ، وقد ذاع في النثر في هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهمك والسخرية ، والرسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوقيع ،

(١) ج ٤ المثل السائر ، وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة الخنيس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ - ابن طيفور مخطوط) .
(٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية ، ٢٠٩ ج ٢ زهر .
(٣) راجع ١٩٤ إيجاز القرآن .

والمقامة ، والأدب الوصفي ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ؛ وسوى ذلك من فنون النثر الأدبي في هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجياحظ ، وأدب الكاتب ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على أيدي الجياحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبي قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته في هذا العصر الحافل .

واسوف سنتحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان النثر في هذا العصر ، مبينين العوامل التي أثرت فيه ، والظواهر التي جدت عليه .

(١) الخطابة في العصر العباسي الأول

صور من الخطابة :

١ - خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ،
جهنم يصلونها وبئس القرار ، فكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان ،
يتسكعون بكم في الظلم ، ويتهورون بكم في مداحض الزلق ، يطأون به حرم
الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماءكم غداً ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا
فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » : إذا يقول الله عز وجل : « لكل ضعف
ولكن لا تعلمون » .

أما أمير المؤمنين فقد انتدب بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم
الإقالة ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبجلبه على جهلكم . فليفرخ روعكم^(١)
ولتطمئن بكم داركم ، ولتعظكم مصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خاوية
بما ظلموا » .

٢ - وخطب سليمان بن علي عم أبي العباس ، فقال :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون
إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » ، قضاء مبرم ، وقول فصل ، وما هو بالهزل .
الحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين
اتخذوا الكعبة غرضاً^(٢) ، والقيء إرثاً ، والدين هزواً ، وجعلوا القرآن

(١) يقال أفرخ روعه : أى خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ،
ومعنى الروع القلب ، أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف .
(٢) إشارة الى ما نال الكعبة من نبي أمية من هدم وتدمير في فتنه الزبير .

عضين^(١)، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأين ترى من بثر معطلة وقصر مشيد^(٢) ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب ، واضطهدوا العترة ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً .

٣ - وخطب أبو جعفر المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال :

«أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة : فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده ، وفلمات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه .

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص ، أجزرناه خبيء هذا الغمد ، وإن أبامسلم بايعنا وبابيع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكس بنا فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه .

٤ - ومن خطبة للمنصور :

يا عباد الله لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لو لا يد خاطئة ،

(١) العضة . الفرقة ، وجمعها عضون ، والعضة « بالهاء » الكذب وجمعه عضون أيضاً . فعنى جعلوا للقرآن عضين ، جعلوه أجزاء ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال آخرون هو سحر ، وقال غيرهم كهانة . وقيل جعلوه كذباً .

(٢) المشيد : المظلي بالشيء وهو الجص ، والمشيد « كسكرم » المطول

وظلم ظالم ، لمشييت بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر منى لأنيته حتى أدفعه إليه (١) .

٥ - ومن خطبة للسفاح في الكوفة حين بويع بالخلافة :

يا أهل الكوفة ، أتم محل محبتنا ؛ ومنزل مودتنا ، أتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأناكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا (٢) .

٦ - خطبة للمأمون :

خطب المأمون وقد سلم الناس عليه بالخلافة حين بلغه بخراسان قتل أخيه ، إذ أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

أيها الناس إنى جعلت لله نفسى ، إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا إلا تحله حدوده ، وتسفك فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثانا ولا نحلة (٣) تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضائى ، إلا ما كان فى الله وله ، جعلت كله لله عمدا مؤكدا ، وميثاقا مشددا .

إنى أفى رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير (٤) مستأهلا ، وللتنكال (٥) ،

(١) ٣ : ٢٣ جمهرة خطب العرب

(٢) ٢ : ٢١٣ شرح ابن أبى الحديد

(٣) نحلة أعطاه والاسم النحلة

(٤) الغير : الأحداث

(٥) التنكال : العقاب

معرضاً وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته^(١) .

وهذه الخطبة في مناسبة معروفة وموقف رهيب ، إذ خطب بها المأمون الناس لما بلغه قتل أخيه الخليفة ، وقد أقبل الناس عليه يباعدونه بالخلافة ، وفيها يعلن المأمون سياسته نحو رعيته ، وهي أنه سوف يلتزم ما ألزمه الله به في معاملة الشعب ، ويعلم احترامه للدماء والأموال ، وأنه لن يحكم يهوداً في رضا ولا غضب ، وأنه يلزم نفسه العمل بما ألزمه به الله عز وجل ، وينبغي بعهدته مع الله رغبة في زيادة نعمته ، ودفعاً لحسابه ومسألته . . ويؤكد المأمون العهد وأنه لن يغير أو يبدل شيئاً منه وإلا كان للخطوب وللعقاب مستحقاً ، ثم يتعوذ بسخط الله وبرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يباعد بينه وبين معصيته . . وأسلوب الرسالة فيه إيجاز شديد ، وتشتمل على حكم عالية ، مع البلاغة النادرة والروعة الفاتكة ، مما يدل على علو منزلة المأمون في البلاغة ، وثبات قدمه في الفصاحة .

ه - خطبة داود بن علي على منبر الكوفة :

كان داود بن علي بن عبد الله بن عباس خطيب بني العباس وأحد مؤسسي دولتهم ، نشأ هو وإخوته - وكانوا اثنين وعشرين رجلاً - في قرية الحميمة من أعمال عمان^(٢) ، وكان الوليد بن عبد الملك أجلى علي بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه ؛ وخوفاً من وثوبه إلى الملك والخلافة .

وأخذ هو وإخوته عليهم وأدبهم عن أبيهم علي حبر قریش وابن حبرها

(١) ١١٩ و ١٢٠ الجزء الثالث من جهرة خطب العرب لأحمد صفوت

ط ١٩٣٣

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية وهي الآن مقر إمارة شرق الأردن

وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لخم وجذام وتوخر غسان وقيس فانطبعت فيهم صفات البسود من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبهم صفات الحضر من الانغاس في الترف والملاذات والعكوف على الملاهي .

وكان دارد أحد النابغين من إخوته في هذه الصفات ويروى عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم في وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه في الدولة . ولأه أبو العباس - عقب بيعته بالكوفة - ولاية الكوفة وسوادها ، ثم ولاية إمارة الحاج في هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليامة ، فقتل من ظفر بهم من بني أمية في مكة والمدينة في هذا العام ١٣٢ هـ - وهو أول موسم ملكه بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد ، ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة ، فتوفى بها بعد شهرين من قدومه إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ .

ولداود خطبة بليغة خطبها يوم بيعة أبي العباس السفاح على منبر الكوفة ، وهي . والحمد لله ، شكراً شاكراً إنا والله ماخرجنا لتحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم نهراً ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن أرخي له من خطابه حتى عثر في فضل زمامه ؟ فالآن (١) حيث أخذ القوس باريها وعادت القوس إلى النزعة (٢) ، ورجع الملك في نصابه في أهل بيت النبوة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوَجع لكم ونحن في فرشنا) ، أمن الأسود والأحر ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة لعماس ، لا ورب هذه البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لانهبج منكم أحداً .

(١) ظرف لأمن الأسود .

(٢) جمع نازع وهو الرامي يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

وهذه الخطبة الموجزة البليغة الرائعة تتضمن كل ما يمكن أن يقوله خطيب في هذا المقام ، وكل ما كان يجب أن يقوله هذا الثائر العظيم في هذه المناسبة .

وقد اشتملت على حمد الله وشكره على هذا النصر العظيم ، وعلى نفي أن يكون العباسيون قد قاموا بثورتهم لغرض شخصي ، من حب السيطرة أو حب الدنيا ؛ وعلى بيان مثالب الأمويين ومساوتهم في الحكم . كما تضمنت التصريح بعودة الخلافة إلى أهلها وأصحابها من آل النبي الذين خرجوا لينصروا للشعب الإسلامي الثائر ؛ ثم أمن داود بن علي الناس ، اللهم إلا الأمويين خصوم العباسيين والمطاردين منهم بعد أن دالت الدولة لهم ، وأخذوا منهم مقاليد الخلافة ، وزعامة الإسلام .

وأسلوب الخطبة يمتاز بالجزالة والقوة والبلاغة ، وبالإيجاز ، مع ما فيها أحيانا من سجع مطبوع . ولا شك أن هذه الخطبة تمثل الملسكات العربية السليمة في هذا العصر .

٦ - ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه فقال :
« أي بني ، إني مؤد حق الله في تأديبك ، فأد إلى حق الله في الاستماع مني ، أي بني . كف الأذى ، وارضض البذا (١) واستغن عن الكلام بطول الفسك في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشياً ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تنجي عليك . »

(١) البذاء : السفه والالغاش في المنطق .

٧ - وخطب المأمون خطبة الجمعة فكان مما قال :

« أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وتركوا عن الدنيا ، فقد جد بكم (١) ، واستعدوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا كقوم صبح فيهم فانتبهوا ، وعلبوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجذيرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجذيرة سرعة الأوبة ، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة . »

٨ - وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تهباً لقتال الخوارج فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، والداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين . فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا العصا (٢) ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ،

(١) الجدل في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجدك لا تفعل ، بكسر الجيم استخلاف بالحقيقة ، وبالفتح استخلاف بالبخت ، وإذا قيل « وجدك لا تفعل » فتح لاغير .

(٢) أصل العصا الاجتماع والائتلاف وشقوا العصا أى شقوا الاجتماع والائتلاف وفرقوا الجماعة ، وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فإذا فرقهما الطريق شقت العصا التي معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ويضرب لكل فرقة .

فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجأون ، وعدتكم التى بها تستظمرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلسم الله عليه ، والجنة الحصينة ، التى أمركم الله بلباسها ، غصوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائرهم فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، أيدكم الله بعز الصبر ، ووليكم بالحياطة والنصر ، .

٩ - حوار بين المأمون وإبراهيم بن المهدي :

لما ظفر المأمون بعمة إبراهيم بن المهدي (١) أمر بإدخاله عليه ، فجىء به يحجل فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلاك يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ، ولى النار محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
نخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعلى من الكرام فكنته

(١) لما عقد المأمون ولاية العهد لعلى الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلصوه من الخلافة وبايعوا بها عمه إبراهيم بن المهدي فأسرع إليه المأمون فهرب وتوارى ولكن المأمون ظفر به .

فأطرق المأمون ملياً ثم رفع رأسه فقال : إني سأورث أبا إسحق والعباس في قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأنا له يا حسان ونحن نستأمره فيه ؛ فإن غير فائقه يغير ما به ، فقال : أما أن يكونا قد نصحك في عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله . ثم استعبر باكباً ، فقال له المأمون : ما يبكيك ، قال : جزلاً ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإناعام ، ثم قال يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمى فإلم أمير المؤمنين وتفعله يبلغاني عفوه ، ولي بعدهما شفاعة الإفراج بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعتفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا تريب عليك يخفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تنصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه .

١٠ - دخل معن بن زائدة الشيباني على المنصور وقد أسن فقارب في خطوه فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يامعن . قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإني لك لجلد . قال على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال هي لك يا أمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة بني أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

١١ - ومن أفعال الوعاظ ما يروى أن ابن السماك دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غداً واقف بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، فبكي الرشيد حتى اخضلت لحيته ، فأقبل الفضل بن الربيع

على ابن السماك فقال: سبحان الله ا وهل يتخالج أحد شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

تطور الخطابة في هذا العصر

أسباب رقيها :

كان قيام خلافة بني العباس انقلاباً خطيراً من المشاعر ؛ وأثار الخواطر وأهاج النفوس ، وقلب الأوضاع ، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة ، واستدعى تأليف الجماعات ، وقيام الكثير من الدعوات ، وحض الناس على التشيع لبني هاشم ، وإعلان السخط والإنكار على بني أمية ، وسياستهم الجائرة ، وما اقترفوه من سيئات ، وارتكبوه من منكرات .

ولاشك أن حدثاً جليلاً مثل هذا الحدث ، لابد أن يستعان فيه بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحسيس المتشيعين ، وتأجيج نار البغض على الدولة الغابرة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظاهرة .

وكان من شأن بني العباس أن يقيموا الدعاة ، ويبثوا الخطباء في كل مكان يعلنون بالحجة الساطعة حقهم في خلافة المسلمين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يعنوا عنساية بالغة بالمواسم الدينية ، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون في مواكب رائعة وجموع حاشدة ، ويسيرون بين الصفوف المرصوفة ، حتى يصلوا إلى المسجد ، ثم يدخلون في خشوع ووقار

وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمنون الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بلبغ العظمت ، ورائع الآيات ، حرصا منهم على الظهور بمظهر الإمامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذى تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم .

لذلك كان للخطابة فى عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، وشأن عظيم .

وزاد من نهضتها ورقبها فى مطالع هذا العصر ما كان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر العي واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد فى مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ؛ يروى (١) أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخزومة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليسكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتميجه وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لسكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ؛ وإياك والتوهر ، فإن التوهر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقم ما أن تصونها

(١) ١٢٦ : ١ البيان والتبيين للجاحظ - الطبعة الثانية - نشر التجارية .

شما يفسدهما ويهجنهما ، وعمما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظهما - ارمها وترتمن نفسك بملايستهما وقضاء حقهما .. الخ .

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون في البادية ، حيث الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحججة وشدة العارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستمناع والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .

فلا عجب إذن أن تهض الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون .

ولقد كان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام محفوظ ، فقد استدعى الأصمعي لتأديب ولده ، وقال له : أريد أن يصلى بالناس في يوم جمعة ، فاختر له خطبة ، وحفظه إياه ، وحفظه عشرا ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب به الرشيد (١) .

ثم وكل الخلفاء والأمراء والولاة الخطابة في الناس ، إلى خطباء مختارين ، وعهدوا بذلك إليهم ، ماعدا المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) ، فقد كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ، ويؤمهم (٢) ، وفى عام ٢٧٩ هـ صلى المعتضد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يسمع منه خطبة (٣) ، وأصبح الخليفة لا يخطب إلا في الأعياد (٤) ، ولما عزم المطيع لله

(١) ٢٠ و ٢١ : ٢ الفرج بعد الشدة .

(٢) ٨ : ٢ المسعودى .

(٣) ٩٧ : ٢ تاريخ أبي المحاسن .

(٤) كان الخلفاء الفاطميون يخطبون في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء (٢٧٧ و ٢٨١ : ٢ الخطاط للمقرئى) ، وكان الحاكم يخطب في جامع عمرو وجمعة زنى جامع ابن طولون جمعة وفى الأزهر جمعة ويستريح جمعة ، فلما بنى الجامع الحاكمى انتقلت الخطبة إليه (١٣٨ : ١ حسن المحاضرة) .

(٢٣٤ - ٥٣٦٢) على الصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى في الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختر له دعاء (١) ، وخطب الطائع بعده في عيد الأضحى (٥٣٦٣) خطبة قصيرة (٢) . وفي البصرة كان الخطيب يخطب كل صباح (٣) .

وفي آخر العصر العباسي الأول ضعفت الخطابة بزوال أسبابها ، وأجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة في الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صار في المكتابة وقد تنوعت أعمالها وأغراضها غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ، ولم يبق لها إلا مظهرها الديني ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ، ويخطبون الناس ، وآخر خليفة خطب على المنبر هو الراضي (٣١٢ - ٥٣٢٩) (٤) .

أنواع الخطابة :

والخطابة في هذا العصر تنوع إلى خطابة سياسية ، وخطابة اجتماعية ، وخطابة دينية ، وخطابة أدبية .

ومن السياسية خطب زعماء البيت العباسي ، ومن الخطب الاجتماعية ما كان يلقي في مختلف المناسبات القومية والاجتماعية ، ومن الخطابة الدينية خطب الوعظ والقصص وخلافهما . ومن الخطابة الأدبية الخطابة في مختلف المقامات الأدبية التي كانت تحدث في هذا العصر ، والتي أدت إلى نشأة فن المقامات .

(١) ٣٤٩ : ٢ معجم الأدبا، لياقوت .

(٢) ١٠٦ ب المنتظم - مخطوط .

(٣) ١٠٣ : ٢ الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة .

(٤) راجع ٢١٣ الأدب العربي للزيات ، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسي لمحمود

مصطفى ، ١٠٤ وما بعدها العصر العباسي للسباعي يموي .

دواعيها وموضوعاتها:

وقد تعددت دواعي الخطابة في عصر نفوذ الخلفاء وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها .

١ — فقد كانت الحاجة ماسة إليها في تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بني العباس لها ، أو في مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشجيع على بني أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوا من مساويء ، وفي إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحسيس الجنود ، والتبشير بفتح ، والتهنئة بنصر ونحو ذلك .

٢ — كما اتخذوها أداة للوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها ، وذلك في المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجعلها القصاص في قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين ومن أشهر القصاص موسى ابن سيار الإسوارى ، وأبو علي الإسوارى ، وكان يقص في فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم في قصصه ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعده أبو العباس الخضرى ولم يدرك في القصص مثله ؛ وصالح المري ، وكان صحيح الكلام ، رقيق الجاس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه . وهذا ليس قاصاً ، هذا نذير .

٣ — كما كانت لسان الوفود الذين يفسدون على دار الخلافة ، تأييداً لسياسة ؛ أو لإظهار المحبة ، أو طلباً للحاجة أو شكاية من مظالمه .

٤ — وبما يقرب من الخطابة في روعة أسلوبها ، وشدة تأثيرها ، وسمو بيانها ، الحوار الذي كان يدور بين البلغاء والفصحاء ، من خاصة القوم ، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار .

خصائصها :

امتازت الخطابة في هذا العصر بجمال أسلوبها ، ونخامة ألفاظها ،
وبعدها عن الحوشية والغرابة ، وعن الابتذال والإسفاف .

كما تمتاز بقوة تأثيرها ، وروعة تصويرها ، لاصطبأها بصيغة الدين
وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم واعتمادها على الكثير من آياته والاقتراب
من عظاته والاستشهاد بكلام الرسول . ويكثر فيها أسلوب الحجاج ،
ومعاني الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد ، والامتنان بالنعمة ، والشكر
على كريم الهمة ، وجيليل المودة .

على أن الحضارة التي غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة في المعاني ووفرة
في المادة وروعة في الأساليب ، ودماثة في الألفاظ ، مما ضاعف تأثيرها وزاد
في بهائها ورونقها .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ في هذا العصر أعلام من الخطباء المصانع وفحول من البلغاء
المقاول ، ممن نشأوا نشأة عربية قوية ؛ وورثوا ملكات البلاغة والخطابة
من أصولهم العربية ، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ .

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع ، والشأو البعيد ، من
أمثال بني العباس وبني هاشم ، وبني عبدالمطلب ، وعظماء القواد من العرب ،
ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار
والقصص والأسفار واللغة والأدب والنقد .. ومن ولاية الدولة وخصوصها ،
من خوارج وعلويين وشعوبيين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمنونهم في الصلاة ، واستمر ذلك بعد

هذا العصر إلى الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ ، والذي كان آخر خليفة عباسى
خطب على المنبر . ويصف البحرى فى رائيته بليغة له خروج المتوكل
اصلاة عيد الفطر وإمامته للناس ؛ وخطبته فيهم ، فيقول فيما يقول :

أيدت من فصل الخطاب بحكمة تذبى عن الحق المنير وتخبر
ووقفت فى برد النبي مذكراً . بالله تنذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى
والرشيد والأمين والمأمون ،

ومن الأمراء : داود بن على المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله
وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ؛ ومنهم : سليمان بن على ،
وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب .. ممن يصفهم الجاحظ فى كتابه
« البيان والتبيين » ، فيقول : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن
لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ،
وبرجال الدعوة ، مع للبيان العجيب ، والغور البعيد ؛ والنفوس الشريفة ،
والأفكار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا
يجلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك ، (١) .

ويقول الجاحظ فى داود بن على : « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالاً
واقضاباً للقول ، ويقال إنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير
معروف محفوظ ، (٢) .

ومن خطباء العلويين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن
وأبناؤه : محمد وإبراهيم وموسى .

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية .

(١) البيان والتبيين الأول ص ٢٦٥

(٢) ٢٦٣ : ١ البيان والتبيين .

ومن الوزراء: الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين وزير المأمون
وصهره، وجعفر البرمكي .

ومن الخطباء: سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون^(١)، وطاهر
ابن الحسين، وعبد الله بن طاهر - ومنهم: العتابي الذي يقول فيه الجاحظ:
« ومن الخطباء الشعراء ، بمن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل
الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمر والعتابي ، ومنهم : خالد بن صفوان ،
وشيب بن شيبه المتوفى عام ١٧٠ هـ الذي يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

وغيرهم من غول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والقصاحة .

وقد ظهرت في العصر العباسي الأول طبقة من القصاصين الذين كانوا
يعتمدون على الخطابة في قصصهم ، وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين
أسماء طائفة كبيرة منهم ؛ كما ظهرت طبقات كثيرة من الوعاظ في هذا العصر ،
ومن بينهم : أبو زكريا الرازي (٢٥٨ هـ)^(٢) ، وعلى^(٣) بن محمد المصري
(المتوفى ٢٢٨ هـ)^(٤) .

وكان كثير من الصوفية من الخطباء البارعين ، والبلغاء المفلحين . .

(١) كلام الجاحظ عليه في البيان والتبيين ٥٩ : ١ .
(٢) زبدة الفكر ١٩ ب - مخطوط . (٣) ١٨١ المنتظم - مخطوط .
(٤) ظهر في العصر العباسي الثاني من الوعاظ : ميمونة البغدادية ٣٦٣ هـ
(٩٣ تاريخ أبي الحسن) ، وأبو الحسين بن سمعون ٣٠٠ - ٣٨٧ هـ (٣١٩ : ٢
معجم الأدباء لياقوت) ثم محمد الشيرازي ٤٣٩ هـ (١ : ١١١ تاريخ بغداد) ، ومن
الخطباء ظهر في العصر الثاني : ابن نباته (المتوفى عام ٣٧٤ هـ : ٩٨٤ م) ، وعبد
الواحد بن عبد الكريم (٤٩٤ هـ) بنيسابور (٢٨٤ : ٣ طبقات الشافعية للسبكي) .

(٢) الكتابة في هذا العصر

صور للكتابة في هذا العصر :

١ - كتب عبد الله بن المقفع في وصف أحد إخوانه .

إني مخبرك عن صاحب لي كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يتشمى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأشر عند نعمة . ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائلين ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوة ولا يشارك في مراء . ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعه إلا إلى من يرجو عنده البره ؛ ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشمى . وكان لا ينقم على الولي ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقمتها - ولن تطيق - ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٢ - وكتب يحيى بن خالد البرمكي وهو في الحبس^(١) إلى هرون الرشيد:

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأمواها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في ملسكه ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها =

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ؛ وخليفة رب العالمين
من عبد أسلمته (١) ذنوبه ، وأوبقته (٢) عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه
صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، فخل في الضيق بعد السعة ،
وعالج البؤس بعد الدعة ، واقترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد
الموجود . ساعته شهر ، وليلته دهر ، فقد عاين الموت ، وشارف القوت ،
جوعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على ما فات من قربك ، لاعلى شيء
من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا في يدي عارية
والعارية مردودة .

أما ما أصبت به من ولدي فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره ،
ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سني ، وضعف قوتي ، وارحم شيبتي ، وهب
لي رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فمن مثل الزلل ومن مثلك الإقالة ،
وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى عني ، فإذا رضيت
رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى ما لا يتعاضدك بعده
ذنوب أن تغفره ، مد الله لي في عمرك وجعل يومى قبل يومك .

فلم يكن له جواب من الرشيد .

٣ - ومن رسالة لسهل بن هارون وجه بها إلى محمد بن سماعة القاضي :

= وصورتها ، فهزم على نكبتهم . حتى اتهم فرصة رجوعه معهم من الحج سنة
١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى ليلاً في طريقه . وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .
(١) أسلمته : خذلته ، فأسقطته من علياء مرتبته . أو أسلمته إلى السجن
والعذاب .

(٢) أوبقته : أهلكته .

إني احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لحصال الخير ، ذى عفة
ونزاهة طعنة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين في
رأيه ، ولا بمظنون في حسبه ، إن أوثمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد
مهما من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ، ولسان تقعه الرزاة ويسكته
الحلم ، تكفيه اللحظة وترشده السكينة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكماها ،
وقام في أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع
العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان
غده ، يكاد يسترى قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه . وقد آثر ترك
بطلبه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك (١) .

وهذه الرسالة تشبه رسالة ابن المقفع السابقة في وصف أحد إخوانه .

٤ - رسالة عمرو بن مسعدة :

كتب إلى المأمون وقد تأخرت أرزاق الجند :

كناي إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده في الانقياد
والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت
لذلك أحوالهم (٢) .

وكان عمرو بن مسعدة من بلغاء الكتاب في العصر العباسى الأول ،
وكان كاتب التوقيعات بين يدي جعفر البرمكى وزير الرشيد ، وتوفى عام
٥٢١٧ هـ ، وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزاً (٣) .

(١) ٢٤٩ : الأمل .

(٢) ٢٣٤ أدب الكتاب الصولى .

(٣) ٨١ : ٦ معجم الأدباء ، ١ : ٥٥٥ ابن خلكان ، ٥ : ٥٠٢ الوافى
بالوفيات - قسم ثالث مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومجلة المجمع العلمى =

وكانت بلاغة عمرو بن مسعدة مضرب الأمثال ، ولما وقف أحمد بن يوسف على هذه الرسالة الموجزة البليغة الرائعة أعجب ببلاغتها ، وقال :
لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه
سلطانه من الإكثار .

ومضمون الرسالة شكوى وطلب إلى الخليفة المأمون بإرسال مرتبات
الجنود المتأخرة ، ولخواها إخبار بحاجاتهم مع طي الطلب والشكوى . .
وهذا من غير شك مما جعل لها أهمية في نظر بلغاء العصر العباسي ، ويضم
إلى ذلك إيجازها الشديد البليغ الذي جعله أحمد بن يوسف من أسباب
بلاغة الرسالة .

وفي رأبي أن هذه الرسالة لا تستحق هذا الاهتمام وذلك التقدير ،
لأنها لا تثير فينا إحساسا . ولا تجعل الذوق يلتفت إليها ، وليس فيها في رأبي
قارئها الخاص ، بله العادي ، جديد ، وجملة « اختلت أحوالهم ، أشبه بالذم منه
بالممدح ، ولو قال بعد المقدمة : « على أحسن ما تكون عليه جنود يذبون عن
الخلافة ، ويتعرضون فوق ذلك لآلام الجوع والنصب ، ويقاسون الحرمان
من تأخر وصول أرزاقهم ، واختلال أحوالهم من أجل ذلك ، لكان
أروع وأبلغ من كلام ابن مسعدة السقيم ، مع اتحاد المضمونين ، وتوافق
الأسلوبين في أغلب التراكيب .

== العربي بدمشق من بحث الأستاذ محمد كرد علي ، ٣ : ٥٩ عصر المأمون ،
والحياة الأدبية في العصر العباسي .

فصل للجاحظ في الحسد (١)

الحسد - أبقاك الله - داء ينمك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداريه في عناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء . » وقال بعض الناس لجلسائه : « أى الناس أقل غفلة ، فقال بعضهم : « صاحب ليل ، إنما همه أن يصبح . » فقال : « إنه لسكذا ، وليس كذاك ، فقالوا له : « فاجبرنا بأقل الناس غفلة . » فقال : « الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها ، فلا يغفل أبداً . » ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع في الدين من النار في الحطب اليابس . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه . » قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً . »

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم . »

فنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الخلفاء ، يكمن في الصدر كمن النار في الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد - بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ورسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه - إلا استصغاره نعمة الله عنده ، وسخطه على سيده

(١) من رسالة الجاحظ في الحاسد والمحسود .

بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه - لكان عند ذرى العقول مرحوما ، وكان لديهم في القياس مظلوما . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصود . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات وأول معصية حدثت في الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه في خلقه ، واستكبر عليه فقال : « خلقتني من نار وخلقته من طين ، فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوه خلقه تشويهاً ، وموه على قلبه تمويهاً ، نسي به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشق وغوى . وأما في الأرض فابنا آدم حسداً أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق ، إذا ألقى الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد - إذا كان المحسود غنياً - أن يوبخه على المال ، فيقول : « جمعه حراماً ، ومنعه أيتاماً ، وألب عليه محابيح أقاربه ، فتركهم له خصماً ، وأعانهم في الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معروفاً ، وأظهروا في الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلاً . وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه : أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتبتها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمتها ، وقال إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود .

وإن كان المحسود عالماً قال: «مبتدع لرأيه لامتبع ، حاطب ليل ، ومبتغى نيل ، لا يدري ما حمل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الخيل . وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويحج ليثني عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ، ويظهر النسك ليودع المال بيته ، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكمنه بتخيره لو نه ، وتخويص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبي قبل نفاقه نسج وحده ، لجودة رأيه ، وبعد همته ونبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياضة ، وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه ، وتبين لهم عقله ، وفقد بينهم جهله ، ورأوه لذلك أهلاً لما أطاق له حملاً .

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ، ورأى «عبد الله» عز رسول الله ، شمخاً بأنفه ، فهدم إسلامه لحسده ، وأظهر نفاقه . وما صار منافقاً حتى صار حسوداً ، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً ، فحرق بعد اللب ، وجعل بعد العقل ، وتبوأ النار بعد الجنة . ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : «يارسول الله لا تلبه ، فإننا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لتتوجه .

ولو سلم للبخدول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمسكان ، ومن السؤدد في ارتفاع ، فوضعه الله لحسده ، وأظهر نفاقه . ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه	فاصفر من كثرة أحزانه
دعه فقد أشعل في جوفه	ماهاج فيه حر نيرانه
العيب أشهى عنده لذة	من لذة المال لخزانه
فارم على غاربه حبله	تسلم من كثرة بهتانه

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود، التي ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيلة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين، من أهم رسائله، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما، حتى ترى فيه رقة الألفاظ وسجاجة العبارة وجمال الأسلوب والزهد فى الصور العبانية، وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب والترادف، وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ، أصدق تمثيل، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك .

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود، يبين ضرر الحسد، وينفر منه، ويظهر خفاياه، ويكشف نفسية صاحبه كشفا، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عز طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

وقد ولد الجاحظ بالبصرة ١٦٠ هـ وكانت فى عنفوان الثورة العلمية والأدبية، فأخذ عن علمائها، وأدبائها، كالأصمى والأخفش والنظام المعتبرى الذى تخرج عليه فيما بعد، وكانت له مدرسة وتلاميذ صارت لهم وله من الشهرة وذبوع الصيت ما كاد ينسى الناس النظام على قوة جدله، وشدة عارضته، وخلافة منطقته وسحر بيانه، وكثرة جمعه للمسائل، وإحاطته بالعلوم، وليس يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادى التاريخ، وثروة ضخمة فى اللغة والأدب، ولأسلوبه فى الكتابة، ميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها، ونسبت إليه، منها :

أرلا : الإطناب الذى لا تحس فيه مللا ، ولا تشعر منه بسأم ، ولا تود معه أن ينقطع بك جبل الحديث ، لأنه يمزح جده بهزله ، ويستطرد إلى الملح والنوادر والطرف ، استجلا بالانشاط ، وإيقاظا للتفكير ، مستعينا بالترادف ، والاستقصاء للمعاني ، والإيفاء للموضوع .

ثانيا : الاهتمام باختيار الألفاظ ، وتنسيق الجمل ، وترابط الأسلوب : واعتماده على المنطق القوى ، والفكر السليم .

ثالثا : تقطيع الجمل إلى فقرات ، والنزاهة السجع حين يريد اقتياد العواطف وامتلاك زمام الوجدان .

وقد ظهرت هذه الخصائص والميزات فى أسلوبه فى هذا الفصل ظهورا واضحا ليس فيه خفاء .

والجاحظ صاحب باع طويل فى صناعة الكلام وأسلوب الكتابة ، كاد ينفذ به إلى القلوب ، ويخترق الأفتدة ، ويناجى العواطف ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلبه المصقول ، وبيانه القوى ، إلى خلجات النفوس ، وخفايا الضمائر ، وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، ما ساعده على الوصول إلى هدفه حين يرمى ، ولغاياته حين يقصد ، لا يستعصى عليه شامس ، ولا يتأبى عليه صعب .

٦ - وكتب أحمد بن يوسف يهنيء بمولود :

« أما بعد : فليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا ، أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقاك ، وعرفنى من جميل رأيك . فزادك الله خيرا ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سريا ، أجمل صورته ؛ وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سرورى بذلك ، وأكثر حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بارأ تقيا ، يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك ، .

وكتب في الذم :

« أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك . ولا مستودعاً أفل زكاء ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنه يحصل منك في حسب ذنى : ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه ، وفي وليه أن تكفر به . »

٧ - وكتب محمد بن عبد الملك الزييات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال:

« أما بعد فقد انتهت إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصير في عمالك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر بك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والإنذار . وعلى حسب ما أنلت من عظيم العشرة . يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام . »

٨ - وكتب الجاحظ إلى ابن الزييات يستعطفه وقد تنكر له وتلون عليه:

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ؛ وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ؛ ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسويين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وأن امرأ أوسى وأصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم أجتريء إلا لأن دوام
تغافلِكَ عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعمو المتتابع يؤمن من
المسكناة . ولذلك قال عبيدة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان
خير ألى منك أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغثنانى . فإن كنت لاتهب عقابى -
- أيدك الله - لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ،
وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحذوثة ،
وإلا فأت ما أنت أهله من العمودون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان
من جعلك تغفون المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى
من هفوته ذكر وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف بالشكر إلا لك والإناعم إلا منك ،
هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كوين صفحك
عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى
بك .. واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

٩ - وكتب عبد الله بن الماتز إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى ،

ويذكر خرابها :

كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ،
فشاهد اليأس فيها ينطق . وحبل الرجاء فيها يقهر ، فكأن عمرانها يطوى ،
وكان خرابها ينشر . وقد وكلت إلى الهجر نواحيها ، واستحثت باقيا إلى
فانها . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها
محو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام .
ليس له زاد في رحل ، ولا مرعى في رتع . فخالها تصف للعبون الشكوى ،
وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار
الملك ، تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم أردية السيوف ، وغلائل الحديد ،
كان رماحهم قرون الوهول ، ودرعهم زبد السيول . على خيل تأكل
الأرض بجوافرها ، وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت فى وجوهها غررا كأنها

صحائف البرق ، وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ، في جيش يتلقف الأعداء
أوائله ، ولم ينهض أو اخره ، وقد صب عليه وقار الصبر ، وهبت له روائح
النصر ، يصرفه ملك يملأ العين جمالا ، والقلوب جلالا . لا تخلف مخيلته ، ولا
تنقض مريرته ، ولا يخطيء بسهم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بمطايا
الدهو سفر الشباب ، قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ، ولا
يتشظى عصاه ، ولا تطنى جمرته ، في سن الشباب لم يجن مائماً ، وشيب ولم
يراهق هرمأ . قد فرش مهاد عدله ، وخفض جناح رحمته ، راجها بالدواقب
الظنون ، ساعياً على الحق يعمل به ، عارفاً بالله يقصد إليه ، مقرراً للحلم ويبدله ،
قادراً على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس في دهر غافل ، قد اطه أنت بهم
سيرة لينة الحواشى ، خشنة المرام ، تطير بها أجنحة السرور ، ويهب فيها
نسيم الجبور ، فالأطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تحب مطايا
الغير ، وتستقر وجوه الخدر . وما زال الدهر مليا بالنواب ، طارقاً
بالمجائب ، يؤمن يومه ، ويغدر غده .

على أنها - وإن جفت - معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ، كوكبها
يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وتراها مسك
أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مرى ، واللبقاع
دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء .
والهم إلى فرجة ، ولشكل سائلة قرار ، وبالله أستعين وهو المحمود على
كل حال :

غدت سر من را في العفاء فيالها قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شديهاً بجالها لما نسجتها من جنوب وشمال
إذا ما مرو منهم شكاً سوء حاله يقولون : لانهلك أسى وتجمال

١٠ - ولأحمد بن يوسف إلى المأمون :

داعى نذاك يا أمير المؤمنين ، ومنادى جدواك ، جمعا الوفود ببابك ،

يرجون نائلك المعهود ، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بخدمة ، وقد أجهف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعمشهم بسببه ، ويحقق حسن ظنهم بطوله ، فعل إن شاء الله تعالى (١) .

١١ - ولابن قتيبة يقدم كتابه (عيون الأخبار) :

وهذه عيون الأخبار ، نظمها لمغزل التأدب تبصرة ، ولاهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، ولملوك مستراحا من كد الجد والتعب ، وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكاه ، والخبر يمثله ، والسكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وهى لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وحلية الأدب ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف .

١٢ - ومن رسائل أبى اسحق الصولى على لسان المتوكل لاهل حمص الخازجين عليه ؛ وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود وعدل به من زيغ ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهم على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرها :

أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيدا ؛ فإن لم تغن أغنت عزائم

وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه :

، كتبت وقد بلغت المدية المحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدوى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفاً أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكف عند أذاتها . فصرت أضر على منها ، فكف الصديق عن نصرتى خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك ، .

(١) ١٦٩ : ٥ معجم الأدباء لياقوت - طبع القاهرة .

١٣ - وقال أبو يوسف في كتاب الخراج ، الذي كتبه للرشد :

وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ؛ يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح . أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به ، وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجبة انتهى غيره واتق وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجتروا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالي تعد بظلم وعسف ، وخيانة لك في رعيته ، واحتجان شيء من الفء ، أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيته ، أو تشركه في شيء من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته مجابة .

حالة الكتابة في هذا العصر

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من النثر الذي أدواته القلم وعماده التجويد والتهديب ، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التي تحدث في النفس ارتياحاً وإعجاباً ، وتبعث فيها نشوة وهزة ، وهو ما نسميه الكتابة الإنشائية أو الفنية أو الأدبية ، التي يتأتق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والعلماء ، ويحفظها ويتأدب بها الشداة في الأدب ، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها متعة للنفس ؛ وغذاء للروح .

أنواع الكتابة وموضوعاتها :

وللكتابة الفنية في هذا العصر ألوان عدة :

١ - فمنها الرسائل الإخوانية التي يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض في تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاقة أو عتاب ، وما إلى ذلك ، وهي أوسع ميداناً وأكثر افتتاناً ، وأعذب بياناً ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنازعتهم .

٢ - ومنها الرسائل الأدبية المطولة التي يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعن لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها في الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ، ونحو ذلك ؛ مما يتجلى في السير والأسمار والخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الخميس التي كان يكتبها البلغاء في هذا العصر ، لتقرأ في خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرساتل ابن المقفع ، وكرساتل الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والتربيع والتدوير والحاسد والمحسود ومناقب الترك .

فضلاً عن اصطناع الكتابة في فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التي كانت وفقاً على الشعر .

٣ - ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التي تصدر من ديوان الرسائل نوعيه (الخاتم والتوقيع) ، في شأن من شئون الدولة ؛ وكانت الكتابة في هذا الديوان بجلالها في الدراوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التأنق في الأسلوب والجمال في العبارة والبراعة في إظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة .

ونحن نعلم أن المدنية ازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً ، وأعمال الدولة اتسعت اتساعاً ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ،

ونفوذ الفرس في الدولة ، وسعة سلطان الخلافة في المشرق والمغرب ؛ فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التي تقوم بإنجاز الأعمال المتعددة ، وخصوصاً كل ديوان منها يعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام الكسروي في الإدارة وطبقوه في دولة الخلافة . . ومن الدواوين التي كانت موجودة : ديوان الخراج والنفقات ، وديوان الاطالم والشرطة ، وديوان الضياع والإقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعادن ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب . وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذي يقلد منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد في جيش الخلافة وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فإذا كان الوزير أثيراً لدى الخليفة ، موثقاً به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأي ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور . ووكل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمتصرف في شئون الحرب ، كالفضل بن سهل ، الذي وكل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل وحسن سياسته ؛ ولقبه الخليفة « ذا الرياستين » وكان له علم على سنان ذي شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أديباً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكا ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب في اختيار وزير : « إني التمسيت لأموري رجلاً جامعاً لحصال الخير ، ذا عفة في خلانقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أوتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ؛ يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتسكفيه اللحظة ، وتغنيه

اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ؛
إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بجرمان
غده ، يسترق قلوب الرجال بخلافة لسانه وحسن بيانه (١) .

والذين تسنموا هذا المنصب الخطير (٢) كانوا من صفوة الناس وأعلام
أدبا وخلقا وكفاية ودراية وذكاء وفهما : كأبي سلمة الخلال وزير السفاح ،
وأبي أيوب المورياني وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدي ،
ويحيى بن خالد البرهكي وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه
الحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وسوالم ، ممن كانوا درة في جبين الدهر ،
وغرة في وجه الخلافة ، وشجعوا العلوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة
ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر . يعينه على أعماله ، ولولة
الأقاليم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلا كان يكتب لوالي كرمان داود
ابن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتتاب ممن نبتوا من أصول
فارسية ، وكان الوزير قلما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ الكتاب .

(١) ٢١ الأحكام السلطانية .

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة في اشتقاق كلمة الوزارة على قولين :
أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ،
وهذا قول ابن قتيبة ، والثاني أنها من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الجبل الذي
يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة
والسلطان ويلتجى . إلى رأيه ، وهو قول أبي إسحاق الزجاج د ٢٢٩ : ١
وفيات الأعيان .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هي مأخوذة من
اللغة الفهلوية من كلمة ديشيرا ، ومعناها الأمر أو التقرير .
ولم يكن لقب الوزير موجوداً في الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل
الخلافة العباسية ، وكان يسمى قبل ذلك كاتباً ومشيراً .

وقد ألفت في أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة ، منها : أدب
الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولي ، وكتاب الكتاب لابن
درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى ، وكتاب الأحكام
السلطانية وسواها ، وألف القلقشندي المصري أخيراً كتابه الضخم «صبح
الأعشى في صناعة الإنشاء ، وحول ثقافة الكتاب وشخصيته يقول أبان
ابن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد
مستميجاً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون في حاشيته ، وقائماً بخدمته (١) :

أنا من بغية الأمير وكبر	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب	ناصر رائد على النصاح
شاعر مفلح أخف من الود	شمة إما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد	أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين لله	لم بقول منور الإفصاح
وظريف الحديث فى كل فن	وبصير بترهات الملاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد	لغدو دعيت أو لرواح
لست بالناسك المشمر ثويبه	ولا الماجن الخليع الوقاح

وهكذا اتسعت الدواوين باتساع الأعمال . وتنوعت بتنوع مطالب
الدولة ، بيد أن الكتابة - فيما عدا ديوان الرسائل - كانت لا تتجاوز ضبط
الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاية وتصريف
الأمور ، مما لا يخرج عن التسجيل فى الدفاتر ، والتعداد والإحصاء ، وليس

(١) يروى أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاها فلما دخل عليه أتاه
بكتاب فرمى به إليه وقال له : أجب عنه ، فأجاب أبان بما فى نفسه وأحسن .
فأمر له بألف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ،
لخسده أبو نواس فهجاه فأقصاه الفضل عنه .

في ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبي بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الإحاطة بها وفهمها .

فأما الكتابة في ديوان الرسائل فهي التي تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ، ولذلك تولاها فحول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحذاق الأدب ، المحيطنون بشتى الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلاً أعلى في الفصاحة والجمال وتمثيل العواطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير .

وقد كانت طبقات الأدباء في صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها: طبقة الكتّاب ، الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوياً (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم في نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية ، من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابها وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئتين العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقنون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخ لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي م سنة ٢٠٥ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها : إن بشرًا مرّ بإبراهيم بن جبلة ابن مخزومة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحاً

(١) ١٠٥ : البيان (٢) ٣٢٥ : ٣ (٣) ٢٤٠ : ١

واطوا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تعبيره وتمميته في أصول
البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى
هشام بن عبد الملك وعبد الحميد السكاتب أو الأبركا يقول الجاحظ (٢) ؛
وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل
ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد
ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة سعدوا
بفهمهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية .

هذه هي الكتابة الفنية التي عرفت في هذا العصر .

أما الكتابة العلمية ، التي هي كتابة التأليف والتدوين ، والتي تحفل
بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدي إلى
النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتي تعتمد أكثر ما تعتمد على
الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والانسياق وراء العاطفة .

نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر في هذا العصر ، لأن
العلوم كانت لا تزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك في بداية التدوين .
حاشا كتب الأدب التي كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب
التي ترجمت في هذا العصر في مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمات
التأليفي الذي ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

نهضة الكتابة في هذا العصر :

بلغت الكتابة الفنية في هذا العصر من الرقي والسمو ما لم تبلغه
في أي عصر من العصور وذلك لظهور آثار الثقافات الأدبية والفكرية ،
ولكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويرى أن
رجلا سؤال ابن المقفع : ما الذي يمكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلى

يعنى به الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب والكتابة باعتماداً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقتهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافظاً على تجويدها والتأنق في أساليبها .

ولئن كانت الكتابة في آخر عصر بني أمية ، قد صارت صناعة عتيقة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت في عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزراء وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فحول لم يجد الدهر بمثلم في البلاغة والفصاحة والحدق والبراعة واللفظ وشرف الصناعة ، حتى بذوا فحول الشعر في عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

خصائص الكتابة في هذا العصر :

(١) تمتاز الكتابة الفنية في هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة في الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال . ومن هذه الميزات :

١ - سعة الخيال وطرافته ، وعمق المعاني ودقتها وتنوعها وجدتها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصيلة المترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق في أدلتها والإقناع بها .

٢ - التأنق في الألفاظ وحسن تخييرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة .

٣ - أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستخدام المحسنات البديعية ، والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الرصف ، وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع في تخيير الأساليب ،

في جزالة حيناً ، وعضوبة حيناً آخر . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات في أوائل الرسائل المطولة ، وفي بعض المنشورات والعهود ؛ وإلى تنويع عبارات البدء والختم في الرسائل ؛ وكانوا يبالغون في الإيجاز حيناً وفي الإطناب حيناً آخر ، وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات ؛ وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصى به ، ولكنه لم يكن السائد في أسلوب كتابة الرسائل في هذا العهد ، ويروى عن جعفر البرمكي أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعت أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

٤ - وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أروع مآثرهم منها من تهويل في الخطاب وتعدد الألقاب ، وإفراط في استعمال طرفي الإيجاز والإطناب ، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعاني واختراعها ، والمقدمات التي كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة ، وبعض عهودهم ومنشوراتهم .

(ب) ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والتنقيح والتجويد ، وتوخى الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذراً من النقد الذي قوى في هذا العصر . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب وعبارة وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصنغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها ، يروى أن عاملاً للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها من رسالة : « وأدام كرامتك » ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : « أصلح خطاك وإلا صرفناك عن عمالك » ، فأعاد الإمعان في أسلوبه فلم يهتد لخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت قولك في صدر الرسالة : « وأدام كرامتك » ، لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب فوقعت على ظهره : « أحسنت ولا تعد » . ومن دقتهم في ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبقاك الله وأمتع

بك ، بالابن ، الخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد
ابن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة « وأمتع
بك » ، فكتب إليك عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك أم نلت ملكاً قهت في كتبك ؟
أرقد ترى أن في ملاطفة الـ إخوان نقصاً عليك في أدبك ؟
أكان حقاً كتاب ذى مقنة يكون في صدره (وأمتع بك) ؟
أتعبت كفيفك في مكاتبى حسبك ما قد لقيت من تعبك

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الإخاء يا أملى وكل شيء أنال من سيبك
أنكرت شيئاً فلست فاعله ولن تراه يخط في كتبك
إن يك جهل أتاك من قبلى فعد بفضل على من حسبك
فأعف فذتك النفوس عن رجل يعيش حتى الممات في أدبك

وكذلك جعلوا « أطال الله بقاءك » أرجح وزناً من قولهم « أبقاك الله
طويلاً » ، قال ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد : « من الألفاظ المرغوب
عنها ، والصدور المستوحش منها ، في كتب السادات والملوك ، على اتفاق
المعاني ، مثل « أبقاك الله طويلاً » ، وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قولهم « أطال
الله بقاءك » وبين قولهم « أبقاك الله طويلاً » ، ولكن جعلوا هذا أرجح وزناً
وأنبه قدراً في المخاطبة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلاً
في كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » ، على اشتراك معناه ، واحتمال
أن يكون فداه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداه من الشر . على أن
كتاب العسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها في جميع محاولاتهم ،
وجعلوها هجيراً في مخاطبة الشريف والوضيع . »

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت له :
« قوى الله ضعفك ، فقال : لو قوى ضعفي قتلتني ، قلت : والله ما أردت
إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتني ما أردت إلا الخير ، قل : « قوى الله
قوتك وضعف الله ضعفك ، .

وهذه الدقة المأثورة عن الشافعي يؤكدتها ما روى عنه أنه قال :
« أكره أن تقول : « أعظم الله أجرك في المصائب ، ، لأن معناه أكثر الله
مصائبك ليعظم أجرك ، .

طبقات الكتاب :

١ - الكتاب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

١ - الطبقة الأولى: هي التي أدركت الدولتين ، وهي طبقة ابن المقفع ،
ويحيى بن زياد الحارثي ، وعمارة بن حمزة ، وأبي أيوب المورياتي .
من كتبوا للمنصور .

ب - والطبقة الثانية : طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود
وزيري المهدي ؛ ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدي
والهادي والرشد .

ج - والطبقة الثالثة: طبقة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، وإسماعيل
ابن صديح ؛ والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو
ابن مسعدة ، وأحمد بن أبي خالد الأحول - ممن كتبوا للرشد والأمين
والمأمون .

د - والطبقة الرابعة : الطبقة التي ربيت في عصر المأمون وجمعت بين
الأدب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند ،
ولها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ؛ وبذ أعلامها تحول الشعر

في عظمة الجاه والرياسة ؛ مثل : الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم ابن العباس الصولي ، وسعيد بن حميد . والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ؛ وسواهم ممن كتبوا للمخلفاء بعد المأمون .

٢ - ويجعل بعض الكاتبين (١) هذه الطبقات طبقتين ؛ الأولى : رئيسها ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة . وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد في السجع ؛ وقد حد البلاغة فقال : « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، وقال لبعض الكتاب : « إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعا في نيل البلاغة فإن ذاك هو العي الأكبر ؛ وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » .

والثانية : رئيسها الجاحظ ؛ وطريقته أشبه بالأولى في سهولة العبارة وجزئتها وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسله ؛ وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل ؛ وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية .

وهؤلاء الكتاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، ممن ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتابتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعاني ، وحسن الابتداع في الأخيلة ، مع الازدواج حيناً ، والسجع حيناً آخر . . إلى غير ذلك من الخصائص والميزات التي أفضنا في شرحها .

أشهر الكتاب في هذا العصر :

ومن أعلام الكتاب في هذا العصر محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٢٣٣هـ (١) ، وإبراهيم بن العباس الصولي م ٢٤٣هـ (٢) ، وسعيد بن حميد م ٢٦٠هـ (٣) ، والحسن بن وهب (٤) م ٢٦٥هـ (٥) ، وسليمان بن وهب م ٢٧٢هـ (٦) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب م ٢٧٧هـ (٧) ، والمرثدي وكان يكتب للوفق (٨) ؛ ونطاحة الكاتب أحمد من إسماعيل بن الخصيب الانباري كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ؟ وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات (٩) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢هـ (١٠) ،

-
- (١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٤٢٥ معجم الشعراء ، ٢٧٨ : ٣ وما بعدها عصر المأمون ، ٢٧ : ١١ وما بعدها الطبري . ٣٩ : ٤ مسعودي ، ٤ الرسالة العنبراء .
- (٢) راجع : ٥٦ : ٤ مسعودي ، ١٧٣ فهرست ، ٢١ : ٩ الأغاني وما بعدها ، ٢٠٠ : ١ المفصل ، ٢٠٨ الوسيط ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق ، ٩٩ خاص الخاص .
- (٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الأعيان ٥٤ - ٥٧ : ٢ طبعة ١٣١٠ ، ١٧٧ : ٤ ، ١٢٢ : ٤ زهر ، ٩١ : ٤ مسعودي ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق .
- (٤) راجع : ١٧٧ فهرست - ٥٠٦ سمط اللالكى - ٢٤٨ ابن الرومي للعقاد - ٤٤ : ٣ زهر ، ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء .
- (٥) وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات في آخر خلافة المتوكل .
- (٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومي - ١٧٧ فهرست - ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب الأغاني - ٥٠٦ : ١ سمط اللالكى - ٤٨٥ معجم الشعراء ، ٣٨٦ - ٣٨٨ : ١ وفيات الأعيان ، ٤٦ : ٣ زهر .
- (٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٣٦ - ٥١ : ٢ معجم الأدباء .
- (٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦ أدب الكتاب للصولي .
- (٩) راجع : ١٨٠ فهرست - ٢٧٧ ج ١ معجم الأدباء ، ويرى عنه الصولي كثيراً جداً في أدب الكتاب ، وله كتاب طبقات الكتاب .
- (١٠) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء .

وإبراهيم بن المدبر م ٢٧٩ هـ (١) ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ) ، وعلي
ابن الحسن المتوفى بعد ٣١٠ هـ وقد جاوز التسعين (٢) ، وعلي بن العباس
النوبختي م ٣٢٧ عن سن عالية (٣) ، وابن المعتز م ٢٩٦ ؛ وأبو بكر محمد بن
يحيى الصولي م ٣٣٦ (٤) وهو الذي جمع ديون ابن المعتز (٥) ، وأبو العباس
أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤ هـ (٦) وحמיד بن نصر الكاتب م
٣٠٠ هـ (٧) ، وأبو الحسن بن جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم (٨) ،
وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد (٩) .

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة في الأدب العربي والتأليف فيه ،
ومنهم :

(١) الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان
والحيوان .

(ب) أبو سعيد الحسن السكري النحوي م ٢٧٥ هـ وكان راوية البصريين
وجمع أشعار الجاهلية والإسلام .

(١) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح .

(٢) ٢٩٥ معجم الشعراء .

(٣) ٢٩٥ معجم الشعراء ، ١٤٥ ج ٢ زهر .

(٤) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ ج ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ زمة الالباء
ومقدمة أدب الكتاب .

(٥) ١٧٥ ج ٢ زيدان .

(٦) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد .

(٧) ٤٦٣ معجم الشعراء .

(٨) ٤١٧ ج ٢ معجم الأدباء ، ١٨٨ فهرسته .

(٩) ١٨٨ فهرست .

(ح) ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ (١) ، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب
والشعر والشعراء وكتاب الشراب .

(د) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفي وله
كتب كثيرة (٢) .

(هـ) ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤-٢٨٠ هـ) (٣) ،
وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع في الشعراء واختيار المنظوم
والمتنور (٤) .

(و) ومنهم أبو العيناء بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣ هـ) (٥) .

(١) ١٠٥ وما بعدها فهرست ، ٤٤٩ - ٤٥٠ : ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ : ٢
وما بعدها زيدان .

(٢) راجع ١٧٢ : ٢ زيدان .

(٣) ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٢٥١ و
الموشح ، ٢١١ : ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ : ١ معجم الأدباء ، ٤٨ ، ٩٣ و ٩٤ : ١
ديوان المعاني .

(٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء في مجلد مخطوط
هي : الحادي عشر في بلاغات النساء وقد طبع منفرداً في مصر ، والثاني عشر
ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع
فصولاً من رسائل مختارة .

(٥) ١٨١ فهرست - ١٧٥ : ٤ مسعودي - ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ -
٣٢٤ : ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢ - ٣٣٠ : ١ زهر ، ١٧٠
نسكت الهميان ، ١٧٠ : ٣ تاريخ بغداد - ١٨٠ : ٢ شذرات الذهب ، ٦١ : ٧
معجم الأدباء ، ١٤٥ : ٣ سمط الآلي ، ٢١٨ - ٢٢١ : ١ أمالي المرتضى ، ١٩٦
طبقات الشعراء لابن المعتز

(٣) فن التوقيعات

التوقيع فن بليغ من فنون الثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتب الواردة إليه ، يبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

والتوقيع في اللغة معان متعددة: جاء في اللسان: وقع (١) ظنه على الشيء قدره وتوهمه . والتوقيع الإصابة . وتنظر الأمر ، وتوهم الشيء؛ ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة موقع . أى أن فيه تأثير أخفياً من الحبال التي تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحي ، أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة .

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون في آخر الكتاب المرفوع . ووقعت (٢) الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الري ، فكان الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع في الكتاب إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من التوقيع الذي هو مخالفة الثاني للأول . قال الأزهري : توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر (٣) ظهر البعير . فكان الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم في الأدب الفارسي ، ووجد في الأدب

(٢١) بتشديد القاف .

(٣) الدبر بفتح الدال والباء القرحة في ظهر البعير .

العربي منذ عصر صدر الإسلام ، و يروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء موقع له عمر : « ابن ما يكفك من الهواجر وأذى المطر ، . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية ... ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى في عصرنا هذا عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب وفحول البلاغ ، وروى منه الكثير كذلك لخلفاء بني العباس ووزراء دولتهم في هذا العصر .

وكان الكتاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدّة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحياناً مثلاً أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر .

وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حليك أفسد علمك ، وتراخيك أثر في طاعتك ، نخذ لي منك ، ولك من نفسك .

ورقع المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيناك وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .

ووقع لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكرك من الفساد يعطيك النيل القياد .

ورقع في قصة فقير : سل الله من رزقه . . ووقع المهدي في قصة رجل حبس في دم : ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب .

- ورقع الرشيد إلى صاحب خراسان : دار جرحك لا يتسع .
ورقع في نكبة جعفر البرمكي : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية .
ورقع المأمون في قصة متظلم من أحمد بن هشام : اكفى هذا الرجل
وإلا كفىته أمرك .
وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأظلمته فأخذه المأمون
من بين يدي وكتب : قد كثرت شاكوك . وقل شاكوك . فإما اعتدلت وإما
اعتزات . . . وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكي أيضاً .
ورقع المأمون في كتاب إبراهيم بن المهدي : القدرة تذهب الحفيظة
والندم جزء من التوبة ويذهما عفو الله .
ورقع جعفر البرمكي في قصة محبوبس : العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه .
ورقع يحيى البرمكي لمظلوم : طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً .
ورقع طاهر بن الحسين في قصة مستمنح : سننظر أصدقت أم كنت
من الكاذبين .
-

تراجم بعض الكتاب

ابن المقفع

١ - ظهر ابن المقفع ، وأحدث أثره في النثر الفنى وفي تطوره ، وكان الكتاب من قبله قد حولوا الكتابة إلى صناعة لها أصولها الفنية ، وكان بعض منهم يعرفون الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، ومن بينهم : أبو العلاء سالم كاتب هشام ، وأستاذ عبد الحميد ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل وكان يعرف اليونانية ، وجيلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية^(١) ، وعبد الحميد الكاتب أحد أعلام النثر الفنى وأتمته ، وكان يعرف الفارسية .

ويقول بعض الباحثين : إنه استخرج أمثلة الكتابة الفنية التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي^(٢) . وإنه أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية^(٣) ، ويصفه ابن النديم بأنه سهل سبل البلاغة في الترسل وعنه أخذ المترسلون^(٤) .

ويقول عنه طه حسين : إنه أحد كتاب القرن الثاني الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وإنه كان يعرف اللغة اليونانية^(٥) ؛ وهذا مما لا يوافق عليه باحث ، ويصف ابن عبدربه في العقد

(١) راجع ص ١٧١ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٦٩ الصناعتين طبعة صبيح ، ١٩ : ٢ ديوان المعاني ، ومما لا يهمل
العسكري . (٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى لوكي مبارك .

(٤) ١٧٠ الفهرست لابن النديم .

(٥) ١٠ مقدمة نقد النثر لقدامة وهي بقلم طه حسين .

الفريد عبد الحميد الكاتب بأنه أول من فتن أكام البلاغة وسهل طرقها
وفك رقاب الشعر (١) .

ولقد تأثر ابن المقفع ببلغاء عصره وفي مقدمتهم عبد الحميد ، وكان أحد
المرجمين من الأدب الفارسي والثقافة الفارسية (٢) ، ولاشك أن ابن المقفع
كان إمام الكتاب والمنشئين في عصره ، وقد آخى في أسلوبه بين التفكير
الفارسي والبلاغة العربية ، ويعد من أبلغ البلغاء ؛ ومن أساطين الفصاحة
في الأدب العربي . . ولغته وتركيب جملة أدنى إلى البساطة والوضوح من
كتاب عصره ، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة ، وأقل تليحاً
وإشارة .

وبلا ريب أحدث في الكتابة الفنية كثيراً من الأصول : في المنهج
والأسلوب وطرق الأداء ، وفي نظامها في البدء والختام . . وفي تكرار
التحميد في فصول الرسائل ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وفي تضمينها
الكثير من المعاني الدقيقة والحكم العويصة ، والأفكار الاجتماعية
والسياسية والعقلية التي لم تكن سائدة بين كتاب عصره . وبذلك كان له
فضل كبير على النثر الفني .

ولاشك أن نثر ابن المقفع الأدبي هو مظهر من مظاهر النثر الفني
في العصر العباسي الأول ، الذي تأثر بالموثرات الجديدة ، وبثقافات الأمم
القديمة العريقة ، كل التأثر .

٢ - وقد عاش ابن المقفع ستة وثلاثين عاماً ، هي كل عمر هذا الفني

(١) ٥ : ج ٢ المعقد الفريد .

(٢) ٧٢ الفهرست لابن النديم .

الشاب ، الذى أودع الفكر العربى أسمى روائعه ، وأثمن كنوزه ، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاما هى مرحلة طفولته وصباه ، كانت هذه الحكم الرفيعة ، والآداب الخالدة ، والآثار الباهرة ، نتاج عشرين عاما ، هى كل حياة ابن المقفع الأدبية والفكرية ، وهو نتاج لو نسب لمعمر بلغ المائة أجازها لكان كثيرا عليه ، ولما كان دليل عبقرية فذة ، ومواهب فائقة ..

ولقد شهد له معاصروه بشدة الذكاء وحصافة الملكات ، وبسعة الثقافة ، قالوا : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ، واجتمع الخليل وابن المقفع ، فمكثا مدة يتجادبان أطراف الحديث . فلما افترقا مثل الخليل عن صاحبه فقال : « ماشئت من علم إلا أن عليه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال : ماشئت من علم إلا أن عقله أكثر من أدبه ، وكان مقدا فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير . »

ويعد ابن المقفع من أفذاذ الأدباء والمفكرين فى تاريخنا العقلى .

فهو من الجانب الأدبى قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة فى الأفكار والمعانى والأغراض ، بل وفى الأساليب أيضا ، ومنحها أعظم ما استطاع أديب عربى أن يمنحها إياه ، من ثراء فى الأداء والتعبير ، وغنى فى التخيل والتصوير ، وسعة فى المعانى والتجارب والتفكير .

بل قد كساها حللا رائعة بمؤلفاته وترجماته ، التى حفظت على العربية شبابها ورواءها . ويذهب لثيف النقاد ، من بينهم المستشرق جب ، والمستشرق الفرنسى موسيه ، إلى أن النثر الفنى مدين فى وجوده فى أدبنا العربى لابن المقفع . فهو فى نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات النثرية الجديدة ،

وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية . ومهما كان في هذا الرأي من مغالاة ، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي . وقد آخى في طريقته بين التمشير الفارسي والبلاغة العربية ، واستخلص من الأدبين الفارسي والعربي اللذين كان يجيدهما طريقة عرفت به ، وأخذت عنه . وتظهر مزيته في ترتيب أفكاره ، وحسن تقسيمها ، وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه ، وعذوبة ألفاظه ، حتى تبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان . . ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه ، ولا ألفاظه تستهلك معانيه . كان يقدر اللفظ على المعنى تقديرا واعيا . وأسلوب ابن المقفع في سلاسته وجزالته وجماله وسحره يمثل رأيه في البلاغة التي كان يعرفها بأنها « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

وكان يتجنب الغرابة والحوشية ، ويقول : إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر . . وفي حرصه على الإيجاز ما يبرر قوله « الإيجاز هو البلاغة » ، إن ابن المقفع من الجانب الأدبي يعد أمة وحده في البلاغة ورصانة القول ، وشرف المعاني ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . . وله فضل كبير في تطور فن انغصه في الأدب العربي ، ويصفه الوزير جعفر بن يحيى البرمكي هو وطبقته من الكتاب فيقول : « عبد الحميد الكاتب أصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر » .

أما ابن المقفع من الجانب الفكري فعملاق جبار ، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحكمه وآراؤه وتأليفه . كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين : العربية ، والفارسية ، نقل خير ماقرأ باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي ، وزاد عليه الكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه في الحياة .

نجده في كتابيه : « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » ، - اللذين جمع فيهما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء في الأخلاق

والآداب وتربية النفس وسياسة الملك - كان يحارل أن يرسم خطوطا عريضة لمجتمع قوى ، تسوده المحبة والطمأنينة والثقة والصدادة . وفي الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية ، وصور من النظم الساسانية في الحكم . وإذا كان فيهما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان فهمى منقولة من الفرس ، الذين تأثروا - فيما تأثروا - بالمذاهب اليونانية . ويرجح كثيرون أن كتابه « الدررة اليتيمة » هو نفس كتاب « الأدب الكبير » .

وكتاب « كلية ودمنة » ، كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية في عهد كسرى أنوشروان ، وأضاف الفرس عليه أبوابا ، مثل « باب بعثة برزويه » ، فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وأضاف عليه فصولا جديدة مثل « باب غرض الكتاب » ، و « باب الفحص عن أمر دمنة » ، و « باب الناسك والضعيف » ، و « باب البطة ومالك الحزين » ، ويرجح بعض المستشرقين ومنهم « هرقل » ، وغيره أن الباب الأول وهو مقدمة الكتاب من إضافة على بن الشاه الفارسي المتوفى عام ٥٣٠٢ هـ . وفي هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية . ويبدو أن روح الإصلاح الاجتماعي ، التي انطوت عليها جوائح ابن المقفع هي التي دفعته إلى ترجمته . وهو يعد من نفائس الآثار الفكرية ، ومن روائع كتب الأدب العربي ، وقد ترجم إلى اللغات العالمية ، واحتل منزلة سامقة في الفكر الإنساني .

ومن الكتب المفقودة ، التي ترجمها ابن المقفع : « خدائنا » ، « أى سير ملوك الفرس وتاريخهم » ، وكتاب « التاج » . أما كتب الفلاسفة اليونانية التي ينسب إليه ترجمتها ، فترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد ؛ وليست من ترجمة ابن المقفع نفسه .

هذا هو ابن المقفع ، الذي كان ميلاده ، بخوزستان بفارس في قرية تسمى « جور » ، من أبوين فارسين ، عام ١٠٦ هـ - ٧٢٤ ميلادية ، وكان به قد سماه « روزبة » ، وكان والده « دادويه » ، يتولى كتابة خراج

فارس للحجاج بن يوسف . ونقم عليه الحجاج فضر به حتى تقفمت يده ،
فلقب بالمقفع ، وعرف ابنه بابن المقفع . ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه في
البصرة ، يستظللان بولاء آل الأهم ، المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة ،
وتلقى ثقافته الأدبية في بيئته البصرة حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق
المربد . وعمل في كتابة الرسائل لولاية بني أمية على بلاد فارس ، فكتب
لداود بن هبيرة ، حتى قامت الدولة العباسية في ٣ ربيع الأول ١٣٢ هـ -
٣ أكتوبر ٧٤٩ م ، وقتل داود . ثم كتب لعيسى بن علي عم الخليفة العباسي
أيام ولايته على كرمان عام ١٢٢ و ١٣٣ هـ ، وأسلم على يديه ، وكتب
بعده لسليمان بن علي أيام ولايته على البصرة من عام ١٣٣ - ١٣٩ هـ ، ثم
ولى البصرة بعده سفيان بن معاوية ، فنقم على ابن المقفع ، لانتهاه لأعمال
الخليفة ، الذين غضب عليهم المنصور ، واضطهد ابن المقفع وقتل عام
١٤٣ هـ - ٧٦٠ م .

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربي ،
وأمثلة رفيعة يحتذيها الباقاء والأدباء في كل عصر وجيل . مات المفكر
العظيم ، الذي جمع بين عقل الحكيم وتنسكريه وطبع الأدب وذوقه ،
والذي كانت حياته مثالا رفيعا للإنسانية وللسمو النفسى والخلق . . مات
هذا الشاب الفارسي الأصل العربي اللسان . ولكن ذكره لم يمض لأن آثاره
الأدبية لا تزال حية ، باقية لن تموت .

٣ - ويهنا أن نعرض هنا نصا لابن المقفع من كتاب كلية ودمنة ،
وليكن هذا النص هو « باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين » .

فهذا النص لعبد الله بن المقفع من كتاب كلية ودمنة وهو آخر أبواب
هذا الكتاب الخالد ، الذي أثرى به عبد الله بن المقفع الأدب العربي ، وقدم
للفكر الإنساني - في مختلف مراحل - أعظم زاد من الحكمة والمعرفة .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كيلة ودمنة من الفهلوية إلى العربية . لما احتوى عليه من أعظم الأصول في سياسة الملك ، وفي دعائم الحضارة والاجتماع ، وكان الفرس قد ترجموه من السنسكريتية إلى الفهلوية ، ومن عجب أن تفقد الأصول الفارسية كلها لهذا الكتاب الخالد ، ولا يبقى إلا الأصل العربي الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وعنها ترجم الكتاب إلى جميع اللغات العالمية ، وذاعت شهرة الكتاب في كل مكان ، وطار اسمه في كل ناحية . . يقول ابن المقفع :

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

قد سمعت هذا المثل ^(١) ، فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الخزين .

قال الملك : وما مثلن ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء ، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجمعه تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسمقتها ^(٢) .

وكانت إذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا

(١) هو ما ذكره في الباب السابق ، باب « ابن الملك وأصحابه » ، من أن الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ، وقد يصيب الرجل الجاهل الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل البلاء والضرر .

(٢) أى علوها ، وهو بمعنى السموق ، وفي الأصل : سمقتها ، أى بعدما وذلك لارتفاعها .

انقاض (١) وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعهد (٢) ذلك منها لوقت قد
علمه ريثما ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعدها (٣) أن
يرقى إليها أو تلتقى إليه فراخها . فتلقبها إليه .

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع
على النخلة ، فلما رأى الحمامة كثيية حزينة شديدة الهم قال لها : يا حمامة
مالي أراك كاسنة البال سيئة الحال ؟ فقالت له : يامالك الحزين إن ثعلبا
دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يتمددني ويصبح في أصل النخلة
فأفرق (٤) منه فأطرح إليه فرخي . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل
ما تقولين فقولي له : لا ألقى إليك فرخي ، فأرق (٥) إلى وغرر بنفسك (٦)
فاذا فعلت ذلك وأكلت فرخي طربت عنك ونجوت بنفسى .

فلما عليها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر ،
وأقبل الثعلب في الوقت الذى عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان
يفعل ، فأجابته الحمامة بما عليها مالك الحزين . فقال لها : أخبريني من
عليك هذا ؟ قالت : علمنى مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك
الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا ، فقال له الثعلب : يامالك الحزين
إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالي ، قال : فإذا
أتتك عن شمالي أين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يميني أو خلفي ، قال :
فاذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت
جناحي ، قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ما أراه (٧) يتبأ

-
- | | |
|------------------------|-----------------------|
| (١) أى خرج منه الفرخ . | (٢) أى تفقد وعرف . |
| (٣) أى تهددها . | (٤) أخاف . |
| (٥) أى اصعد . | (٦) أى عرضها للهلاك . |
| (٧) أى ما أظنه . | |

لك ، قال : بلى ، قال : فأرني كيف تصنع ؟ فلعمري يامعشر الطير فقد فضلكم الله علينا ، إنك تدرين في ساعة واحدة ما تدرى في سنة وتبلغن ما لا تبلغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهيننا لكن فأرني كيف تصنع ؟

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه (١) همزة دق عنقه ، ثم قال : يا عدو نفسه رى الرأى للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ، ثم قتله وأكله .

وهذا النص يرشد إلى أن الإنسان يجب أن يعى دروس الحياة كاملة ، وأن ينصح نفسه قبل أن ينصح غيره ، ويحذر من شر الأشرار كما يحذر هو غيره من شرهم ، وأن يكون عميق الإدراك بعيد الفطنة ، لا يغتر بكلام محتال مخادع ، أو ما كر متلطف .

وأسلوب ابن المقفع مع بلاغته وروعته يكاد هنا يتعثر في أداء مضامينه ، لأن الترجمة للجماني الفلسفية الدقيقة لا يكاد يقوم بها أسلوب بليغ مهما دقت بلاغته ، وعلت منزلته في الفصاحة . وانظر إلى قوله : « فشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة ، فالأسلوب مفكك غير متلاحم الأجزاء مع ضعف نسجه ، وقلة روعته ، وفي آخر النص يكرر ابن المقفع « فأرني كيف تصنع ، مرتين .

والنص قصة من قصص كتاب كلياسة ودمنة ، وهي كأغلب قصص الكتاب قصة على لسان الطير والحيوان يرويها الفيلسوف الهندي بيدبا للملك دبشليم مرشدا وموجها ومعلما ، وتبتدى كل قصة بسؤال من الملك للفيلسوف قد سمعت هذا المثل مثلا ، أو قد عرفت ما أخبرت به من الأمر

(١) أى كسره .

السابق ، فاضرب لي مثلاً في شأن كذا . . فيرد عليه الفيلسوف قائلاً : إن مثل ذلك مثل كذا وكذا ، ويسترسل من قصة إلى قصة ، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن عظة إلى عظة حتى ينتهي تقريره للحكمة المقصود تقريرها أمام الملك .

ولهذا القصص فوق مضمونه الاجتماعي والفكري فائدة جلية لما فيه من التسلية والمتعة والبهجة والتشويق والطفرة .

ومثل ذلك القصص مما ضرب به المثل في روعته وحكمته ، وبما اهتم به الباحثون والمفكرون والسياسيون اهتماماً كبيراً ؛ وفي القرآن الكريم قصص خالدة على أسنة الطير مثل قصة الهدد ، وقصة النمل مع سليمان ، وذلك لأن الحكمة إذا جاءت على أسنة الطيور والحيوانات كان وقعها في النفس أعظم ، وأثرها في القلب أكبر ، وكانت فرحة الإنسان بها أشد ، ومتعته بها أجل .

وقد ألف الكتاب قصصاً على أسنة الحيوانات والطيور لتعليم الحكمة عن طريق القصة امتعجماً للنفوس وترويحاً للقلوب ، وليكون الجذب في صورة متعة تجتذب إليها العامة ، ويتسلى بها الخاصة . ويقول طه حسين فيه : في هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب (١) .

والأصل الهندي للكتاب هو كتاب « بنج تنرا » (٢) ويذكر أن سبب تأليف الكتاب رغبة ملك من ملوك الهند اسمه « السلطان الخالد » في تعليم أبنائه المعرفة والحكمة ، وحب العلم والعلماء ، وكانوا لا يقبلون على هذا الباب ، فأشار أحد المقربين إلى الملك عليه بامتدعاء كاهن برهمي حكيم

(١) مقدمة كلية ودمنة ص ٨ تحقيق عبد الوهاب عزام .

(٢) معناه خمس وسائل .

اسمه ووشنوشرما ، لتعليم أبناء الملك فاستدعاه ، ووكل إليه الإشراف على تعليم أبنائه فوضع السكاهن لهم هذا الكتاب ليحببهم في المعرفة بأسلوب مشوق ، وذلك نحو عام ٢٠٠ ق م .

وترجمة ابن المقفع للكتاب تجعل اسم الحكيم الهندى الذى ألف الكتاب « بيدبا » وقد وضعه للملك دبشليم لتعليمه سياسة الرعية . ولزوم العدل والبعد عن الطغیان ، وقد استعان بيدبا فى تأليفه بتلاميذه حيث مكثوا يؤلفون فيه سنة كاملة ، وجعلوه قصصا على لسان الحيوان لأهمية الفن القصصى فى التهذيب والتوجيه .

ويذكر الفردوسى فى « الشاهنامه » فى سبب ترجمة الكتاب إلى الفهلوية أن الملك أنوشروان سمع من برزويه الطبيب أن فى بلاد الهند عشبا يحى الموتى فبعث أنوشروان برزويه للبحث عن هذا العشب العجيب . فسافر وظل يسأل عنه ، ويجوب البلاد فى طلبه فلم يعثر عليه فسأل العلماء فى الهند فأرشدوه إلى كلية ودمنة لأنه بأدابه يحيى القلوب الميتة . فנסخه وقدم به على أنوشروان وترجم الكتاب له من السنسكريتية إلى الفهلوية ، وذلك فى عهد أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) ، ثم ترجم ابن المقفع الكتاب من الفهلوية إلى العربية فى حكم المنصور فى القرن الثانى الهجرى ، وكليلة ودمنة من أبناء آوى . وكان يقال لأحدهما كلية وللآخر دمنة .

وكان لكليلة ودمنة صداه العميق عند كل الناس فى عصر ابن المقفع وبعد عصره ؛ حتى قال ابن خلدون : « لقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة » .

الجاحظ شيخ الأدباء في العصر العباسي

١٥٠ - ٢٥٥ هـ

١ - عاش الجاحظ في العصر العباسي الأول (١٢٢ - ٣٣٤ هـ) وأدرك سنوات من حكم المنصور ، والجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، ولقب بالجاحظ لجهوظ عينيه .

وقد نشأ بالبصرة فقيراً حائراً ، يعيش بكده وسعيه ، حتى لقد روى أنه كان يبيع الخبز والسّمك بسيحان (١) ، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما في البصرة وبغداد ، ويتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد ، ويسمع من الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة ، ويأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش صديقه ، ويأخذ الكلام عن النظام . هذامع إدمانه المطالعة ، حتى قيل إنه ما وقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكثرى دكاكين الوراقين ليبيت فيها للمطالعة . وكذلك انقطع للعلم والتأليف حتى أصبح علماً ذائع الشهرة في هذا المجال ، وأقبل الناس على كتبه ، وعدوا التلمذة عليه شرفاً ، ويصور ذلك ماروى عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس ، قال : كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ ، فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصده وأقت عليه عشرين سنة .

وقد انفرد الجاحظ بآراء في التوحيد صارت مذهباً من مذاهب المعتزلة وألحقه المأمون بديوان الرصائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام .

وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق وأهدى إليه كتابه الحيوان ، ولما قتل ابن عبد الملك في بدء خلافة

(١) هو نهر بالبصرة .

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجيء به مقيدا إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال : والله ما علمتكم إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنعة معدنا للساوى . فقال له الجاحظ : خفض عليك أيديك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن من أن أحسن قسىء ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن أبي دؤاد : قبحك الله ما علمتكم إلا كثير زويق الكلام ، ثم قال جيئوا بحداد ، فقال : أعز الله القاضى ، ليفك عنى أوليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنك ، فجىء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ؛ فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم وعمل يوم فى ساعة وعمل ساعة فى لحظة ، فإن ضرر على ساقى وليس يجزع ولا ساجة (١) ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال يا غلام سر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تحت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر فى مجلسه ، ثم أفبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان . واصطلحت الحال بينهما ، وأهدى إليه الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » .

واتصل الجاحظ أيضاً بالفتح بن عاقان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها فى كتابه « البلدان » ، كما أنه دخل أنطاكية .

وهكذا قضى الجاحظ أيامه فى العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج فى أعقاب عمره وكان ذلك فى أواخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بأمرى . ليس بطائل ، ذى شق مائل ، وعقل حائل .

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

وظل كذلك حتى توفي في آخر خلافة المهتز وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد كان شعار الجاحظ في طلب العلم قوله : « إذا سمعت الرجل يقول ماترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقوله أيضاً : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئاً ، فلو أن علماء كل عصر منذ جرت هذه الحكامة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلفاً .

على هذه الطريقة طالب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف في الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً في كل منها .

٢ - ويقول المرزباني فيه رواية عن أبي بكر أحمد بن علي : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبهر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وفتح الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدرة في المهزلة وغير المعتملة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب في سياسته ويقظته ، والثاني الحسن البصري فلقد كان من درارى النجوم علماء وتقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ،

وشيوخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حتى سبحان
البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل ، وإن جد خرج في مسك عامر
ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد ؛ حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ،
وشيوخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مشرة ،
الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه . والخاصة
تسلم له ، والعامّة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين
الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت
حكيمته وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أربه ، وافترخوا
بالانتساب إليه ، ونجحوا بالافتداء به ، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة ،
أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة
والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدى (٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) كتاباً في تقرّظ
الجاحظ . وقيل لأبي هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ
بمخنقك ؟ فقال أمثلي يمدح عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبه أننى
لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت
في ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، في النصف الأول من القرن
الثالث ؛ وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل
أفق ، ويرن صده فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالاً عليه فى البلاغة والفصاحة
واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفاً لا يمدله
شرف ، ومجداً يدينهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات

الثقافة الإسلامية في شتى عصورها ، فألفوا الكتب في الإشادة به - كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقرّظ الجاحظ - وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرّة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والأدب والبيان ، وكان نخر الرجل في أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ، ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسممهم بميمم الخزي والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جسده منهم فكان هدفاً لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتمككة - الترييع والتدوير ، وحسبك أن المأمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثني عليها ويستجدها (١) .

٣ - ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بواه صرحه الخالد كفايته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروماً من كل شيء إلا من مجد الأدب وشهرة العلم ؛ ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد إليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لتعرضه لخصومات كثيرة حذراً من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق في الحياة العامة الذي منى به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته « الزوابع وانتوابع ، ، وما جوله يخطيء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على

(١) ٢١١ ج ٢ البيان للجاحظ نشر السندوبي - ط ١٩٢٧ .

سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضللا وغبنا .

ولكن ماسر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات و ابراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصراً في الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه تعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريباً ولذلك أخذ يذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل ، وقد تجد عالماً غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيا كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفقه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر في هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى إنه ذكر للتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربياً في روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيراً ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب إلا من اتصل منهم بمجل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والذي أهدى له كتاب الحيوان ، وكافاه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد

شيئا من وراء هذه الصداقة ؛ وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده غدوة اللود أحمد بن أبي دؤاد الذي سبق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاقه ووراثته .

ثم لانس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق في أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي الذي تلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزلين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذي رعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٨ — ٢٥٥ هـ) ، وكان له في صدر شبابه نغمة التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام وفي التفكير والمنطق ، كما كان له نغمة صداقة رجال الفسك والسياسة في الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذلك فضوجا كبيرا في عقلية وثقافته هبأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

٤ — وثقافة لجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بشتى ألوان الثقافات المختلفة التي ما زجت ثقافة الإسلامية في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة

لاتقف عند غاية، وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري ؛ وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لانشك في أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئته الإسلامية في عصر الجاحظ ، ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته ، وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها كأبي يوسف القاضى والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتمددة الألوان .

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر (المذهب الكلامي عند البديعيين (٣)) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذي ذكر أنه خرج في أسلوب سقيم ، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثر بالخطابة ، لأرسطو (٤) ، وذلك ما أراه ، وأنكر باحث

(١) ٤٠٠ ج ١ ضحى الإسلام (٢) ٣٨٧ ج ١ المرجع

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينسك أن يكون لليونانيين خطابة (١٥ ج ٣ البيان) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين ، ويحتمل أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة الماسما واسعا ، ويبدو لي أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففي البغلاء يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك ، لم أعرفك قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية د كراز بوسنت بارون بيأى نشنلميم (٣) .

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتيبه وفي مؤلفه البيان ، أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا في الحيوان وفي كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل بأراء لأرسطو فيه (٤) وكان مصدرا كبيرا له في كتابه الحيوان ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيرأ (٥) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع عليه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٦) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ، ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني (٩)

(١) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

(٢) ص ٣ مقدمة نقد النثر .

(٣) ص ١٩ البغلاء ، ١٩ الجاحظ لمردم بك

(٤) ١ : ٦١ البيان

(٥) ٦٩ و ١٢٨ : ١ البيان

(٦) ٣ : ١٥ البيان

(٧) ١ : ٧٥ البيان

(٨) ٣ : ٧ البيان .

(٩) ٢ : ١٦٥ البيان

ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس افلاسفتهم في الخطابة ذكر (١)، وأقسام الدلالة عند الجاحظ (٢)، هي من تفكير أرسطو . ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق ، وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بها للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (٣) ، وللجاحظ رسالة في نقد الكندي (٤) .

ويذكر الجاحظ في البيان ، صناعة الكلام ، ويعني بها حيناً علم الكلام (٥) ، وحيناً آخر البيان (٦) ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق (٧) وصناعة الخطابة ويذكر أحياناً أصحاب الخطابة والبلاغة (٨) .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى (٩) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى دمج الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة (١٠) ، وقال :
« ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر »

(١) ١٥ : ٣ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطابهم

(٢) ٦١ : ١ البيان ، وهى فى ٤٠ الرسالة العنبراء ، ٩ نقد النثر

(٣) ٧ : ٣ البيان

(٤) ٤٢ الجاحظ لمردم بك

(٥) ٦٩ : ١ البيان

(٦) ١٠٨ : ١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ : ٤ دهر)

(٧) ٧٩ : ١ البيان

(٨) ١٨٣ : ١ البيان

(٩) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(١٠) راجع الشفاء لابن سينا ، وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى

منقولة من الشفاء

الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تنحوج إلى السكافة المشنوءة ، ،
ودعوة الجاحظ إلى الوضوح^(١) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر «حسن
الدلالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمنع في
الإغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط
الجمهور ، ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة^(٢) موجود في خطابة أرسطو
حيث يوجب أن «يكون اللفظ فصيحاً لالحن فيه ، ، ويذكر الجاحظ
استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور (المحذوف الموزن) في مواضعه^(٣)
والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب^(٤) ، وأرسطو أول من
أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما .
وعلى أى حال فرجع هذا التشابه في الأفكار أرجحه أن سببه نقل الجاحظ
كثيراً عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد وعلى الأخص
الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التي شرحها أرسطو في
كتابه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو^(٥)

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(٢) ١٢١ : ١ البيان

(٣) ٥١ : ١ البيان . ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (١٤١)

و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ : ١ البيان)

(٤) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه

والإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب)

(٥) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام
الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو في الوصل هي التي يفيض
عبد القاهر في شرحها في الدلائل ، ونصيب في نقده للكيفية في قوله «تكامل فيها الأنس»

لا يشير إليها الجاحظ في بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابي أرسطو ، وإنما أرجح اطلاعه على زجات لكثير من آرائه في الكتابين ، ولانشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرا ، ونقل عن اطلعوا على خطابة أرسطو .

هـ — وللجاحظ في البيان العربي آثار كثيرة : كرسائله في تفضيل النطق على الصمت (١) وكتابه البيان والتبيين .

والبيان أول كتاب ظهر في الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه (٢) ، ويشيد به أبو هلال (٣) ، ويعدده ابن خلدون من أركان الأدب (٤) ، والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ، ويأتي على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين ، وآثارهم الأدبية .. وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا (٥) ، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلام تصحيف الجاحظ فيه (٦) ، وينقد ابن شهيد الكتاب (٧) ، ورد عليه بعض المعاصرين (٨) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان ، كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه

== والشنب ، لأن الشاعر باعد في القول (١٣٤ ج ١ الأغاني ، ٣٣٥ : ١ السكامل) . وليس أمامنا ما يدل على معرفة الجاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) تجدها في (١٤٨ — ١٥٤ رسائل الجاحظ) .

(٢) العصر العباسي الاسكندري . (٣) ٧٠٦ الصناعتين .

(٤) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٢٢٧ : ١ العمدة

(٦) ٥٤٥٣ والتصحيف والتعريف (٧) ١٩٨ : ١ ذخيرة

(٨) ٥٠ : ٢ النثر الفني .

وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (١) . أو كما يصورها بشر بن المعتمر (٢) ، أو كما يراها ابن المقفع (٣) ؛ وهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي ، وتعطينا صورة بجملة لنشأته (٤) .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (٥) ، ويتكلم على السجع (٦) ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم (٧) ، والاستطراد ، والسكناية (٨) ، والأمثال (٩) والاحتراس (١٠) والقلب (١١) ، والأسلوب الحكيم (١٢) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب السكلامي بهذا الاصطلاح (١٣) ؛ ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لافي المعاني قال: والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما انشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك (١٤)

-
- | | |
|---|------------------------------|
| (١) ١ : ٧٩ البيان | (٢) ١ : ١٠٤ وما بعدها البيان |
| (٣) ١ : ٩١ البيان | (٤) ٣ مقدمة نقد النثر |
| (٥) ١ : ١١٦ البيان | (٦) ١ : ١٩٤ البيان . |
| (٧) ١ : ١٧٠ و ١ : ٩١ و ٢ : البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين . | |
| (٨) ١ : ١٨٠ و ١ : ٢٩ و ٣١ و ٨٥ : ٣ البيان . | |
| (٩) ١ : ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ : ١ : ٢٢٤ ، ٢ : البيان . | |
| (١٠) ١ : ١٦١ وما بعدها البيان (١١) ١ : ١٨٠ : ١ : البيان . | |
| (١٢) ٢ : ٢٠٢ و ٢٠١ : ٢ : البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ د اللغز في الجواب ، (١١٦ : ٢ : البيان) . | |
| (١٣) ١٠١ البديع ، ٧٦ : ٢ : العمدة . | |
| (١٤) ٣ : ٤٠ الحيوان | |

وهو ما ذهب إليه ابن خلدون (١) ، ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً (٢) ، وفي البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع في اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لادعى إلى ذكره هنا خوفاً من كثرة الإسهاب . والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً في بيانه (٣) ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتسكف (٤) » ، ويحث على ترك الوحش والسوقي وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب في صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبي وعلى نهجيس ، والجاحظ يده على البيان العربي لا يجمع ، ويعدده ابن خلدون من السابقين في التأليف فيه (٥) .

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (٦) فهمى على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان وهي التي أوحى إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان (٧) ، ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٢) ١٠٥ مملكة الجلال .

(٣) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ : ٢ البيان .

(٤) ١ : ٥ الكامل للبرد

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٦) ٦ و ٧ الصناعتين

(٧) ومن هؤلاء طه حسين الذي يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربي حقاً (راجع ص ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين) .

في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده . والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ ، وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عني فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها .

وهو أصل من أصول الأدب ، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رأها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره وتنميته إلى غير ذلك من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلاً بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ نغز التلمذة والرواية - في كتابه - عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وابن العاصي

وكبارهم بن السندي وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر وكثامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالثناء عليه وعلى كتابه « البيان » : كابن قتيبة وقدامة وأبي هلال والقاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني وسواهم .

ولقد خدم الجاحظ البيان العربي في كتبه عامة ، وكتابه البيان والتبيين خاصة ، فهو أظهر من أفردته بالتأليف وأسبقهم ، فوق ما جمع من مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما « الحيوان » ، و « البيان » ، عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل .

والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في مذاهبها وعناصرهما في كتابه « البيان » ، على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدتها من عقليته وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين في البيان العربي وقواعده .

٦ - ولقد عاش الجاحظ في عصر ازدهر فيه الأدب ودراساته ، وحمل لوائه طوائف عدة :

١ - طبقة رواة الأدب العربي من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يروونه لإشباعا لنهم فطرم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١)

(١) ١٠٦ : ١ البيان والتبيين .

ومن عامة رواد الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخرج السهلة والديباجة السكرية ، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (١) .

٢ - وبجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدر وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحق ومنصور النمرى ومسلم الخاسر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابي ومسلم وأبي تمام (٢) . وبجوار هؤلاء وهؤلاء وجدت جماعات كثيرة من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بنى علي وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٣) .

٣ - طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً (٤) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٥) ،

(١) ٢٢٤ : ٣ المرجع .

(٢) ٥٤ : ١ المرجع .

(٣) ١٠٦ : ١ البيان .

(٤) ١٠٥ : ١ البيان .

(٥) ٢٢٥ : ٣ المرجع .

وحكم مذهبهم في نقد البيان (١) ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآداهما وأخذوا يتحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبي وترضى اتجاه الحضارة والترف العقلي والاجتماعي الذي داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثاني ، كما أخذوا يلقنون مذهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخ لهم من شدة الأدب كما ترى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ في أصول البلاغة التي يقول الجاحظ عنها: إن بشر امرئ إبراهيم ابن جبلة بن مخزومة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عماقال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتتميقه ، وهي في أصول البلاغة وعناصر البيان (٢) ؛ ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالمه ولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وموادم من كتاب الدولة الذين صعدوا بأدبهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التي توائم ذوق بيتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا في كتاب البيان والتي لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبي السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء في الشرح والتحليل .

(١) ٢٤٠ : ١ المرجع

(٢) ١٠٦ : ١ المرجع

(٣) ١٥١ : ١ المرجع

وللجاحظ مذهب أدبي كامل دعا إليه في كتابه البيان والتبيين في مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير، وهذا المذهب مستمد من عقليته وثقافته ويؤيدته، وهو المظهر القوي من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين .

ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من: سحر اللفظ وتلاوم الحروف، ووضوح المعنى، وترك التكلف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية، ومراعاة المقام وإصابة الغاية، مع الحدق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعاني في سحر وإيجاز، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه وطبعه أوزيه، ومع الحرص على صيغ ذلك كله بصيغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه، ومع مساندة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته، ومع الحرص على إثارة نشاط السامعين والقراء والاحتياط على ذلك؛ بالفكاهة الجميلة، والاستطراد الساحر، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التي تلتقي في روع السامع والقارئ روح الهيبة والإعجاب بهم وبالمؤلف، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارئ متطلعا مسائرا للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشيء ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام .

ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده، ليشرع القارئ بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار، وليكتسب به رضاه وتقديره وإعجابه . ولا أحيلا في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه، فأقرأ أي صفحة

منه ؛ وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أديان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البدواة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبالوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المتنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى ، فهو حيناً يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان ، وحيناً يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسيرة الذوق والطبع ، وحيناً ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر ، وحيناً يدعو إلى ترك التكليف والتعميد والتعقير وإيثار الأساليب السمجة الكريمة الساحرة .

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب فى حياته وبعد حياته .

والجاحظ أديب وكاتب ومرسل ومؤلف وناقد ، وليس شاعراً مع أن له شعراً ، ولا يضيره ذلك ، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزمانى الهمذانى فيه : وهو من أحد شق البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف (١) ، ؛ فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ولا ينقض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه .

ولكن البديع يبدو أنه كان يتعامل على الجاحظ تعامل من يريد أن يربح من طريقته كل من لهم قدم فى الأدب والبلاغة ليظل هو العلم فى هذا المجال على

(١) ٨٢ المقامة الجاحظية - مقامات البديع .

مر العصور ، ولذلك تجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه ، بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة (١) .

وقد روى للجاحظ شعر قليل ، هو أشبه بشعر العلماء .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين (٢) : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التلويح ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى في ذلك السبيل الأقوم ، بل هو يدعو إلى هذا المذهب ، ويعيب من يرغب عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد مؤلماً يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبدد الجميع في ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاة البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه ، وعمما وصل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أقواها بلاغة العرب في الجاهلية والإسلام ، والكتاب والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظهر ما يكون فيه الرأي الشخصي والتفكير الحر .

لئن كان ابن المقفع إمام الكتاب في عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم

(١) ٨٢ و ٨٣ المرجع .

(٢) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ لتحليل مردم .

في عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضري المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعيتها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الأدب ، وكل من ألف بعده متأثر بطريقة شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم في الفهرست : « ابن خلاد الرامهرمزي حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال أيضا : « الأمدى مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمل من الكتب » .

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبحت الكتاب ترسم خطاه في الإنشاء بل تقتبس جملة ذات الجلبة في السمع والروعة في النفس . قال القاضي الفاضل : « وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة .

٧ - و شخصية الجاحظ في مؤلفاته وأدبه أطلعتك من كل جانب وناحية ، وهي شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه وعقله وثقافته ومنزلته في مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم كأنه منهم ، فلم يفن شخصيته في شخصياتهم ، بل رآهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولم يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم في أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ تغيب في جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبشجيتها الساحر لعقل القاريء وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادقاً أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كاتروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعاً في معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلبه

البلغ فيها عصا الساحر المتحدى التي تسترعى السمع والبصر . وتبتهت
الفكر والعقل وتلهب العاطفة والشعور .

والعجب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيراً
من لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتباً لا شخصية له ، تطمس شخصيات من
يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ
لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس
آثاره بينهم .

ومدشماً ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه
وفي بحثه وتأليفه ، فاذا فكر فبحقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم
ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ ، يستمك بفائدته
ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ، ولذلك كان كتابه « البيان ،
موقوفاً على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له
من كتابه ، كما كان ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن
يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب
لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية
على طريقة كتاب الموسوعات (١) وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن
يفهمه إلا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا
الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون
مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجداً وخلود
ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

٨ - وللجاحظ مؤلفات كثيرة نذكر بعضها بإيجاز :

(١) راجع ٤٩ : ٢ النشر الفني لوكي مبارك .

(١) كتاب البيان : وقد أهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذبيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارىء وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليقه له ، والجاحظ حين يعمل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكروهم في كتابه ترتيباً يتمشى مع التاريخ بهجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيراً منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحياناً روحاً توأمت بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطردى جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعدده ، وهذا الأسلوب الاستطردى أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد من الابتسام ، فهو يعنون فصولاً بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب ، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضعها إلا للتغريب بالقارىء واكتساب نفاذه وامتحان ملكاته

ويقول بعض العلماء : نخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل .

(٢) كتاب الحيوان : وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب « البيان والتبيين » وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف في موضوعه ، وقد طبع في سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان ، وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون ، وما قالته العرب فيه من الشعر فضلاً عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفي استطراد الجاحظ الكثير في هذا الكتاب ، يقف القارئ في أثناء ذلك على أخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الإسلامية وما بلغت في القرن الثالث . فمناك أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آي القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الإسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، أضف إلى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس بما ترجمه العرب وبما تسوق لإياه المناسبة في ذلك الكتاب ، فضلاً عن أنه يصور كثيراً من وجوه الحياة في القرن الثالث .

(٣) كتاب البخل : وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء ونوادر الأشياء ، وصدرة برسالة سهل بن هرون في البخل وهي من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب في هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من خفايا ساحرة .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آراء سديدة في الاقتصاد والتدبير .

(٤) كتاب المحاسن والأضداد : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه

نحو ثمانين موضوعاً متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلاً يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من محاسن الموت ، وجميع المواضع التي عالجهما ذات بال : كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأضداها . وقد صرح الجاحظ في المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله : « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والأضداد لم أسبق إلى نحلته ولم يسألني أحد صنعه ، والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تفسيقاً وترتيباً وأشدّها مراعاة لحسن التوبيخ وضم كل معنى إلى مشاكله . وقد جرى على سننه البيهقي ألف كتاباً سماه « المحاسن والمساوي » .

(٥) كتاب التاج في أخلاق الملوك : يبحث عما يتعلق بأمر الملوك في السياسة والتدبير وفي حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومحادثتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة ، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوم قدمهم في الحضارة . وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية في الوقت الحاضر تفوق ما ورد في ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

(٦) الفصول المختارة من كتب الجاحظ : وهو كتاب اختاره عبيدالله بن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماؤها : كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب المعلمين ، كتاب التربيح والتدوير ، كتاب مدح النبيذ ، كتاب طبقات المغنين ، كتاب النساء ، كتاب مناقب الترك ، كتاب حجج النبوة ، كتاب مسائل القرآن ، وفيه بحث عن خلق القرآن ، كتاب الرد على النصاري ، كتاب المودة والخلطة ، كتاب استحقاق الإمامة ، كتاب استنجاز الوعد ، كتاب تفضيل النطق على الصمت ، كتاب صناعة الكلام ، كتاب مدح التجارة وذم عمل السلطان ، كتاب الشارب والمشروب ، كتاب الإمامة ، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

(٧) ثلاث رسائل للجاحظ هي : الرد على النصارى التى مر ذكرها مع
الفصول المختارة ؛ ذم أخلاق الكتّاب ، رسالة القيان .

(٨) الحنين إلى الأوطان .

(٩) إحدى عشرة رسالة طبعت فى مصر ذكر أكثرها فى الفصول
المختارة وما لم يذكر منها هو : نخر السودان على البيضان ، كتاب
الوكلاء والموكلين .

(١٠) رسالة فى بنى أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

(١١) كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من
الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدييره وهو كتاب قيم وأسلوبه
عال ولكنّه بأسلوب الحكيم أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم
القرآن ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ،
كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنين والغناء والصناعة ، كتاب
آى القرآن ، كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب
جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة
البيّمة ، رسالة فى القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ،
كتاب العالم والجاهل .

(٩) ألوان من نثر الجاحظ

الكلام البليغ:

ومتى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقاً ،
ولذلك القدر وفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ،
كان فناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه
من تأويل الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائنين . ولا تزال القلوب
به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً
من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ،
والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على
ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار
ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعمم الرخص . ومن أعاره من معرفته
نصيلاً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، خبت إليه المعاني ، وسلس له نظام
اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف ، وأراح قارئ الكتاب
من علاج التفهم .

كلام الرسول:

عاب النبي صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التعمير ،
واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، وهجر
الغريب الوحشي ، ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث
حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر
بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة
والحلارة ، وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة

حاجة السامع إلى معارذته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، بل يند الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس السمكات الخضم إلا بما يعرفه الخضم ، ولا يحتاج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلز ، ولا يبطن ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط أهم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعادل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا من كلامه صلى الله عليه وسلم .

جوامع كليه :

يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القحة ، قوالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العي ، حلماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافداً لا يبلغ الطيش ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك في كلمة واحدة وهي قوله : « خير الأمور أوساطها » ، فعلنا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الحكم وعلم فصل الخطاب .

سحر البيان :

قال بعض الربانيين وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشايق والتعمق ، ويبغض الإغراق في القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بحسن ما يسمع : أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنعه

المتكلم قولاً متعشقا ، صار في القلب أحلى ، وللصدر أملاً . والمعاني إذا كسبت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفي .

بلاغة العرب :

كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أوحين أن يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عمد المقارعة والمناظرة أو عند صراع أوفى حرب . فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا وتثقال عليه الألفاظ اثثالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه في البيان أرفع ، وخطبائهم أوجز والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفترقوا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وإن شيئا الذي في أيدينا جزء منه ، بالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنشور والأبجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فعنا تعلم

على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ،
والسبك والنمات الذى لا يستطيع أشعر تناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان
أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير والنبد قليل ، ونحن لا نستطيع أن نعلم
أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة
غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله
وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل
ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخالص ،
ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم
أن الذى قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عيانا .

فماذا فرق ما بيننا وبينهم ، فتفهم عنى - فهمك الله - ما أنا قائل فى هذا ،
واعلم أنك لم تر قوما قط وأشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ،
ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما ، من أهل هذه
الجملة . وقد شفى الصدور منهم طويل جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد
نار الشنآن فى قلوبهم ، وغيلان تلك المراحل الفائرة ، وتسعر تلك النيران
المضطربة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعلمهم فى اختلاف
إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهياتهم ، وما علة كل شىء من ذلك ، ولم
اختلفوه ولم تكلفوه ؟ ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤونتهم على من
خالطهم .

الكتاب :

الكتاب وعاء مليء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شخى مزاحا وجدا ،
إن شئت كان أيين من سبحان وائل ، وإن شئت كان أعبي من باقل ، وإن شئت

ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك
طرائده ، وإن شئت أشجنتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر
مفر ، وبناصك فاتك ، وبناطق آخرس .

ومتى رأيت بستاناً يحمل في ردن ؟ وروضة تقلب في حجر ، وناطقاً
ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ،
ولا ينطق إلا بما تهوى . آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ،
وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

ولا أعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل إملالا وإبراما ولا أكثر أعجوبة
وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولا أبعد من مرآة من كتاب .

ولا أعلم نتاجاً في حدائث سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان
وجوده ، يجمع من التداير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول
الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة
والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة
والأمثال السائرة والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب .

صامت ما أسكته وبلغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك
في حال شغلك ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجميل له
والتدعيم منه .

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إبتاعك ، وشعبه طباعك ،
وبسط لسانك وجود بيانك ونغم ألفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك
ومنحك تعظيم العوام ، وصدقة الملوك . وعرفت به في شهر ، ما لا تعرفه
من أفواه الرجال في دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن

الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم عرقاً ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأعياء .

قال ابن الجهم : ، إذا غشيتي النعاس في غير وقت نوم - وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة - تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازي للفوائد ، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانه أشد إيقاظاً من هدة الهدم . وإذا استحسنيت السكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشي وكل سروري .

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألد عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في السكتب ألد عنده من عشق القيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ السكتب إيثار الأعرابي فرسه بالابن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه .

سياسة الحزم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيى في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خاف الرب في تدييره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضاً ،

وشر منسه من كان شره صرفا ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والأطاع والإعاقاة . ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجو وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه- ، فخير الخير ما كان بمزوجا ، وشر الشر ما كان صرفا .

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده . لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحجوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيرا ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد .

الصوت :

أمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه عجب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حائق وذلك مثل هذه الأغاني المطربة . ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنعو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملعنة ، وليس يعتربهم ذلك من قبل المعاني لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون ، وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكاني الشجا .

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المسكاري والإبل تصر آذانها إذا حدا في آثارها الحادي وتزداد نشاطا

وتزيد في مشيها . ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعصى معهم ويمطعون فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار ، مصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل في الحظيرة . ويضرب بالطساس للطيور وتصاد بها . ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت فتروعماً تلك الأصوات . وقال صاحب المنطق : الأيايل تصاد بالصفيير والغناء ، والصفيير تسقى به الدواب ، وتنفر به الطير عن البذور .

العرب :

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع الخوفهم صفار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورءوس المكايل ولا عرفوا الدوائيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذل القط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق (١) ، ولا البخار ولا الغلط ؟ ولا العفن ولا التخم ، أذهان حديدية ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتمام بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ؛ وبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ومهمهم أرفع وهم من جميع الأمم أغر ولأياهم أذكر .

(١) الغمق : الفساد من كثرة الأنداء . واللثق : نحوه .

ألوان من رسائل الجاحظ

رسالة في الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بملك ، من لم يستشفع إليك بغيرك . وإني بمعرفتي بمبلغ حلك وغاية عفوك ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك ، وقد منسني من الألم ما لم يشفه غير مواسلتك .

رسالة أخرى في الاعتذار :

قال الجاحظ :

تشاغلنا مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبني محمد بن عبد الملك الزيات لمؤانسته فأخبرته باتصال شغلي مع الحسن بن وهب فتنكر لي وتلون علي فكتبت إليه رقعة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسويين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم أجتريء إلا لأن دوام
تفانك عنى شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من
المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : « عمر
كان خيراً لي منك ، أرهني فاتقاني ، وأعطاني فأغتناني » .

فإن كنت لاتهب عقابي - أيدك الله - لخدمة ، فبه لآياديك عندي ،
فإن النعمة تشفع في النعمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ،
وإلا فافعل ذلك لحسن الأحداث ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون
ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد .
وتتجافى عن عقاب المصير ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه
نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإيناع إلى منك ، هجمت عليه بالعقوبة .
واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك على كزين صفحك عني ، وأن موت ذكرى
مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك ، واعلم أن لك فطنة
عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

رسالة في الشوق :

ما أضاء لي نهار ولا دجاليل مذفارتك إلا وجدت الشوق إليك قد حزن
في كبدي ، والأسف عليك قد أسقط في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جلدي .
فأنا بين حشا خافقة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح
قد أبلت بما تكابد ، وذكرت - وأنا على فراش الارتماض ، ممنوع من لذة
الاغتماض - قول بشار :

إذا هتف القمري نازعني الهوى بشوق فلم أملك دموعي من الوجد
أبي الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كما المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بيني زمانا وبينها كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجرب في مودتنا إليه ، في شعره
هذا . وذكرت أيضاً ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائي من إخواني
الذين أنت أعزهم ، ويمتحنني بمن نأى من أحبائي وخلصائي الذين أنت أحبهم
وأخلصهم ، ويجر عنيه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن
آيات سروري بالقرب منك ، ولين عيشي بسرعة أربتك ، وقلت آياتاً تقصر
عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبي وهي :

بجدي من قطر الدموع ندوب وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذبذب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها يخبر عنى اننى لك كئيب
كأنى لم أجمع بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب

رسالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ولا رأيت شيئاً هو أنفذ
من شماتة الأعداء ولا أعلم باباً أجمع لخصال المكروه من الذل . ولكن
المظلوم مادام يجد من يرجوه والمبتلى مادام يجد من يرثى له فهو على سبب
درك، وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة وضيقه مصمتة قد فتحت
أفقالها وفككت أغلالها، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك وفى
حسن النية بينى وبينك، لامشئت الهوى ولا مقسم الأمل، على تقصير قد احتملته .

إلى الفتح بن خاقان :

كان الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل فى
دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ،
وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب
من أكابر العلماء ، وفحول الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان
محباً للجاحظ ، معجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلاً
للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فألف له رسالته المشهورة فى مناقب
الترك وهامة جند الخلافة ، ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية
البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصاح على
يديك ، وجعلنا وإياك بمن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل
ما فيه مما قد يصد عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، دون

الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ،
والصبر على المحافظة في أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت في تحقيقه لديهم . فإن
الله تعالى لم يعلم الناس ليسكنوا عالمين دون أن يكونوا هاملين ، بل عليهم
ليعملوا ويرين لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع في المضار ، والتورط في المهالك ،
طلب الناس التبين . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة في المنفعة احتملوا
ثقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال
الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين .
وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال
ما فيه معجل .

وقد أعجبنى ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير
خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على ملكك وإن دق ، ونال سلطانه
وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه
وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه متطرقاً ، والعدو عليه
متعلقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ،
ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح (١) ومن معجب برأيه
ذى خطل في بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى
كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ،
وفي موضع التصفيح على الخلفاء والوزراء ، لا يهذر وإن كان مجاز العذر
واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى
مالا يرى الغائب وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ،
ولامستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد اضطغنه الحرمان .
ومن لئيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطيء قد أخذ أضعاف حقه ، وهو

(١) المتصفح : المقلب لوجوه الأشياء عليه يعثر على ما يوجب المؤاخذة
والانتقاد .

لجهله بقدره ، واضيق ذرعه ، وقله شكره ، يظن أن الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه . لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قدغره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نفاق في المهرج ، قد أقصاه عن السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيب لا يجد غير التثني ، ولا يتشقى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب . ومفتون مرتاب ، وخارص (١) لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده . يريد أن يسوى بالكفاية ويرفع فوق الحماة ، لأمر سالف له ، وإحسان كان من غيره . وليس بمن يرب (٢) قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس (٣) شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها ؟

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناب أنصار خليفتك ، وإياها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأولياؤه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكافئة لأهل الحق . وقد استدلت بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط اكتراثك وتفقدك لأخاير الأعداء ، وبحثك عن مناب الأولياء . على أن مظهر من نصحك أمم (٤) في جنب ما بطن من إخلاصك ، فامتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعادنا من قول الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد .

(١) الخارص : الكذاب الختلق للأباطيل .

(٢) يرب : يزيد ويصلح .

(٣) الدروس : المحو والابلاء .

(٤) أمم . قريب ظاهر .

النقد في العصر العباسي الأول

انقسم نقاد الأدب وعلماؤه في هذا العصر إلى طبقات :

١ - فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، ويزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات ، - وهم علماء الأدب واللغة الذين تنقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتج بيت إسلامي (١) ، وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً (٢) . وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للبتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم (٣) ، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليماً للعرب .

ومنهم ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٤) فكان يقول في شعر أبي تمام : « إن كان هذا شعراً

(١) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٠٩ : ١ ، العمدة ٧٣ : ١

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٥ .

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠٤ ، أخبار أبي تمام ٢٤٤

فكلام العرب باطل (١) ، وأنشده ابن الطوسي أرجوزة لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها (٢) ، وكان ابن الأعرابي يعيب شعر أبي نواس فأشده رجل شعراً له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره (٣) ، وكان يستشهد في كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ، ولعله لو علم بذلك ما فعله (٤) ، وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة (٥) ؛ وكان الأصمعي يقول : ختم الشعر بالرماح (٦) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لو لا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٧) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبي تمام (٨) .

ومنهم إسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينصر الأوائيل ، وكان شديد العصية لهم (٩) ، فتعصب على أبي نواس (١٠) ، وطعن على أبي العتاهية (١١) ،

(١) المرجع السابق .

(٢) التصحيف والتعريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبي تمام ١٧٥ ، ص ٥٥ وما بعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ، الموازنة ١٠ . وراجع ٥٥ وما بعدها من الوساطة .

(٣) راجع ٢٨٩ : ١ زهر

(٤) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٧

(٥) العمدة ٧٣ : ١

(٦) البيان ١٩٧ : ٣

(٧) الأغاني ٢٣ : ٣

(٨) الموشح ٣٠٤

(٩) أخبار أبي تمام ٢٢١

(١٠) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموشح ، الأغاني ٢٨ : ٣

(١١) الموشح ٢٥٨ .

وكان لا يعتد ببشار ويقدم مرواناً عليه^(١)، وسمع أبي تمام ينشد شعراً له فقال يا هذا لقد شددت على نفسك^(٢)، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبي لا يرضى طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الأصمعي معه حين استحسنت بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما^(٣)، ولم يكن تعصب اسحاق للقديما في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنسك تغيير الغناء القديم وتعظم الأقدام عليه^(٤).

وكان المأمون - رغم ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية^(٥)، ودخل عليه أبو تمام في زى أعرابي فأشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به فلما انتهى إلى قوله:

هن الحمام فإن كسرت عياقة من حائض فانهن حمام

فقال المأمون: الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبك بدوياً ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم، فغض به ذلك عنده^(٦).

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأخرى. فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن

(١) الأغاني ٢٨ : ٣

(٢) الموازنة، وترى برواية أخرى (٢٢٧ الموشح)

(٣) الوساطة ٥٠، والموازنة ١٠ (٤) الأغاني ٣٥ : ٩

(٥) ديوان المعاني ٣٦٢ : ١

(٦) ديوان المعاني ١٢٠ : ٢

تدرس ليلاً ونهاراً ، فإن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .
واعتمد الباقلاني عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يميلون إلى الذي
يجمع الغريب والمعاني (٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة
تقنهم بما يأتي به المولدون (٣) .

ب - وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبي وحده في الشعر
وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً كالجاحظ وابن
قتيبة والمبرد وابن المعتز (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين
لغير سبب (٥) ، وفضل خلف لامية مروان على لامية الأعشى (٦) ، ويشرح
الجرجاني والباقلاني مذهبهم في النقد (٧) .

ج - وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة في النقد كما فعل قدامة في
نقد الشعر ، ومن هؤلاء جماعة من الكتاب تعمقوا في نقد الشعر ومناهجه
ولاسيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله
أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد في نقد الشعر كان الشعراء يتشددون في طلب
العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن

(١) قواعد النقد الأدبي ص ١٤٤ وما بعدها

(٢) إعجاز القرآن ١٠٠

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الحيوان ٤٠ : ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ : ١ ، العمدة

١٧٤ : ١ (٥) أخبار أبي تمام ١٧٤ وما بعدها ، وسائل ابن المعتز ١٤

(٦) العقد ص ٤٠٢ : ٣

(٧) الوساطة ٣٧ وما بعدها ، إعجاز القرآن ١٠٠

(٨) زيدان ١٥٧ : ٣

مناذر م ١٩٨ : فقد أنشد أبا عبدة قصيدته في رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب
النقفي (١) :

كل حي لاق الحمام فودى ما لحي مؤمل من خلود

وهي التي عارض بها قصيدة أبي (٢) زبيد الطائي :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأمل طول الخلود

فقال : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذلك متقادماً الزمان
وهذا محدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعرين ، واحكم لأفضحهما
وأجودهما (٣) .

انتهى الكتاب

(١) راجعها في الكامل للبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ : ٣ ، والمبرد شديد الالهباب
بها ٢٢٨٨ : ٢ الكامل
(٢) راجعها في (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب)
(٣) ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز

خاتمة الكتاب

هذه هي نهاية تلك الدراسات المستفضية للأدب العباسي وجوانب
التجديد فيه ، وهي دراسات استغرقت جهدا طائلا ، ووقتا كثيرا ،
وتعد - كما هي - صورة واضحة للعصر العباسي وتاريخ النشاط الأدبي فيه ،
وألوان هذا النشاط وأعلامه .

ولا أملك ما أقوله إلا أن أحد الله على توفيقه ، وأسأله السداد
والهداية ، إنه أجل مأمول وأكرم مستول ، وما توفيق إلا بالله ؟
المؤلف

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أغراض الشعر	١٤٦	الحياة الأدبية في العصر العباسي	١
الغزل	١٤٨	الأول	
المدح	١٥٨	العصر العباسي الأول	٢
شعر السياسة والعصية	١٦٩	قيام الدعوة العباسية	٥
الوصف	١٧٢	الطابع السياسي في العصر	١٧
وصف الطبيعة	١٨٥	العباسي الأول	
الصيد والطرود	١٩٣	الطابع الاجتماعي لهذا العصر	٢٦
الخرابات	١٩٥	٤٥ - ٧٥ الطابع الثقافي للعصر	٤٥ - ٧٥
الحكمة	٢٠٠	العباسي الأول	
الزهد	٢٠٢	ترجمة العلوم والآداب الأجنبية	٥٢
الفخر	٢٠٤	التأثير الأجنبي في اللغة وآدابها	٦٣
العتاب	٢٠٦	الثقافات الأجنبية وأثرها في	٦٦
المهجاء والمجون	٢١٣	اللغة والآداب	
الثناء	٢١٦	٧٦ - ٢٧٠ الشعر في العصر العباسي	٧٦ - ٢٧٠
الشعر الخماسي	٢٢٦	الأول	
نماذج أخرى من الشعر العباسي	٢٢٩	تمهيد	٧٦
رواية الشعر	٢٣٢	تطور الشعر في العصر العباسي	٨١
طبقات الشعراء	٢٣٨	الأول	
الطبع والصناعة عند المحدثين	٢٣٩	عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء	٨٤
ابن المعتز العباسي	٢٤٨	مجالس الشعر والآداب	٩٧
النثر الفني في العصر العباسي	٢٧١	المحدثون والمولدون	١٠٤
الأول		ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا	١٠٦
الخطابة في العصر العباسي الأول	٢٧٥	العصر	
صور من الخطابة	٢٧٥	أوزان الشعر وقوافيه	١١٨
		أخيلة الشعر ومعانيه	١٢٤

الموضوع	الصفحة
تطور الخطابة في هذا العصر	٢٨٤
الكتابة في هذا العصر	٢٩٢
صور للكتابة	٢٩٢
حالة الكتابة في هذا العصر	٣٠٥
فن التوقيعات	٣٢٠
ابن المفتح	٣٢٣
الجاحظ	٣٣٤
النقد في العصر العباسي الأول	٣٧٤
خاتمة الكتاب	٣٧٩

ملاحظة :

لا يفوت القارئ تصويب بعض الأخطاء المطبعية ، وفي صفحة ٢ سطر ١٤ من القسم الثاني ذكر اسم أبي مسلم وأبي سلبية الخلال كل مكان الآخر ٩

مؤلفات وتحقيقات د . محمد عبد المنعم خفاجي

- ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان - مجلد
الادب الاندلسي
الادب الجاهلي (دراسة ونصوص)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
اسرار البلاغة
الاسلام والغزو الفكري
اشعار الشعراء الستة الجاهلين
اعجاز القرآن (للباقلائي)
الاقتصاد الاسلامي
البديع (لابن المعتز)
التفسير الاعلامي للادب العربي - مجلد
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - مجلد
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الرؤيا الابداعية في شعر
احمد زكي ابو شادي
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف
بالاشتراك مع د . عبد العزيز شرف

؛شاعر الشام خليل مردم
الفكر الاسلامي بين الاصالة والتجديد
فلسفة التاريخ الاسلامي
قصة الادب في ليبيا العربية
المختار من الحديث النبوي الشريف .
من تراثنا الخالد

تحت الطبع :

الاداب العربية في العصر العباسي الاول
الادب العربي الحديث ومدارسه
اعلام الادب في عصر بني امية
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر
دراسات في الادب والنقد
دراسات في النقد الادبي
فصيح ثعلب والشروح التي عليه
قصة الأدب في مصر
القصيدة العربية :دراسات ونقد
القصيدة العربية بين التطور والتجديد